

— دراساتٌ في السيرة والتأريخ —

سِيرَةُ النَّبِيِّ ﷺ
وَأَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ
دُرُوسٌ وَعِبَرٌ



د . محمد محمود مرتضى

مركز باراثا للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research



**سِيرَةُ النَّبِيِّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ
دُرُوسٌ وَعِبَرٌ**

د. محمد محمود مرتضى

◆ رقم الطبعة: ◆ تاريخ الطبعة: ◆ مكان الطبعة:
الأولى ٢٠٢٥ م - ١٤٤٧ هـ ◆ بروت - بغداد

■ ■ ■ الآراء المطروحة لا تعبّر عن رأي المركز بالضرورة

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مَرْكُزْ بِرَاثَةِ الْدِرَاسَاتِ وَالْجُهُوْتِ
بِيرُوتَ - بَغْدَادَ

Baratha Center for Studies and Research

www.barathacenter.com

barathacenter@gmail.com

— دراسات في السيرة والتاريخ —

سِيرَةُ النَّبِيِّ ﷺ
وَأَهْلِ بَيْتِهِ ؓ مُطَلِّعُ الْحَمَامِ
دُرُوسٌ وَعِبَرٌ



د. محمد محمود مرتضى

دِرَاسَاتٌ فِي السِّيرَةِ وَالتَّارِيخِ

تُمثّل دراسة التاريخ فعل وعي يُعيد للإنسان قدرته على فهم حاضره وتوجيه مستقبله. فالأمم التي تُحسن قراءة تاريخها تمتلك مفاتيح قوتها، وتعلّم من مصادر الحكم المتجدّدة في تجاربها؛ إذ يكشف التاريخ، حين يُقرأ بوعي، عن السنن التي تحكم تحولات المجتمعات، كما يكشف عن أثر القيادة والرسالة في صناعة الحضارة.

ومن بين صفحات التاريخ كله، تبقى سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسيرة أهل بيته عليهم السلام المركز الذي تتشعب منه الهدى، والميزان الذي يقاس به صدق التجارب البشرية وعمقها. فهي ليست سجلًّا لأحداث، وإنما مدرسة في الإيمان، والسياسة، والمجتمع، وبناء الإنسان، ومعرفة السنن الإلهية في التغيير.

انطلاقاً من هذه الرؤية، تأتي سلسلة «دراسات في السيرة والتاريخ» لتشكّل مشروعًا بحثيًّا يسعى إلى قراءة تلك السيرة وما يرتبط بها من قضايا تاريخية كبرى، قراءةً تجمع بين التحقيق العلمي ووعي السنن واستخراج الدروس وال عبر. تعتمد السلسلة منهاجًا تحليلياً رصينًا يُبرّز الصورة الواقعية للنبي وأهل بيته بعيدًا عن القراءات المجتزأة، مع ربط الأحداث بسياقاتها السياسية والاجتماعية والثقافية.

وتهدف السلسلة إلى:

- إعادة وصل القارئ بالجذور الرسالية التي انطلقت منها حضارة الإسلام.
- إبراز محورية شخصية النبي وأهل بيته في تشكيل الوعي الإيماني والإنساني.
- تحليل القضايا التاريخية المفصلية التي صنعت مسار الأمة.
- تقديم دراسات عميقه وهادئه تُعين الباحث والمهتم على فهم الحاضر واستشراف آفاق المستقبل.

من هنا، تأتي «دراسات في السيرة والتاريخ» لتكون منصة علمية تُعيد بناء التصور التاريخي على أساس راسخة، وتنمّح القارئ مادةً محققةً وواعيةً تتجاوز السرد التقليدي إلى الفهم العميق لدور الرسالة والقيادة ومتغيرات الزمان.

مقدمة

ليس هذا الكتابُ سرداً تقريريّاً للسيرة، ولا تجميعاً للواقع من بطون التاريخ، بل محاولةً لقراءة النور الإلهيّ وهو يتجسد في حياة بشر اصطفاهم الله لتكميل الإنسان. فالسيرة هنا لا تُروى لتحفظ بل لتفهمٍ، ولا تستعاد لتوسيط الماضي بل لتنير الحاضر وتوجه المستقبل. إنَّ النبيَّ الأكرم محمدًا ﷺ وأهل بيته الطاهرين علیهم السلام لا يمثلون متالية زمنية من القادة، بل منظومةً واحدة تُترجم الوحي في حركة التاريخ، بحيث يكون كُلُّ إمامٍ امتداداً للنبوة في وظيفتها: حفظ الرسالة، وتجسيد القيم، وصيانة العقل والضمير من الانحراف.

ليست السيرة النبوية، في أصلها، سجلَّ أحداثٍ بل منهجٍ وعيٍ. فهي ترينا كيف يتحول الإيمان إلى نظام حياة، وكيف يترجم التوحيد إلى عدل، وكيف تُدار الصراعات لا بروح الانتقام بل بروح الإصلاح. لذلك، يبدأ هذا الكتاب بسيرة النبيِّ الأكرم ﷺ لا بوصفه مؤسس دينٍ فحسب بل بوصفه النموذج الأكمل للإنسان الذي جمع بين الوحي

والعمل، وبين الرحمة والقيادة، وبين العبادة والسياسة، فكانت حياته كأنها ترجمةً عمليةً للقرآن: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» [القلم: ٤]. ومنه تبثق سيرة الأنئمة المعصومين عليهم السلام بوصفها امتداداً حياً للنبوة الخاتمة، يواصلون بها تجسيد الحقيقة في سياقات التاريخ المختلفة.

لقد كان لكل إمام من الأنئمة عليهم السلام دوره الخاص في حفظ الدين وتكميل الأمة، لكن جوهر الإمامة واحد: هداية الإنسان إلى الله عبر تحريره من عبودية السلطة والهوى. فالإمام علي عليه السلام أعاد تعريف السلطة بوصفها تكليفاً لا تملكاً، والإمام الحسن عليه السلام صان وحدة الدين بالحكمة، والإمام الحسين عليه السلام استعاد كرامة الإيمان بالشهادة، والإمام زين العابدين عليه السلام أعاد بناء الوعي بالعبادة والدعاة، والإمام البارق عليه السلام فتح باب العلم المؤسس، والإمام الصادق عليه السلام أرسى منهج الفقه والحوار، والإمام الكاظم عليه السلام علم الصبر بصفته قوة روحية، والإمام الرضا عليه السلام واجه الدولة بالعلم والعقل، والإمام الجواد عليه السلام بين أن صغر السن لا يحجب كمال العلم، والإمام الهادي عليه السلام أسس شبكة الوكالء ومؤسسة الإمامة، والإمام العسكري عليه السلام مهد لمرحلة الغيبة بترسيخ القيادة العلمية، ثم ختم الإمام المهدي عليه السلام سلسلة النور بوعد الظهور الذي يبقى الأفق المفتوح للعدل الشامل.

من هنا، فإن فضول هذا الكتاب لا تقدم بترتيب زمنيٍّ فحسب، بل

بمنطق تربويٌ وتحليليٌ يرى في كلّ فصل حلقةً من مشروع الهدایة الإلهیة. فكلّ إمامٍ يعالج جانباً من أمراض الإنسان والمجتمع، ويقدم درسًا عملياً في الإصلاح: من الجهاد إلى الصبر، ومن المعرفة إلى العمل، ومن الثورة إلى الدعاء. إنّها مسيرةُ الإنسان في مدارج الكمال، تتجسد في سيرتهم لتصبح منها تربوياً لا تاريخيًّا فقط.

ولا يكتمل فهم هذه السيرة إلا إذا نظر إليها بوصفها «خطاً متَّصلاً» لا سلسلة من الشخصيات المتفرقة؛ فليست النبوة والإمامية مرحلتين منفصلتين، بل وجهين لمشروعٍ واحد: الوحي في مساره التاريخي لحماية الفطرة وبناء الأُمّة. بهذا الفهم يصبح التاريخ مجالاً للتكليف، لا مساحةً للتأمل العاطفي. إنّ كلّ مبحث من مباحث هذا الكتاب يذكر بأنَّ الهدایة ليست فكرةً موروثة، بل عهداً متجددَ بين الله وعباده، يتجدد بقدر ما نقرأ سيرة النبي ﷺ والأئمَّة عليهم السلام بعينِ تعلمٍ وتعلم.

ولذلك، فإنَّ «الدروس وال عبر»، التي يشير إليها عنوان الكتاب، ليست عبراً وعظيَّة بل قواعد في الوعي والسلوك: كيف نفهم العلاقة بين الإيمان والسياسة، وبين العبادة والمسؤولية، وبين المعرفة والعمل، وبين الانتظار والحركة. فحين نقرأ طفولة النبي ﷺ لا نبحث عن العجائب بل عن إعداد السماء للعقل الكامل، وحين نقرأ كربلاء لا نبحث عن المأساة بل عن معنى النهوض والحربيَّة، وحين نقرأ سجن

الإمام الكاظم عليه السلام ندرك أنَّ الصبر ليس سكوناً بل مقاومة، وحين تتأمل غيبة الإمام المهدي عليه السلام نفهم أنَّ الحضور لا يُقاس بالمكان، بل بالاستمرار في مشروع العدالة الإلهية.

إنَّ هذا الكتاب إذ يجمع سيرة النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته عليهم السلام في بناءٍ واحدٍ، إنَّما يدعو إلى استعادة «المنهج الحي» في قراءة التاريخ الإسلامي: أنَّ نرى في كلِّ واقعةٍ من وقائعهم درساً في بناء الإنسان، وفي كلِّ موقفٍ من مواقفهم معياراً يُصْحِّحُ وعيها، وأنَّ نفهم أنَّ الرسالة التي بدأها محمد صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم تنتهِ، بل ما زالت تسري في ضمير الأمة من خلال خط الإمام الذي يحفظ جوهرها من التحريف والضياع.

الفَصلُ الأوّلُ:

الرَّسُولُ الْأَكْرَمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتَمُ النَّبِيِّنَ
وَسِيدُ الْمَرْسَلِينَ

عندما نريد أن نقرأ سيرة النبي محمد ﷺ فإنه ينبغي أن نقرأها من باب أنها مفاتيح لفهم ختم النبوة وما ترتب عليه في الاجتماع والسياسة والأخلاق. فالنسب والشأة والرضاعة في الbadia يفهمون على أنها طبقات من «الإعداد»؛ أي صفاء الفطرة، واستقامة اللسان، واقتدار عملي سبق التكليف. وتُفهم كفالة (عبد المطلب) ورعاية (أبي طالب) ضمن شبكة حماية اجتماعية هيأت للرسالة شروط بقائها الأولى.

ليست الهجرة انتقالاً جغرافياً، بقدر ما هي انتقالاً مركز الفعل من الدعوة الفردية إلى تأسيس البنية المؤسسية. هنا يتبدى المسجدُ بصفته وظيفةً جامعةً (عبادة/علم/قضاء)، والأذانُ إعلاناً للسيادة الإلهية في المجال العام، والمؤاخاةُ والصحيفةُ تحويلاً للقيمة إلى عقد اجتماعي. في هذا الإطار تُقرأ المواجهات العسكرية—من بدر وأحد والخندق إلى الحديبية—ضمن مبدأ ثابت هو أن الانضباط والتخطيط قرينان للتوكّل، والصلاح حين يوسع المجال الدعوي أولى من معركة لا تضيف إلى ميزان القوة شيئاً.

وفي المدينة، تُفهم إدارة التعدد الديني في المدينة وفق معيارٍ مزدوج:

وفاءً صريحاً بالعهد ما دام قائماً، وحزماً مشروعً عند نقضه. ثم يأتي فتح مكة نموذجاً لسيادة خلقية لا تتغدر بالثأر. أما خط الاستمرار بعد ختم النبوة فيصاغ بوضوح في حجة الوداع وغدير خم. وهكذا سنجد أن كلَ حدث يخدم وظيفة معرفية؛ فتمثل الولادة والطفولة منطق الإعداد، والهجرة بناء المؤسسة، والصحيفة تعريف المواطنة، والغزوات ضبط مشروعية القوة، والبيعة تحديد مرجعية الهدایة بعد الختم. هذه القراءة ستُعيد ترتيب الدلالات بحيث يصبح النص العملي من السيرة هو المعيار.

المبحث الأول: الولادة الطاهرة والنشأة المباركة

أولاً: النسب الطاهر الشريف

ينتمي النبي الكريم محمد ﷺ إلى أسرةبني هاشم، وهي من أشرف عائلات مكة وأرفع أسرها.. ويعود هذا النسب الطاهر إلى (هاشم بن عبد مناف).. فهو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، المنحدر من ذرية عدنان أحد أحفادنبي الله إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام^(١). وكان جميع آبائه وأجداده من الموحدين المؤمنين على دين

١ - راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: تاج المواليد، ص٤؛ علي بن عيسى الأربلي: كشف الغمة في معرفة الأنتمة، ج١، ص١٥.

الحنينيَّة الإبراهيميَّة السمحاء، وكان فيهم الصدِيقون والمخالصون من الأنبياء والمرسلين أو الأوصياء المعصومين^(١)؛ يقول -عَزَّ وجلَّ- في كتابه الكريم: «الَّذِي يَرَكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلِبَكَ فِي السَّاجِدِينَ» [الشعراء: ٢١٨-٢١٩].

ثانيًا: الولادة المباركة

جاءت ولادة النبي الكريم محمد ﷺ في عام الفيل من أبوين طاهرين، فأمُّه كانت السيدة (آمنة بنت وهب) من بنى زهرة، وأبيه كان (عبد الله بن عبد المطلب).. وجرت الولادة في شعب (أبي طالب) في يوم الجمعة الموافق للسابع عشر من شهر ربيع الأول عام ٥٧١ للميلاد، قبل البعثة النبوية بأربعين عاماً^(٢)، وتحدَّثت الأخبار والروايات المتطابقة عن أنَّ ولادته المباركة رافقتها حوادث عدَّة مختلفة على مستوى العالم، ومنها اضطراب إيوان كسرى أنسوشيروان، وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته، وغير ذلك^(٣).

١ - راجع: محمد بن النعمان (الشيخ المفيد): تصحيح اعتقادات الإمامية، ص ٦٧؛ محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج ١٥، ص ١١٧.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٤٤٠.

٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج ١٥، ص ٢٦٣.

وقد خلقت ولادته أجواء واسعة من الفرح والسعادة الغامرة لدى عائلته بالذات، خاصة جده (عبد المطلب بن هاشم) الذي التزم بتربيةه؛ باعتبار أنَّ والد النبي (عبد الله) كان في ظرف سفر إلى الشام لقضاء أعمال تجارية، وقد تُوفِّي في المدينة قبل ولادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١)، وحيث جرى دفنه في دار النابغة (قيس بن عبد الله)^(٢).

ثالثاً: الرّضاعة:

شاءت الأقدار الإلهية ألا يرتفع النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ولادته (السيّدة آمنة) إلا عدّة أيام، ليجري وضعه بعدها في كنف السيّدة (حليمة السعدية) التي حظيت بشرف إرضاعه، وهي من قبيلةبني سعد^(٣). وقد كان صاحب الرأي في هذا جده (عبد المطلب) الذي قرر إرسال حفيده لاستكمال التنشئة والرعاية في أجواء الbadia التي تتوافر فيها مقومات

١ - راجع: محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٤٤٠؛ أحمد بن إسحاق البغوي: تاريخ البغوي، ج ٢، ص ١٠؛ أحمد بن يحيى البلاذري: أنساب الأسراف، ج ١، ص ٩٢.

٢ - راجع: محمد بن جرير الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ١٦٥ - ٢٤٦.

٣ - جعفر مرتضى العاملى: الصحيح من سيرة النبي الأعظم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ج ٢، ص ١٤٧.

تعلّمَهُ واكتسابهُ اللغةُ والبيانُ، وتقواهُ شخصيَّتِهُ وتحصينُ مناعتهُ^(١). أحاطتُ المُرْضِعَةُ (حليمة السعدية) النَّبِيُّ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرِعايَةِ فائقةٍ واهتمام بالغٍ، ووُجِدتُ في رعايَتِه عوناً من زوجها الذي شاركها في هذه المهمَّةِ الجليلةِ. وقد أُولت النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العنايةِ في تربيَتِه ما فاق اهتمامها بأبنائِهِ أنفسَهُم؛ إذ لمستُ فيهِ مِنْذُ اللحظةِ الأولىِ معانِي البركةِ والخيرِ، واستشعرتُ النُّبُلَ والنُّورَ الذِّي يشعُّ من شخصيَّتِهِ. وتُروي عنَّها قصَّتها الشهيرَةُ التي قالتُ فيها: «لَمَّا عَدْنَا إِلَى دِيَارِ بَنِي سَعْدٍ وَمَعْنَا ذَلِكَ الْيَتِيمَ، كَانَتْ أَرْضَنَا تَعَانِي مِنْ قَحْطٍ شَدِيدٍ، وَكَانَتْ أَغْنَانَا جَائِعَةً لَا تَجِدُ مَا تَشْبِعُ بِهِ. وَلَكِنْ مِنْذُ حَلَّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَنَا، انْقَلَبَ الْحَالُ فَأَصْبَحَتْ أَغْنَانَا دَارَةً لِللبَّنِ بِوْفَرَةٍ، حَتَّى أَصْبَحَ جِيرَانَا يَتَمَّنُونَ لَوْ كَانَ لِدِيهِمْ مُثْلِهِ، فَقَدْ أَزَالَ اللَّهُ بِهِ عَنَا الْفَقْرَ وَالشَّدَّةَ، وَجَعَلَ فِيهِ الْبَرَكَةَ كُلَّهَا»^(٢).

وبقي الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رعايَةِ (حليمة) وأسرتها في الْبَادِيَةِ حتَّى بلغَ الخامسةَ من عمرِهِ، لتعودُ بهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أُمِّهِ وَجَدَهُ (عبدِ المطلبِ)

١ - للمزيد راجع: عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين السيوطي): *الخصائص الكبرى*، ج ١، ص ٥٧؛ جعفر مرتضى العاملى: *الصحيح من سيرة النبي الأعظم* ص ١٤٧، ج ٢.

٢ - راجع: أحمد بن إسحاق اليعقوبي: *تاريخ اليعقوبي*، ج ٢، ص ١٠؛ محمد بن جرير الطبرى: *تاريخ الرسل والملوك*، ج ١، ص ٥٧٣.

الذي تكفل به قبل أن ينتقل إلى كنف عمّه (أبي طالب) الذي واصل رعايته وحمايته.

رابعاً: النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كِفَالَةِ جَدِّهِ

بعد أن عادَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَيٍّ (بني سعد)، تُوفِّيتُ والدته، وهو ما زال في السادسة من عمره، وبهذا بات يتيم الوالدين...! فانتقلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى كِفَالَةِ جَدِّهِ لَأَبِيهِ (عبد المطلب) الذي وَفَّرَ لَهُ كُلَّ اهتمام ورعاية وحضانة أبوية حقيقة، حتى أَنَّهُ كَانَ يُفَضِّلُهُ عَلَى باقي عائلته أبناء وأحفاداً... وعلى ما يبدو فقد كان هناك سُرُّ كامن وراء هذا الاهتمام والاحتضان الأُسْرِي للجد (عبد المطلب)، وهو أَنَّهُ كَانَ يَعْرُفُ بما سيَكُونُ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُسْتَقْبِلِ عَلَى مَسْتَوِيِّ عَظَمَةِ شَأنِهِ وَمَوْقِعِيَّتِهِ، وَقَدْ ظَهَرَ هَذَا مِنْ خَلَالِ أَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ:

١. ظَهُورُ كَثِيرٍ مِّنَ الْخَصَالِ وَالصَّفَاتِ وَالْمَلَامِحِ لَدِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ صَغْرِهِ، خَاصَّةً لِجَهَةِ تَدْفُقِ الْخَيْرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ، وَأَيْضًا مَا رَافِقَ حَيَاتَهُ مِنْ بَعْضِ الْأَحْدَاثِ مِنْ لَحْظَةِ الْوِلَادَةِ، وَمِنْ ثُمَّ وَهُوَ فِي حَضْنِ أَمِّهِ، وَلَاحِقًا اِنْتِقالَهُ إِلَى بَيْتِ الْمُرْسِعَةِ الَّتِي سَلَطَتُ الضَّوْءَ عَلَيْهَا مَا جَرَى لَهَا مِنْ سَعَادَةٍ وَسُرُورٍ بَعْدِ إِرْضاعِهَا لَهُ، وَمَا حَصَلَ لِعَائِلَتِهِ مِنْ خَيْرٍ وَفَيْرٍ.

٢. كثير من البشائر والروايات التي تحدّث (وبنّيات) عن وجود مستقبل زاهر يتظاهر هذا الطفل خاصةً على صعيد نبوته. ومع زيادة تلك العلامات والبشائر، ترسّخت في نفس (عبد المطلب) حالة اعتقادية عميقه في شأنية الحفيد العظيم، وهذا ما دفعه إلى تعميق اهتمامه بالنبي الكريم ﷺ، وإحاطته بالحُبّ والعناية الأبويّة الكاملة، جاعلاً له مكانة عالية ومرموقة لم يصل إليها أحد غيره، حتى من الأبناء... لكنَّ هذا الحنان الدافق وهذه الرعاية الكريمة لم تدم له طويلاً، فقد تُوفِيَ (عبد المطلب) والنبي ﷺ في الثامنة من عمره، فانتقل بعده إلى دار عمه (أبي طالب)^(١).

خامساً: محمد بن عبد الله في ظل رعاية (أبي طالب) الهاشمية:

ذكرت الأخبار الموثقة أنَّ (عبد المطلب)، جد النبي الكريم ﷺ، جمَّعَ أبناءه العشرة قبل وفاته بقليل، وأودعهم أهمَّ وصيَّةً لديه، وهي ضرورة اهتمامهم الكبير واحتضانهم العميق لهذا الطفل اليتيم، ملِمًّا لهم أنَّ شائعاً عظيماً سيحصل له في قادم الأيام، حتى أنَّ بعض الروايات

١ - راجع: محمد بن علي بن أبيه (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، ص ١٧١.

نقلت عنه أَنَّه قال بالحرف: ”قد خلَفتُ في أَيديكم الشَّرَفَ العَظِيمَ الَّذِي تطَئُونَ بِهِ رقَابَ الْعَرَبِ“^(١) ... ولم يتأخِّرَ كثِيرًا (عبد المطلب) في اختيار (أبي طالب) ليكون كفیلاً لابن أخيه محمد ﷺ، يشرف على رعايته وتنشئته، ويدير شؤونه، وهو ما زال طفلاً ينمو ويكبر، وهذا الاختيار جاء لداعفين:

١. إنَّ (أبا طالب) كان أخاً لوالد الرسول الكريم ﷺ من أُمّهِ، أي إِنَّ (عبد الله) و(أبا طالب) كانوا من الأم نفسمها والأب نفسه.. وأمّهما هي (فاطمة بنت عائذ المخزوميَّة)، بما يعني عمليًّا أنَّ عمَّ الرسول ﷺ سيكون أكثر رعاية واحتضانًا وحنانًا لابن أخيه من أُمّهِ وأبيه، من بقية إخوته الذين اشتراك معهم فقط بالنسبة للأبوين؛ لأنَّهم كانوا من أمّهات شتَّى.
٢. يمكن في طبيعة شخصيَّة العم (أبي طالب) الذي كان يتميَّز بصفات شخصيَّة عاليَّة من الْكَرَمِ، والأخلاقيَّات، والنبل، والعطف، والإنسانية، والمكانة العالية، يتفوَّق بها على أخوته.. وهذا ما أعطاهم مكاسب عملية أكثر منهم، فورث زعامة أبيه، وخضع لزعامته القريب والبعيد بالرغم من

١ - أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ الْيَعْقُوبِيِّ: تارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ، ج٢، ص١٣ .

الفَصْلُ الْأَوَّلُ – المَبْحَثُ الْأَوَّلُ ١٩

فقره^(١) .. وهنا نذكر الحديث الآتي الوارد عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام بهذا الخصوص؛ حيث يقول: ”إِنَّ أَبِي سَادَ النَّاسَ فَقِيرًا، وَمَا سَادَ فَقِيرٌ قَبْلَهُ“^(٢).

وبالنتيجة، فقد نفذ العم (أبو طالب) وصيحة أبيه بالكامل، فقد كان خير المعين والراعي لابن أخيه الرسول الكريم ﷺ، منشغلًا به طول الوقت، هو وزوجته السيدة فاطمة بنت أسد، ولم يتخلقا عن الاهتمام والعناية حتى آخر نفس من حياتهما المباركة.. حتى أن (أبا طالب) كان يأخذ ابن أخيه معه إذا كان مضطراً للسفر إلى خارج مكة أو الحججاز^(٣).. بما يعكس خوفه عليه، وحرصه الشديد على ألا يتعرض لأي مكروره..

سادساً: سفره إلى دمشق الشام

بعد أن أصبح النبي يافعًا، بدأ يذهب إلى الشام مع القوافل التجارية قبيلة قريش، وكانت له رحلتان، الأولى يرافق عممه، والثانية، يكون

١ - محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، ص ١٧١.

٢ - راجع: أحمد بن إسحاق العقوبي: تاريخ العقوبي، ج ٢، ص ١٤.

٣ - راجع: محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، ص ١٧١؛ محمد بن علي (الشيخ الصدوق): الأimalي، ص ٣٩١.

بصحبة غلام لخديجة لقضاء حوائج تجارية لها.. وبشيء من التفصيل يمكن أن نتحدث عن طبيعة الرحلتين السابقتين..

ففي الرحلة الأولى التي كان يخرج فيها النبي (وعمره اثنتا عشرة سنة) مع عمه (أبي طالب) للتبادل التجاري مع الشام، تذكر الروايات أن القافلة توقفت لبعض الوقت في منطقة بصرى (التابعة لمدينة درعا السورية حالياً)، وكان في المنطقة راهب يدعى بحيرا. وبالصدفة، لاحظ راهب قافلة قريش، فاستوقفته شخصية النبي محمد ﷺ وأخذت باهتمامه. وقد بدأ يتأمل ملامحه وصفاته بعناية، خاصةً بعد أن رأى غيمة بيضاء تظلله وتحرك معه أين ما جلس لتقيه حرارة الشمس. عندئذ، سأله بعض أفراد القافلة عن هذا الفتى، فأرشدوه إلى عمه (أبي طالب). فتوجه الراهب إليه مسرعاً وبشره بأنَّ ابن أخيه هو النبي المنتظر لهذه الأمة، موضحاً له أنَّ العلامات التي رآها على جسده الشريف، ومنها خاتم النبوة بين كتفيه، تطابق تماماً النوعات والصفات المذكورة في الكتب السماوية السابقة، مثل التوراة والإنجيل وغيرها^(١).

وتتحدث الروايات أنَّ الراهب (بحيرا) أبدى إصراراً كبيراً في ضرورة أن يعود (أبو طالب) إلى مكة للمحافظة على النبي ﷺ، وإبقاءه

١ - محمد بن جرير الطبرى: دلائل الإمامة، ج ٣، ص ١١.

تحت رقابته حماية له من كيد اليهود وغيرهم، وهذا ما فعله العُم (أبو طالب)؛ حيث قطع رحلته وعاد أدراجه -مع ابن أخيه- إلى مكة.

وفي الرحلة الثانية: حيث وصل عمر النبِي الْكَرَم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَسْمَاهُ إلى سن الخامسة والعشرين، غادر مكة في تجارة خاصة بالسيدة خديجة، ويشير الرواة والمؤرخون إلى «أنَّ أبا طالب (عم الرسول) هو من أشار على النبي بالعمل التجاري مع خديجة، بسبب الوضع المادي الصعب الذي كان يعيشها آنذاك»^(١) ... والجدير ذكره هنا أنَّ العمل التجاري مع السيدة خديجة كان على شكل شراكة وليس تبعية، بما يعني أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَسْمَاهُ لم ي عمل أجيراً عندها أبداً؛ حيث سافر «برفقة ميسرة، وهو يعمل لدى خديجة، وربح في تجارته أضعاف ما كان يربحه غيره، وظهرت له في سفره بعض الكرامات الباهرة، فلما عادت القافلة إلى مكة أخبر ميسرة غلام خديجة سيدته بذلك»^(٢).

سابعاً: زواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَسْمَاهُ من السيدة خديجة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَسْمَاهُ
أصبح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَسْمَاهُ شاباً، وبدأ نجمه يلمع بين القبائل أخلاقاً وكرماً ونبلاً

١ - راجع: عبد الرزاق الصناعي: المصنف، ج ٥، ص ٣١٨، باب ما جاء في حفر زرم، ح ٩٧١٨؛ عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ١١٨؛ جعفر

مرتضى العاملی: الصحيح من سیرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَسْمَاهُ، ج ٢، ص ١٧٦، ح ٣، ص ٢٣.

٢ - جعفر مرتضى العاملی: الصحيح من سیرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَسْمَاهُ، ج ٢، ص ١٩٨.

وصدقًا في الحديث والمعاملة، وبهذه الصفات احتل قلوب الناس، وذاع صيته، حتى أنَّ السيدة خديجة هي من تقدَّمت بطلب الزواج منه، قبل العيادة النبوية قرابة خمس سنوات.. وبالفعل حصل الزواج بعد أن عادَ من رحلته الثانية إلى الشام، وكان وقتها في الثلاثينات من عمره الشريف..
 ويعتقد كثُر من الرواة التاريخيين أنَّ عمر السيدة خديجة حين زواجهها من الرسول الكريم ﷺ لم يكن أكثر من ثمانية وعشرين عامًا^(١).. وكان زواجه منها ﷺ هو الزواج الأوَّل في حياتها رغم وجود بعض الروايات والنصوص التاريخية التي أشاع أصحابها عن زواجهها لمرتين قبله^(٢)، ولكنَّها السياسة الضيقَة، ومحاولات النيل من شخصيَّة زوج الرسول..
 أما عن أولاد النبيِّ محمد ﷺ من زواجه هذا، فكانوا: (القاسم)، و(عبد الله)، و(زينب)، و(رقية)، و(أم كلثوم)، و(فاطمة الزهراء)^(٣)، أما (إبراهيم) فقد ولدته زوجته مارية القبطيَّة، وتُوفِيَ وهو صغير..

- ١ - أحمد بن الحسين البهقي: دلائل النبوة، ج ٢، ص ٧١.
- ٢ - والرجلان - كما زعموا - هما: عتيق بن عائذ المخزومي، ثم أبو هالة التميمي، راجع: حسين بن محمد الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، ج ١، ص ٢٦٣.
- ٣ - راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: تاج المواليد، ص ٨؛ محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٣، ص ٢٦٢.

ثامنًا: عمله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلبعثة

لم يكن الأنبياء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على غيرهم، فكثير منهم كان يعمل ويستحصل على رزقه من تعبه وكدحه، وهذا ليس عيباً بطبيعة الحال، طالما أنَّ الغاية تكمن في تأمين العيش الكريم له ولأهلـه دونـما مـدـّ الـيد إلى أحدـ منـ النـاسـ، أوـ العـيـشـ عـلـى حـسـابـ الآخـرـينـ.. وفيـ هـذـا درـسـ عمـليـ وـعـبـرـةـ حـيـاتـيـةـ لـلـأـتـابـعـ وـالـمـرـيـدـيـنـ..

وفي ديننا الإسلامي، توجد كثـيرـ منـ النـصـوصـ الـدـينـيـةـ، سـوـاءـ منهاـ القرـآنـيـةـ أـمـ الـحـدـيـثـيـةـ التـيـ تـحـضـ علىـ قـيـمةـ الـعـمـلـ، وـتـوـصـيـ الـمـسـلـمـيـنـ بـضـرـورـةـ الـانـخـراـطـ فـيـ مـيـادـيـنـهـ، وـتـوـجـبـ عـدـمـ الشـاقـلـ وـالـكـسـلـ، معـ التـأـكـيدـ عـلـىـ أـنـ الـعـمـلـ عـبـادـةـ حـقـيقـيـةـ.. وـأـنـ الـبـطـالـةـ عـيـبـ وـحـرـامـ وـدـعـوـةـ إـلـىـ الـعـيـشـ الطـفـيلـيـ الـخـالـيـ منـ الـمـسـؤـولـيـةـ وـالـكـرـامـةـ الـإـنـسـانـيـةـ.

وهـذاـ هوـ الرـسـوـلـ الـكـرـيمـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فـيـ حـيـاتـهـ قـبـلـ أـنـ يـبـعـثـ نـبـيـاـ؛ حيثـ كانـ نـمـوذـجاـ لـلـإـتـسـانـ الـعـاـمـلـ مـنـ أـجـلـ كـسـبـ رـزـقـهـ وـتـأـمـينـ حاجـاتـهـ وـمـعـيـشـتـهـ.. فـقـدـ عـمـلـ فـيـ رـعـيـ الأـغـنـامـ، وـاشـتـغـلـ بـالـتـجـارـةـ (ـمـعـ السـيـدـةـ خـدـيـجـةـ)، وـكـانـ فـيـهـ شـرـيـكـاـ لـهـ حـصـةـ مـنـ أـرـبـاحـ الـعـمـلـ.

تاسعاً: مكانة النبيِّ محمدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلبعثة

لـقـدـ كـوـنـ مجـتمـعـ مـكـةـ وـالـقـبـائـلـ الـمـحـيـطـةـ بـهـ اـنـطـبـاعـاـ طـيـبـاـ عـنـ شـخـصـيـةـ

النبي ﷺ التي عرفت بالإخلاص، والشهامة، والأمانة، والنبل، والصدق في العمل، والحكمة، وبُعد النّظر في التعامل - فأصبح موضع تقدير واحترام كبيرين لديهم، حتى أنّهم أطلقوا عليه الصادق الأمين، ”كما اشتهر برجاحة عقله، وصواب رأيه ”حتّى وَجَدَ فِيهِ الْمَكِّيُونَ وَالْقَرْشَيُونَ سِيدًا مِنْ سَادَاتِ الْعَرَبِ الْمَوْهُوبِينَ، وَمَرْجِعًا إِلَيْهِمْ فِي الْمَهْمَاتِ وَحْلَّ الْمُشْكُلَاتِ وَالْخُصُومَاتِ“^(١) .. ما جعل الناس تحاكم في مشكلاتها ومنازعاتها إليه ﷺ؛ لأنّه كان لا يُداري ولا يُماري^(٢).

عاشرًا: رؤية النبي ﷺ و موقفه من حرب الفجّار

كانت القبائل العربية في الفترة التي سبقت بعثة الرسول ﷺ، وحتى بعدها، تختلف مع بعضها، وتدخل في ما بينها - بين وقت وأخر - في صراعات وحروب دمويّة بعد انعدام المعالجات والحلول السلميّة.. وعندما كان الرسول الكريم محمد ﷺ في عقده الثاني، استعملت الصراعات - على سبيل المثال - بين كل من قبيلتي (قيس) و(قرיש)، ويعود السبب في اندلاع القتال بينهما إلى قيام (نعمان بن المنذر) بقتل أخيه (بلعاء بن قيس)؛ حيث إنّ (بلغاء) كان يمارس أعمال السرقة

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٦٨.

٢ - سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الأوسط، ج ٢، ص ١٤٥.

والنهب (البلطجة) والاعتداء على القوافل التجارية لـ (النعمان)،
”فطلب النعمان من عروة بن عتبة ومن البراض بن قيس حمايتها،
فتبرع كلّ منهما لذلك، وتنازعا أيّهما يقدم هذه الخدمة للنعمان، فكان
أنّ تعرّض البراض لعروة وقتله، فتعصّب لكلّ منهما قبيلته ووقعت
الحرب في شهر رجب وهو أحد الأشهر الحرم، ولذلك أطلق عليها
بحرب الفجّار؛ لأنّ المنخرطين فيها فجروا، وانتهكوا الأشهر الحرم“^(١).
وبطبيعة الحال، وبالنظر لحكمة العُمَّ (أبي طالب)، فقد امتنع -
مع بني هاشم - عن الانخراط في هذه المنازعات الحربية بين القبائل؛
باعتبارها كانت حرّيًّا ظالمة وخاسرة للفريقين، ولا بدّ من إيقافها.. وهنا
تجدر الإشارة إلى أنَّ النبي محمد ﷺ - وكان وقتها يعيش في كنف
عمِّه - التزم بقرار الجماعة، ولم يشارك أبداً في تلك الحرب.

حادي عشر: موقف النبي ﷺ من حلف الفضول كانت مكَّة قبلة للحجاج والزائرين والتجّار ممن كانوا يتواجدون إليها

١ - راجع: عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٥؛ أحمد بن إسحاق
اليعقوبي: تاريخ العقوبي، ج ٢، ص ١٥؛ أحمد بن عبد الوهاب التويري: نهاية الأرب
في فنون الأدب، ج ١٦، ص ٩٣؛ عبد الرحمن بن خلدون: العبر وديوان المبدأ والخبر
في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج ٢، ص ٦٥.

من كل الشعب والأماكن، وكانت تحدث أعمال اعتداء من سرقة ونهب وغيرها على تلك الوفود والقوافل التجارية، وبهدف مواجهة قطاع الطرق واللصوص، والتخلص من تلك الممارسات القبيحة، اقترح (الزبير بن عبد المطلب) تأسيس وعقد شكل من أشكال التحالف بين القبائل في قريش.. وبالفعل فقد تداعت القبائل، وعقد بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد وغيرهم، اجتماعاً موسعاً في دارة (عبد الله بن جدعان)، أعلنوا في نهاية عن إقامة تحالف لمواجهة الظلم والفساد، والانتصار للمظلوم، والدفاع عن الحق، ومنع الاعتداء على القوافل، وأطلق عليه بتحالف (حلف) الفضول.. ويعود سبب التسمية إلى أن زعماء قبيلة قريش قالوا بعد عقده بأنه فضول من الحلف، وقيل: لأن ثلاثة ممن اشترکوا فيه كانوا يُعرفون باسم الفضل.. وقد حضر الحلف الرسول الأكرم(ص)، ولم يكن له من العمر إلا عشرون سنة.. وقد كان هذا الحلف موضع ثنائه عليه عليهما السلام، وروي أنه قال عليهما السلام: "لقد حضرت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما يسرني به حمر النعم، ولو دعيت إلى مثله لأجئت"^(١).

١ - راجع: عبد الحميد بن هبة الله (ابن أبي الحديد المعذلي): شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٢٩؛ إسماعيل بن عمر القرشي (ابن كثير): البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٩٣؛ علي بن الحسين الأصفهاني: الأغاني، ج ١٦، ص ٦٥؛ علي بن ابراهيم الحلبي: السيرة الحلية، ج ١، ص ١٣٢؛ علي بن الحسين المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ١٧.

وإذا ما حاولنا أن ننظر بتمعن وتدقيق، وشيء من التحليل العقلي إلى هذا الحلف، فيمكننا أن نؤكّد على ما يأتي:

إنَّ إشادة الرسول الكريم ﷺ بهذا الحلف، وثناءه على ما ورد في حلف الفضول، من أفكار وحلول، له دلاله على أنَّه عليه صلوات الله عليه، كان موافقاً على ما ورد فيه من معالجات لا تخالف الإسلام، بل هي منسجمة مع طروحاته وأهدافه في إحقاق الحقوق، ورفع الظلم، والدعوة إلى الخير والسلام.

في دلاله على حكمته والتزامه بالقيم الإنسانية، وأنَّه فعلياً كان مبتعداً لإتمام مكارم الأخلاق، نجد كيف أنَّ الرسول الكريم ﷺ يبني على حلف الفضول في أفكاره ورؤيته، رغم أنَّ أصحابه والقائمين عليه كانوا -في العرف الإسلامي- كفاراً ومشركين، ولكنَّه قام بهدم مسجد ”ضرار“ مع أنَّ الذين شيدوه كانوا -يومها- مسلمين (ولو ظاهرياً)! بما يعكس حقيقة قناعة النبي ﷺ أنَّ سلوك المرء وتعامله يعكس أصل وعيه وضميره الإيماني الفطري.

يعطينا الاهتمام الذي أبداه الرسول ﷺ بحلف الفضول، دلاله واضحة على استجابة الإسلام لكلِّ فكر وعمل خيرٍ إيجابيٍّ، بما يشير إلى افتتاحه وعدم انغلاقه على أيِّ أفكار وقيم إنسانية، وهذا يأتي استناداً من شعوره العالي بالمسؤولية، واستجابة لمقتضيات الفطرة السليمة.

ثاني عشر: مجريات هدم الكعبة وتجديده بنائها

ذكرت الأخبار الواردة في كثير من كتب التاريخ المعتبرة أنَّ الكعبة قبل النبوة قرابة خمسة أعوام - تعرضت لعملية هدم تسببت بها سيل جارفة، وقد اجتمع قادة قريش واتَّخذوا قراراً بهدم ما تبقى منها، ومن ثَمَّ إعادة بنائها وتجديدها، وقاموا بتأمين ما يلزم لهذا العمل من أموال ونفقات، شارك النبي ﷺ فيها، وفي جمع حجارة الكعبة..

وعندما انتهى العمل في بناء الكعبة، ولم يبق إلا الحجر الأسود، اختلف القائمون على العمل في تحديد موضع الحجر... وذكرت الروايات أنَّ هذا الأمر كاد أن يتسبَّب بتفجير فتنة بينهم، فاتفقوا على أن يُحكِّموا في هذا التنازع أول شخص يدخل عليهم، وكان هذا الشخص هو الرسول الكريم ﷺ، فلما رأوه، ارتاحت أساريهم لمقدمه قائلين: لقد جاءكم الصادق الأمين، أو هذا الأمين قد رضينا به حكمًا.. ”فطلب منهم الرسول ﷺ إحضار ثوب، ولما أحضروه أخذ النبي ﷺ الحجر ووضعه ضمن الثوب بيده، ثمَّ التفت إلى شيوخهم، وقال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ثمَّ ارفعوه جميعاً.. فاستحسنوا ذلك ووجدوا فيه حلاً يحفظ حقوق الجميع، ولا يعطي لأحد امتيازاً على الآخر، ففعلوا ما أمرهم به، فلما أصبح الحجر بمحاذاة الموضع المخصص له، أخذه

رسول الله بيده الكريمة ووضعه مكانه^(١).

المَبْحُثُ الثَّانِي : الْبَعْثَةُ وَالْهِجْرَةُ

أوَّلًا: الإعدادُ الإلهيُّ للنبيِّ الأكرم ﷺ قبل تكليفه بالنبوة
إنَّ حمل الرسالة وأداء مهام النبوة بهدف هداية الناس إلى الحق والعدل، هي من أعظم الأعمال التي جهَّزَ اللهُ رسوله الكريم محمدَ ﷺ للتصدي لها، والقيام بأداء مهمَّته الرسالية على أكمل وجه، كما وهيَّاه لتحمل ظروفها، وصعبتها، والقيام بواجباتها، وأمانتها بمسؤولية وحكمة. فقد جاء في الحديث عن (أبي حمزة)، أنه قال: «سأَلْتُ أبا عبد الله عليه السلام عن العلم، أهو علمٌ يتعلَّمه العالم من أفواه الرجال، أم في الكتاب عندكم تقرؤونه، فتعلمون منه؟ قال عليه السلام: الأمر أعظم من ذلك وأوجب، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]؟ ثم قال: أي شيء يقول أصحابكم في هذه الآية؟ أيقرون أنَّه كان في

١ - راجع: ابن شهير آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ٢٧٨؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٠٤؛ ابن الأثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٣٠٠؛ ابن أبي الحميد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٢٩.

حال لا يدرى ما الكتاب ولا الإيمان؟ فقلتُ: لا أدرى - جعلتُ فداك- ما يقولون؛ فقال [لي]: بلى قد كان في حال لا يدرى ما الكتاب، ولا الإيمان حتى بعث الله تعالى الروح التي ذكر في الكتاب، فلمّا أوحاهما إليه علم بها العلم والفهم، وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء، فإذا أعطاها عبدًا علمًا الفهم^(١). وكان الرسول الكريم ﷺ يأتي إلى غار حراء للتعبد والتوجّه إلى الله، قبل بعثته النبوية، وهو المكان نفسه الذي يتبعّد فيه جده (عبد المطلب)^(٢).

ثانيًا: التبشير بالنبوة

عندما وصل الرسول الكريم إلى عامه الأربعين، اصطفاه - تعالى - ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين، كي يبلغ رسالته ودينه للناس جميعاً، ويهدىهم سواء السبيل، وقد جاء عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ بعثة الرسول الكريم عليه السلام بدأت في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب بعد عام الفيل بأربعين سنة، أي في العام ٦١٠ ميلادية. وابتدأت الدعوة والبشرة النبوية بنزول الوحي بواسطة جبرائيل الأمين عليه السلام على النبي في غار

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٢٧٣.

٢ - أحمد بن حنبل: مسند أحمد، ج ٦، ص ٢٣٣.

حراء، وكانت الآيات التي نزلت وقرأها عليه هي قوله عزَّ وجَّلَ: ﴿اَقْرَأْنَا
بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اَقْرَأْنَا وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ
* الَّذِي عَلِمَ بِالْقُلُمِ * عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ [العلق: ٥-١].

وبعد تلقّيه رسالة الوحي الإلهي وتلقينه ذلك البيان القرآني، رجع
الرسول ﷺ إلى بيته وجماعته، وهو يعيش حالة من البشرى والسعادة
والسرور الكبير، فالله -تعالى- أكرمه بجعله نبيًّا رسولاً للعالمين، ولهذا
لم يكن خائفاً مما قد حدث له، من مجريات بدء رسالته الإسلامية التي
كانت بالنسبة له مقام تشريف، خاصة وأنَّه كان على علم بنبوة نفسه^(١)،
وكان في حالة انتظار لتلك اللحظة التي سيأتيه فيها الملك جبريل
لإعلانه نبيًّا مرسلاً.. وهكذا عندما دخل على زوجته خديجة رضي الله عنها أعلمها
بما جرى له، وما تلقَاه من جبرائيل، فوجَّهَتْ كلامها له قائلةً: أبشرْ فو
الله لا يفعلُ الله بكَ إِلَّا خيرًا، وأبشرْ فإنَّكَ رسولُ اللهِ حَقًّا.. وبهذا
الخصوص، جاءَ في الحديث المروي أنَّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام
سُئلَ: كيفَ لمْ يخفِ رسولُ اللهِ فيما يأتيه من قبلِ اللهِ أنْ يكونَ مما
ينزعُ به الشيطان؟ فأجاب عليه السلام: ”إِنَّ اللهَ إِذَا اتَّخَذَ عَبْدًا رسُولًا أَنْزَلَ عَلَيْهِ

١ - راجع: ابن حنبل: مسنَدُ أَحْمَدَ، ج ٦، ص ٢٣٣؛ محمد بن اسماعيل البخاري:
صحيح البخاري، ج ١، ص ٣.. وغيرها من المصادر التي أشارت إلى ذلك.

السکينة والوقار، فكان الذي يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه^(١).

ثالثاً: أول المسلمين

كان أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام أول الناس إسلاماً وإيماناً وتصديقاً بالنبوة والرسالة، رغم أنه كان صغيراً لم يتجاوز العاشرة من عمره بعد.. فهو كان ملزماً للنبي الكريم عليه السلام، ولم يفارقه حتى وهو متبعداً في غار حراء^(٢). وعندما أعلم زوجته خديجة بأمر نبوته، آمنت به، لتكون أول امرأة من المسلمات.. وجاء في روايات التاريخ في مظانه الأساس المعتبرة، أنَّ الرسول الكريم عليه السلام "بعث يوم الاثنين، وصلَّى على خديجة معه يوم الثلاثاء، ولم يكن على وجه الأرض أحدٌ يعبد الله على هذا الدين إلا النبي وعليه خديجة، وكانت أول صلاة صلَّاها على مع النبي الكريم عليه السلام صلاة الظهر"^(٣).

١ - محمد بن مسعود العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٠١.

٢ - راجع: ابن أبي الحميد: شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ١٥؛ أحمد بن علي المقربي: إمتاع الأسماء بما للنبي عليه السلام من الأحوال والأموال والحفظة والمتع، ص ١٦؛ أحمد بن شعيب النسائي: خصائص أمير المؤمنين، ص ٣؛ محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٨، ص ٢٧٩.

٣ - راجع: محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، ص ١٨٩؛ محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٠٩؛ محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٤، ص ١٦٣.

رابعاً: الدّعوّةُ الإِسْلَامِيّةُ وَتَحْدِيدُّهَا العَمَليّةُ

لم تكن مسيرةُ الدّعوّةِ الإِسْلَامِيّةِ على نسقٍ واحدٍ، فقد مرّت خلال حياة الرسول ﷺ، منذ بدءِ البعثةِ وحتى وفاته ﷺ بمرحلتين:

١- مرحلةُ الدّعوّةِ الْهادئَةِ لِلأَفْرَادِ:

حيث اتجهت دعوة الرسول في البداية إلى الجانب الفردي وأحاد الناس، بشكلٍ هادئٍ وبعيدٍ عن مواجهة التحدّيات والصادمات، خاصةً مع رموز قريش الذين كانوا يعيشون العصبية لأوثانهم.. أي أنَّ النبي ﷺ حرص منذ انطلاقته دعوته أن يتعدَّ عن الأجواء العامة المشحونة، ولهذا لم يكن يظهر كثيراً في مجالس رموز قريش، بل اقتصر في دعوته ببدايةً على كسب من كان يعتقد مسبقاً أنَّه سيؤمن به، فآمن به عدد قليل من الناس تباعاً.. واختار النبي ﷺ لهم دار (الأرقام بن أبي الأرقام) في مكَّةَ ليلتقي بهم فيها، ولتكون مركزاً يمارسون فيه عبادتهم وصلاتهم بعيداً عن أنظار قريش. وكانت حصيلة الدعوة في هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلاً وامرأة، عامتهم من الفقراء^(١).. وكان

١ - راجع: محمد بن اسماعيل البخاري: صحيح البخاري، ج ٢، ص ٢٠٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٣٤؛ ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ٣، ص ٥٩٨.

لهذا الأسلوب الدعوي نتائج مهمّة، فمن جهةٍ وفرّ الحماية الكاملة للجماعة المؤمنة، بعيداً عن تعريضها لأي فعل من جهة المشركين قد يعيق حركتها، أو يفكك صلتها بدعوته، بما يدفعها للتشرذم.. ومن جهة أخرى، نتيج عن تلك الحماية، توفيره للعدد اللازم من المسلمين المؤمنين برسالته، بحيث تكون قادرة على تحمل مسؤوليات التغيير المنشود عن جدارة وإيمان كاملين.

٢- مرحلة الدعوة العامة لكل الناس:

في هذه المرحلة استجابَ الرسول الكريم ﷺ للأمر الإلهي بإعلان دعوته لكل الناس، وانطلق منفداً الأمر التكليفي من خلال تبني الخطوتين أو الأمرين الآتيين:

- أ. قيامه بدعاوة الأقربين منبني عشيرته وقومه من أبناء (هاشم) و(عبد المطلب) إلى دين الله، وإبلاغهم بالرسالة وضرورة العمل بها خصوصاً والتزاماً بأمره -تعالى- الذي يقول بهذاخصوص: «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» [الشعراء: ٢١٤]. ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول بدعاوة المحيطين به من أقربائه وبني قومه؛ لأنّ في ذلك تركيزاً للرسالة وتبنياً لدعائمها الأولى، فحضر أهله وبني عشيرته للذود عنها في

حال تعرّضت للمخاطر والتحديات.

بـ. قام النبيُّ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإعلان دعوته إلى عامَّة الناس، بمن فيهم مجتمع قريش الذي كان يتسمى إليه؛ حيث دعاهم إلى الدخول في الدين الإسلامي، مستجبياً لأمر الله تعالى؛ حيث جاء في الروايات: «صعد النبيُّ عَلَى الصَّفَا، وَنَادَى قَرِيشًا وَقَبَائِلَ مَكَّةَ؛ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَالَ لَهُمْ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنْ خِيلًا فِي سَفْحِ جَبَلٍ قَدْ طَلَعْتُ عَلَيْكُمْ، أَكْتَمْ مَصْدِقِي؟!" قَالُوا: نَعَمْ، أَنْتَ عَنْدَنَا غَيْرُ مَتَّهِمٍ، وَمَا جَرِبْنَا عَلَيْكَ كُذْبًا قَطًّا. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، إِنَّ اللَّهَ أَمْرَنِي أَنْ أَنذِرَكُمْ مِنْ عَقَابِهِ، وَإِنِّي لَا أَمْلُكُ لَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَنْفَعَةً وَلَا مِنَ الْآخِرَةِ نَصِيبًا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"؛ فَلَمْ تَسْتَجِبْ لَهُ قَرِيشُ، وَقَامَتْ بِخُطُواتٍ لِمُوَاجَهَةِ حَرْكَتِهِ وَدُعَوْتِهِ فِي قَرِيشٍ وَمَكَّةَ^(١).

١ - راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص ٧٦٨؛ علي بن إبراهيم القمي: تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٨؛ العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٥٣؛ أحمد بن إسحاق اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٤.

خامسًا: محاولاتُ قريش لِإسقاطِ النَّبُوَّةِ

١. تكذيب النبي ﷺ، والاستهزاء به، وبما جاء من تعاليم وقيم وأوامر إلهية.. ورموه بالسحر والشعوذة، واتهامه بالجنون.. وهذا كان ردُّهم الأوَّلي؛ حيث بقيت المواجهات في إطارها النظري والسباق الكلامي الذي لم يصل إلى مرحلة الصدام المباشر.. ولكن الدعوة يجب أن تستمر وتتحرك، وتتجدد مع ازدياد نشاط النبي ﷺ. ولهذا من الطبيعي أن يكون له ولدته أعداء وخصوم؛ لأنَّ الأمر الإلهي يقوم على التوحيد، ورفض الشرك، وهذا بالضرورة سيجعل الدعوة تتواجه مع أصنام قريش وألهتها والقائمين عليها.. ومع الاستمرار في الدعوة، وتبنيتها، وزيادة أعداد المؤمنين بها، جعل المشركون يفكرون بأنَّها دعوة جديَّة وقوية، وبحث عن تقوية مواقعها.. ولهذا وجدوا أنَّه لا مناص من المحاورة والمفاوضة مع رأس الدعوة، النبي الكريم ﷺ؛ حيث بدؤوا بمساومته على دعوته.. وتذكر لنا كتب التاريخ أنَّ مجريات التفاوض مرَّت بعدة مراحل، كانت بمعجملها فاشلة وعقيمة، ولم ينتج عنها أيُّ شيء.. وهي:

أ. ففي مرحلة التفاوض الأولى: بدأت نخب قريش بمحاولات استعطاف عمّ الرسول (أبي طالب) لكي يقوم هو بالضغط على النبي ﷺ، حيث قالوا له: ”إنَّ ابنَ أخِيك قد سبَّ آلهتَنا، وعابَ دينَنا، وسفَّهَ أحَلامَنا، وضَلَّ أَبْنَاءَنا، فَإِنَّا أَنْ تَكْفُّهُ عَنَّا، وَإِنَّا أَنْ تَخْلِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ.. فَرَدَّهُمْ أَبُو طَالِبٍ رَدًّا رَفِيقًا، فَانْصَرَفُوا عَنْهُ“^(١).

ب. مرحلة التفاوض الثانية: رفع قادة قريش من مستوى الضغط على النبي الكريم ﷺ، وقرروا عدم المهادة معه، ولهذا جاؤوا إلى عمّه (أبي طالب) ثانية قائلين له: إنّا كنّا قد استنهيناكم عن ابن أخيك، فلم تنهه عنّا، وإنّا والله لا نصبر على هذا، من شتم آبائنا وعيب آلهتنا حتّى تكفّه عنّا، أو نناظره وإياك حتّى يهلك أحد الفريقين.. فما كان من (أبي طالب) إلا أن وعدهم بأنّه سيقوم بإبلاغ ابن أخيه بموقفهم هذا، وهذا ما فعله، لكن ردّ الرسول الكريم ﷺ كان حاسماً، وكان ذلك الردّ الأبدى الحالى: ”والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في

١ - ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٥٢.

يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته^(١).

ج. مرحلة التفاوض الثالثة: حاولوا إغراء عمّ الرسول (أبي طالب) من خلال عرضهم القائم على مبادلة الرسول لكي يقتلوه، بـ(عمارة بن الوليد)، وهو أجمل فتى في قريش، ليصبح في كنفه ورعايته عوضاً عن النبي الكريم صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنّ (أبا طالب) رفضه عرضهم، ووبخهم قائلاً: ”لبئس ما تسوموني عليه، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً“^(٢).

د. كما حاولوا إجراء مساومة مع الرسول صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خلال إغرائه بالمال والنفوذ والجاه، ولكنّه صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أبي ورفض، ما جعلهم يقرّرون أنّه رجل حازم ومؤمن بقضيته، لا يساوم، وبالتالي لا يمكن إخضاعه لا بمال ولا بسلطان^(٣).

١ - ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٦٦.

٢ - الموفق بن أحمد الخوارزمي: مناقب علي بن أبي طالب، ج ١، ص ٧٣.

٣ - راجع: أحمد بن إسحاق العقوبي: تاريخ العقوبي، ج ٢، ص ٢٤؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٦٥؛ محمد بن جرير الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٢٦.

الفَصْلُ الْأَوَّلُ – الْمَبْحُثُ الثَّانِي ٣٩

٢. محاولتهم منع الناس عن اللقاء بالرسول ﷺ، والغاية من ذلك هو ألا يستمعوا وينصتوا لما كان يتلوه ﷺ من آيات قرآنية. وقد تحدث القرآن عن ذلك في الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

٣. التعرّض المباشر للرسول ﷺ عبر محاولات الإيذاء الجسدي.. فقد قاموا برمي منزله بالحجارة، كما رموا عليه التراب، ودفعوا الأولاد والأطفال ليسخروا منه، ويرمونه بالحجارة أيضاً. وكان ما فعله مشركون قريش وسفهاؤها (كأبي جهل، وعقبة بن أبي معيط، وأبي لهب وزوجته) في محاولاتهم النيل من النبي الكريم وإلحاق الضرر به، أمر لم يسبق أن تعرّض له أي نبي آخر، حتى قال ﷺ: «ما أؤذنينبي مثلَ ما أؤذيتُ»^(١).

٤. تبنيهم لسياسات القوّة القائمة على العنف، والإرهاب، والتنكيل بالنخبة المسلمة والمؤمنة التي التحقت بالإسلام، وخاصة الفقراء منهم والضعفاء من لا ظهر يسندهم، ولا

١ - ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص ٤٢.

عشيرة تدافع عنهم، كـ (آل ياسر)، و(بلاد الحبشيّ)، ومن لفّ لفهم.

٥. استخدامهم لسلاح الضّغط الإعلامي والدعایات المضللة ضدّ الرسول ﷺ، وهذا ما نلاحظه من خلال قيام سادة قريش ومحازبيهم بالترويج بين الوفود القادمة إلى مكة بأنّ محمّداً هذا ليس أكثر من ساحر، وأنّه يفرق بينَ المرء وأبيه، وغير ذلك^(١).

سادساً: الحصار في شعب (أبي طالب)^(٢)

حصارُ الشّعب، هو الحصار الاقتصادي والاجتماعي الذي فرضته زعامات قريش علىبني هاشم، من أجل إخضاعهم، بعد أن بدأت نبوّة ابنهم محمّد ﷺ؛ حيث عقدوا اجتماعهم في دار الندوة، وكتبوا وثيقتهم التي تعاهدوا فيها على ما يأتي:

١. عدم التزاوج مع بنى هاشم، فلا يزوجوهم، ولا يتزوجوا منهم.

١ - محمد بن إسحاق: سيرة ابن إسحاق (السير والمعازى)، ص ١٥١.

٢ - شعب أبي طالب: هو مكان في مكة المكرمة، وهو أحد المواقع التي شهدت بداية ظهور الإسلام.

٢. منع البيع والشراء معهم، فلا تبادل اقتصادي مع بنى هاشم أبداً.

٣. عدم الاجتماع مع بنى هاشم على أي أمر.

٤. التعاون الكامل في ما بينهم، وأن يكونوا يدًا بيد ضدّ محمد بن عبد الله وبنى هاشم وأتباعهم.

طبعاً، كانت قريش تفترض أنَّ هذا الضغط على بنى هاشم، وعلى النبي الكريم، سيفضي إلى أمر من الأمور الثلاثة الآتية، فاما أن يقوم بنو هاشم بتسليم بقتل ولدهم محمد بن عبد الله، وإما أن يخاف النبي ويبدأ بالتراجع عن دعوته، وأخيراً يتحقق القضاء المبرم عليه وعلى كل من يقف معه نتيجة الحصار.

دام حصار قريش على بنى هاشم ثلاث سنوات، وكان حصاراً جائراً استنزف كثيراً من معيشة المسلمين الذين كانوا ينفقون من الأموال العائدة لكلٍّ من السيدة خديجة رض، وعمّ الرسول (أبي طالب). وعندما نفذت الأموال، زادت حياتهم صعوبة؛ إذ لم يبق لهم شيء من الطعام يؤكل، فاضطرّتهم الظروف القاسية إلى أكل أوراق الشجر.. ونتيجة للحصار لم يكن المسلمون قادرين على الخروج من شعب أبي طالب) إلا خلال عمرة شهر رجب، وموسم الحجّ في شهر ذي الحجّة.

وخلال تلك الفترة لم يتوانَ الإمام عليٌ^{عليه السلام} عن اختراق الحصار، وجلب الأكل والشراب لل المسلمين بشكل سريٍّ من مكة.. أما العَمَّ (أبو طالب) فقد كان يفرض حراسة ورقابة صارمة على ابن أخيه محمدٌ^{صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ}، خوفاً من اغتياله على حين غرَّة؛ حيث كان يقوم بنقل الرسول الكريم^{صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} ليلاً إلى مكان آخر، ويكلِّف ابنه الإمام علي^{عليه السلام} بحراسته في مكانه الجديد. ومع عدم تسليم المسلمين للمشركين، وصل الحصار إلى نهايته، "بعدما أكلت الأرضة ما في صحيفه المشركين التي تعاقدوا فيها على الحصار، وقيام جماعة منهم ممن تربطهم ببني هاشم علاقات نسبية بنقض الصحيفه وإلغاء مفاعيلها"^(١).

سابعاً: أمر النبوة بالهجرة إلى مملكة الحبشة

أمر الرسول الكريم^{صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} المسلمين، بضرورة السفر والهجرة إلى الحبشة التي كان يحكمها ملك عادل، عرف بتسامحه. وبلغ عدد المهاجرين ممَّن وُجِدوا على أرض الحبشة ثلاثة وثمانين، ما بين رجل

١ - راجع: علي بن الحسين المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٠٠؛ الشيخ محمد بن محمد المفيد: إيمان أبي طالب، ص ٣؛ قطب الدين الرواundi: الخرائط والجرائم، ج ١، ٨٥.

الفَصْلُ الْأَوَّلُ – الْمَبْحُثُ الثَّانِي ٤٣°

وامرأة عدا الأطفال، وكان في مقدمتهم (جعفر بن أبي طالب) ابن عمٌ^(١) رسول الله ﷺ. ويمكن تلخيص الغاية من هذه الهجرة:

١. توفير الحماية للمسلمين في بداية الدعوة من الأذى،

والظلم، وسياسات الإرهاب والعنف الذي كانت تمارسه
ضدّهم زعامات قريش، والتخلص من ضغوطهم الواقلة
حدوداً لا تُطاق.

٢. الحصول على ملاذ آمن لجماع المسلمين، ولأي شخص

جديد يدخل في دين الله، كي يتمكّنوا من ممارسة طقوسهم
وشعائرهم الدينية بحرّية دون قيد أو ضغوط، خاصة
في ظلّ ما كانت تقوم به قريش من تضييق الخناق على
المسلمين، وزيادة اضطهادهم وقمعهم ومنعهم من ممارسة
حرّيتهم الدينية.

٣. الانتقال إلى أرض جديدة، وفيها مسؤولية الدعوة للإسلام

والتبشير بهذا الدين الجديد في قيمه ومبادئه وتعاليمه
وتشريعاته، خارج منطقة الجزيرة العربية، خاصة أنَّ الإسلام

١ - راجع: ابن أبي الحديد: نهج البلاغة، ج ١٣، ص ٢٦٨؛ محمد باقر المجلسي:
بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٤١٢؛ محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٤٢٠؛
محمد بن جرير الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٢٩.

جاء ليكون ديناً عالماً ورسالة للبشرية جماء، وفي هذا ضربة كبيرة لكبرياء زعامات قريش تفوق تصوراتهم وقدراتهم.

ثامناً: الخروج إلى الطائف

جاء في سيرة (ابن هشام) أنَّ النَّبِيَّ الْكَرِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء إلى مدينة الطائف في السنة العاشرة منبعثة النبيَّة الشَّرِيفَة، ومكث فيها قرابة عشرة أيام، فتجوَّلَ بين أمكنته وأحيائها داعياً الناس إلى الإسلام، ”ولكتَّهم لم يسمعوا منه، بل جلسوا في الطريق يرمونه بالحجارة حتى جرح في رأسه، فانصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راجعاً إلى مكة“^(١). وكانَ هدفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من انتقاله إلى الطائف - التي تمثل بلداً مهمًا وكبيرًا في الحجاز - محاولة إيجاد قاعدة شعيبة قوية لدعوته تعوضه عن مكة (التي تعرض فيها - هو وأصحابه - إلى ضغوط قاسية من العنف والتعذيب)، خاصةً مع وجود قبيلة كبيرة هناك في الطائف هي ثقيف.

^١ - راجع: ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٥٧؛ محمد بن إسحاق: سيرة ابن إسحاق (السير والمغازي)، ص ٢٣٩؛ العياشي: تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٥٧.

تاسعاً: لقاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ أَهْلِ يَثْرَبِ

مع عودته من مدينة الطائف، انطلق النبي الكريم خلال موسم الحجّ ليستأنف دعوته، فاجتمع مع عدّة أشخاص من مجتمع يثرب في السنة الحادية عشرة للبعثة؛ حيث دعاهم إلى الإسلام، فأسلموا وأمنوا برسالته، وأعلنوا عن استعدادهم للعمل معه في سبيل تقوية هذه الدعوة حال رجوعهم إلى يثرب. وكان اجتماعه السري مع هؤلاء الأشخاص (وكان عددهم ستة) مهمّاً وحيويّاً ومقصود؛ إذ إنّ سرية العمل مع وجود عدد محدود من الأشخاص الموثوقين، سي sis لهم في تقوية الدعوة، خاصةً في بدايتها مع وجود أعداء كثر لها. أما العلانية، فما زال الوقت مبكراً عليها. والواضح أنّ الهدف النهائي للنبي ﷺ من وراء عقد هذا الاجتماع السري مع هؤلاء الرجال، كان يتمثّل في حضور هؤلاء الأشخاص على القيام بنشاطات في بلدتهم من أجل توفير المناخ اللازم لاستشارة التعاطف والتأييد مع الدعوة في قيمها، ومعالمها، ومبادئها الجديدة ضمن المدينة^(١).

١ - راجع: ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٧٧؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٨١.

عاشرًا: العقبة الأولى

في موسم حجّ العام الثاني للهجرة، التقى النبي محمد ﷺ سرًا مع اثنى عشر رجلاً من أهل يثرب في مشعر صغير يُعرف بـ "العقبة" بين مكة ومنى، في لقاءٍ عُرف لاحقًا بيعة العقبة الأولى. وأعلن الوفد اليثري في ذلك اللقاء إيمانهم برسالة الإسلام، وتعاهدوا مع النبي ﷺ على السعي إلى نشر الدعوة في مدینتهم.

ولتعزيز هذا النجاح، أرسل رسول الله ﷺ معهم الصحابي الجليل (مصعب بن عمير) ليكون أول مبعوث إليهم؛ حيث كلفه بمهمة تعليلهم مبادئ الإسلام وتفقههم في دينهم الجديد، وتنظيم صفوفهم، ليكونوا نواةً فعالةً وقويةً لنشر الدعوة الإسلامية بين قبائل يثرب. وقد أدى (مصعب) مهمته بنجاحٍ باهرٍ، ما أسهم في انتشار الإسلام بشكل ملحوظ بين أهل المدينة^(١).

حادي عشر: العقبة الثانية

في العام الثالث عشر منبعثة النبيّة الشريفة، وبعد مضيّ عامٍ كامل على بيعة العقبة الأولى، عاد (مصعب بن عمير) إلى مكة

١ - راجع: أحمد بن زيني دحلان: السيرة النبوية، ج ١، ص ١٥١؛ علي بن ابراهيم الحلبي: السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٩؛ السيوطي: الدر المثور، ج ٦، ص ٢١٨.

المكرّمة، ولكن هذه المرة لم يكن وحيداً؛ ففَدْ صحبه وفد كبير من مسلمي المدينة (يترقب)، خرجوا متخفّين بين قوافل حجّاج قومهم من المشركين.

ويرجح أنَّ (مصعباً) كان قد دبر -قبل وصوله- اجتماع سرِّي يجمع النبي محمد ﷺ بهؤلاء المسلمين القادمين من مدينة يترقب بعد انتهاء مناسك الحجّ. وكان الرسول الأكرم ﷺ يقيم خلال أيام الحج في دار عبد المطلب، ومعه الإمام علي عليهما السلام والحمزة بن عبد المطلب.

التقى رسول الله ﷺ بالوفد من قبيلتي الأوس والخزرج، واتفق معهم على عقد اجتماع سرِّي في ليالي أيام التشريق، وأوصاهم بكتمان الأمر وعدم إيقاظ نائم أو انتظار غائب بينهم؛ لضمان السرية التامة، وعدم إثارة شكوك المشركين.

وفي ذلك الاجتماع الخفي، بايع المسلمين النبي ﷺ بيعة عُرفت في التاريخ بـ”بيعة العقبة الثانية”. تعهّدوا فيها بحماية ونصرته كما يحمون وينصرن أنفسهم وأهلهم، ووعدوه بالوقوف إلى جانبه في السراء والضراء، والسمع والطاعة في العسر واليسير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله دون خوف من لومة لائم.

مثّلت بيعة العقبة الثانية اللبنة الأساس والخطوة المحورية التي مهدّت الطريق لهجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنوّرة، والتي كانت

بدورها انطلاقاً المرحلة الثالثة من مراحل الدعوة الإسلامية، وهي مرحلة بناء الدولة الإسلامية والدفاع عن كيانها وعقيدتها^(١).

ثاني عشر: الهجرة إلى المدينة

أسس الرسول الكريم ﷺ في المدينة المنورة (يترقب) ركيزةً وقاعدةً آمنةً مستقرةً جديدةً للمسلمين، بعد أن وصلت الدعوة في مكةً إلى طريق صعب ومسدود مع تصاعد عناد قريش وزعاماتها، وتجذر استكبارها على مدى ثلات عشرة سنة. فأمر النبي ﷺ أتباعه بالهجرة إلى هذا الملاذ الآمن، مبلغًا إياهم بقوله: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إِخْرَانًا وَدَارًا تَأْمُنُونَ بِهَا»^(٢).

وقد استجاب المسلمين للأمر، فهاجروا بشكل جماعي وفردي، سرًّا وعلانية، تاركين وراءهم أوطانهم وأهاليهم وعلاقتهم الاجتماعية وممتلكاتهم ومكانتهم في المجتمع المكيّ، مقدمين تضحيات جسمية في سبيل الحفاظ على عقيدتهم وإسلامهم.

١ - راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ١٤١٧ هـ، ص ٥٩؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٤٩-٢٢٠.

مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٥٧.

٢ - ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٤٦٨.

لقد أدركت قريش أنَّه سيكون لهجرة المسلمين آثار وتأثيرات خطيرة على نفوذها الاقتصادي والأمني، خاصةً أنَّ طرق تجارتها الحيوية إلى بلاد الشام كانت تمر بقرب المدينة، وهذا ما دفعها إلى محاولة منع الهجرة بكل قوَّة، عبر ملاحقة المسلمين، وتعذيبهم، وشن حملة من الإرهاب لإرغامهم على البقاء.

بقي في مكَّةَ بعد هذه الهجرة الجماعيَّةِ النبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖهُ وَسَلَّمَ والإمام علي عليه السلام فقط، وبضعة مسلمين لم يتمكُنوا من الخروج، وبعض النساء. فشعرت قريش بخطر وجودي حقيقي إذا ما انضمَّ النبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖهُ وَسَلَّمَ إلى قاعدهِ الشعبية والقوية في المدينة. فاجتمع زعماء قريش وهم في حالة من الذعر واليأس، واتخذوا قراراً مصيرياً باغتيال النبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖهُ وَسَلَّمَ، ونظموا خطة دمويَّة تقضي بأن يشارك شاب من كل قبيلة في قتلِه ليلًاً، حتى يتفرق دمه بين القبائل جميعاً، الأمر الذي يجعل من المستحيل على بنى هاشم أن يطالبو بالثأر من قبيلة واحدة محددة^(١). وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأفال: ٣٠].

١ - راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج، ٨، ص ٤٥٥؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج، ٢، ص ٣٢١؛ السيوطي: الدر المثور، ج، ٥، ص ١٤١.

ثالث عشر: ليلة مبيت علي عليهما السلام في فراش النبي عليهما السلام - تضحية ونصر إلهيّ:

كشف الله تعالى - رسوله الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن طبيعة المؤامرة الدينية التي دبرها زعماء قريش لاغتياله والقضاء على الدعوة نهائياً في مهدها كونها تشکّل خطراً على مصالحهم ونفوذهم وسيطربتهم. فأمره - تعالى - بالخروج من مكة تحت جنح الظلام، وأن يجعل ابن عمّه علي عليهما السلام بيت على فراشه، من أجل أن يخدع المشركين، ويُوهمهم أنه لا يزال نائماً في بيته، ما يُفشل خطّتهم. وبالفعل، انطلق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت ستار الله متّجهاً نحو غار ثور، بينما اضطجع الإمام علي عليهما السلام بكل شجاعة وتضحية على فراش النبي، مُستعداً لمواجهة أي خطر حتى لو كان الثمن الموت في سبيل الرسالة ونبيها الكريم. وعندما اقتحم المسلحون بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوجئوا بوجود علي عليهما السلام وحده، ففشلت خطّتهم فشلاً ذريعاً.

وقد نزلت الآية الكريمة «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ» [البقرة: ٢٠٧] في الثناء على ما قام به الإمام علي عليهما السلام، ومدح هذه التضحية الفدّة له، وهو الذي باع نفسه في سبيل مرضاه لله وتمكين دعوةنبيه ومعالم دينه. وقد زاد الله هذه اللحظة قدسيّة بأن أهبط الملkin جباراً وMicahiel ليكونا بجانب علي عليهما السلام طوال الليلة،

يشدّان من أزره ويُثنيان على شجاعته، حتى قال جبرائيل: ”بخٌ بخٌ، من مثلك يا بن أبي طالب؟! يباهي الله بك ملائكته^(١).

رابع عشر: الحماية الإلهية في الطريق إلى الغار

أمّا رسول الله ﷺ، فقد خرج من بين أعدائه وهو محفوظ بحفظ الله له، يقرأ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، فعمي الله أبصارهم عنه.. ولماً فشلت قريش في العثور عليه في بيته، استنفرت كلّ قدراتها وإمكانياتها، وبدأت حملة مطاردة محمومة للنبي الكريم، ولكن بتدبير إلهي محكم، أخفى الله نبيه عن أعينهم داخل غار ثور.. وقد سجل القرآن الكريم هذا المشهد بأروع وصف فيما ورد بسورة التوبة، قوله عزّ وجلّ: ﴿...إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزِنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الدِّينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبه: ٤٠].

١- راجع: علي بن إبراهيم القمي: تفسير القمي، ج ١، ص ٢٧٣؛ علي بن موسى (السيد ابن طاووس): الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص ٣٧.

ومكث النبي ﷺ - وصاحبـه (أبو بكر) في الغار- ثلاثة أيام، إلى أن هدأت مطاردة قريش، ثم تابعا رحلتهما حتى وصلا بسلام إلى قرية ”قباء“ على مشارف المدينة المنورة^(١).

وقد كانت هجرة النبي ﷺ في اليوم الأول من شهر ربيع الأول، بعد أن أمضى ثلاثة عشر عاماً في مكة يدعـو إلى الله. ولم تكن هذه الهجرة مجرد انتقال من مكان إلى مكان، بل كانت نقلة تاريخية انطلقت منها دولة الإسلام، فأصبح هذا الحـدث الكبير والعظيم بداية التقويم الهجري، الذي يذكر المسلمين دائمـاً ببداية عصر جديد قائـم على الإيمان والتضحـية^(٢).

خامس عشر: استخلاف الإمام علي عليه السلام

كانت قريش قبل الإسلام تُلقب رسول الله محمد ﷺ بـ ”الأمين“؛ حيث كانوا يودعونـه أموالهم ومتاعـهم، ويـأتـمنونـه عـلـيـهاـ، وكـذـلـكـ كان يـفـعـلـ من يـزـورـ مـكـةـ من قـبـائلـ الـعـربـ في موـسـمـ الـحـجـّـ.

١ - راجـعـ ابنـ هـشـامـ: السـيـرةـ النـبـوـيـةـ، جـ ٢ـ، صـ ٣٣٢ـ؛ مـحـمـدـ بنـ جـرـيرـ الطـبـرـيـ: تـارـيخـ الـأـمـمـ وـالـمـلـوـكـ، جـ ٢ـ، صـ ٦٨ـ؛ سـعـيدـ بنـ هـبـةـ اللـهـ الرـاوـنـدـيـ: الـخـرـائـجـ، وـالـجـرـائـحـ، جـ ١ـ، صـ ١٤٤ـ،

٢ - راجـعـ سـعـيدـ بنـ هـبـةـ اللـهـ الرـاوـنـدـيـ: قـصـصـ الـأـنـبـيـاءـ، صـ ٣٣٤ـ؛ اـبـنـ سـعـدـ: الـطـبـقـاتـ الـكـبـرـىـ، جـ ١ـ، صـ ٢٢٨ـ؛ اـبـنـ هـشـامـ: السـيـرةـ النـبـوـيـةـ، جـ ٢ـ، صـ ١٣٦ـ.

وبعد أن أكرمه الله بالنبوة والرسالة، حافظ عليه على هذه الصفة العظيمة، فأمر ابن عمّه علياً عليهما السلام أن يقف في مكان مرتفع عند "الأبطح" في مكة وينادي بصوت عالٍ في الصباح والمساء: "ألا من كان له عند محمد أمانة أو وديعة، فليأتِ ليأخذها" ^(١). ثم قال النبي عليهما السلام على مطمئناً إياه: «إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا علي بأمر تكرهه حتى تقدم علىَّ، فادْعُ أمانتي علىَّ أعين الناس ظاهراً، ثم إنني مستخلفك على فاطمة ابنتي، ومستخلف ربيّ عليكم واستحفظه فيكما..» ^(٢). كما كلفه عليهما بتجهيز رواحل السفر لهنّ ولمن عزم على الهجرة منبني هاشم. وقال له وهو يوصيه: «وإذا أنهيت ما أمرتك به، فاستعد للهجرة إلى الله ورسوله، وغادر إلى مكاني فور وصول كتابي إليك دون أي تأخير».. فنفذ الإمام علي عليهما السلام الأوامر بدقة، فأدّى جميع الأمانات إلى أصحابها ^(٣)، ثم هاجر مصطحبًا معه النسوة من آل بيت النبي عليهما السلام، وهنّ:

١ - راجع: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٧٣؛ الحلبـي: السيرة الحلـبية: ج ٢، ص ٥٣.

٢ - راجع: محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٦٢؛ جعفر مرتضـى العـامـلي: الصـحـيقـ من سـيـرـةـ النـبـيـ الـأـعـظـمـ، ج ٤، ص ١١.

٣ - راجع: افضل بن الحسن الطبرـيـ: إعلام الورـىـ بأعلام الـهـدـىـ، ج ١، ص ٣٧٤؛ ابن شهر آشـوبـ: مناقـبـ آلـ أبيـ طـالـبـ، ج ٢، ص ٥٧.

أمُّه (فاطمة بنت أسد)، وزوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ، و(فاطمة بنت الزبير)، متوجّهاً بهنّ إلى المدينة المنورة (يثرب)^(١).

سادس عشر: وصول النبي محمد ﷺ إلى يثرب واستقباله فيها
غادر النبي الكريم ﷺ مكة المكرمة في أول أيام شهر ربيع الأول
مهاجراً إلى يثرب، حتى وصل إلى منطقة "قباء" في ضواحيها. وما إن
انشر خبر وصوله حتى تواجد المسلمون بأسرهم وأهلهم لاستقباله
والتشريف بلقائه، مفعمين بالفرح والبهجة. ورغم حماسة الجميع
لدخوله إلى المدينة، أبدى رسول الله ﷺ تمسكاً بالبقاء في قباء، ريثما
يلتحق به أخوه وابن عمّه علي بن أبي طالب رض، قائلاً: «لن أرحل من
هنا حتى يقدم ابن عمّي وأخي في الله، وهو أحب أهل بيتي إليّ، فقد
وقاني بنفسه من أذى المشركين»^(٢).

وبعد انتظار دام خمسة عشر يوماً، وصل الإمام علي رض ومعه نساء
البيت النبوي (الفواطم). فلما علم النبي ﷺ بقدومه، طلب رؤيته على
النور، فقيل له: "يا رسول الله، إله لا يستطيع المشي من شدة التعب".

١ - هاشم البحرياني: حلية الأبرار، ج ١، ص ٩١.

٢ - راجع: محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٢٨٠؛ ابن الصباغ المالكي: الفصول المهمة في معرفة أقوال الأئمة، ص ٣٥.

فما كان من النبي ﷺ إلا أن ذهب بنفسه إليه. ولمّا رأه، احتضنه بشدةً واغرورقت عيناه بالدموع حزناً لما رأى من آثار التعب والآلم البدية على قدميه المتورّمتين المتقرختين من مشقة الطريق.

وخطبه ﷺ قائلاً: «يا عليّ، أنت أول هذه الأمة إيماناً بالله، وأولها هجرة إلى الله ورسوله، وأخرها عهداً برسوله. والذي نفسي بيده، لا يحبك إلا مؤمنٌ مختبر الإيمان، ولا يبغضك إلا منافق أو كافر». ثم مكث معه في دار (كلثوم بن الهدم) في قباء^(١). وبعد يومين من وصول عليٍّ للبلد، كلفه رسول الله ﷺ - وكان يوم الجمعة - بخطيط مسجد قباء، ذلك المسجد الذي أسس على التقوى والذي نزلت فيه الآية الكريمة: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ [التوبه: ١٠٨].

وكانت قبلته آنذاك نحو بيت المقدس، فأقام النبي ﷺ أول صلاة جمعة فيه، ثم انطلق راكباً ناقته إلى قلب يثرب، وكان الإمام علي عليه السلام يسير إلى جانبه، بينما كان المسلمون يحفون بهم مردّين التكبير والتهليل.

١ - راجع: محمد بن الحسن الطوسي: الأمالى، ج ٢، ص ٨٤؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٨٣؛ أحمد بن علي (تقي الدين المقرizi): إمتع الأسماع، ج ١، ص ٤٨.

وَسَارَت نَاقَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَخْذَ كُلُّ أَهْلِ بَيْتٍ يَتَمَنَّى أَنْ تَنْزَلَ عِنْدَ دَارِهِ، حَتَّى بَرَكَتْ أَمَامَ دَارِ (أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ)، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضِيقًا كَرِيمًا عَنْهُ لِمَدَّةَ شَهْرٍ، حَتَّى جَرَى بَنَاءُ مَسْجِدِهِ الشَّرِيفِ، وَبَيْوَتِهِ، وَدارِ الْإِمامِ عَلَيِّ الْعَلِيِّ^(١).

سادس عشر: الهجرة النبوية-رؤية استراتيجية نحو بناء الدولة
 لم تكن هجرة النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة إلى المدينة مجرد هروب من الاضطهاد أو بحث عن ملاذ آمن، بل كانت خطوة استراتيجية محكمة، وخطوة متكاملة أعدت لترسيخ دعائم الدين الإسلامي وبناء نموذج الدولة الإسلامية.

ويمكن إرجاع الدوافع الرئيسية للهجرة إلى عاملين جوهريين:

١- استنفاد الفرص في مكة وضرورة الانتقال إلى ساحة جديدة:

بعد ثلاثة عشر عاماً من الدعوة في مكة، كانت الساحة المكية قد استنفذت طاقاتها. فقد وصل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحد الأقصى مما يمكن

١ - ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٨٥.

تحقيقه فيها، فقد أحكمت قريش سيطرتها وأغلقت جميع المنافذ والسبيل أمام انتشار الدعوة عبر شبكة متعددة ومتنوّعة من أشكال الحصار والاضطهاد والعقبات ووضع العرّاقيل. وحقيقةً لم يعد هناك -كما ظهر- أملٌ يُذكر في كسب شرائح جديدة من المجتمع المكيّ في المدى المنظور. بناء عليه، بات الانتقال إلى بيئه جديدة أكثر خصوبيةً وانفتاحًا، ضرورة حتميّة وواجبًا ملحًا، لاستئناف الدعوة بحرّيّة، بعيدًا عن هيمنة قريش وتأثيرها القمعي.

٢- طبيعة الإسلام الشاملة وال الحاجة إلى دولة لتحقيق أهدافه:
ليس الإسلام مجرد عقيدة روحية فحسب، بل هو نظام حياة شامل ومتكملاً يشمل التشريعات والأحكام الاجتماعية والمبادئ السياسية والاقتصادية. ولم تسمح الظروف في مكة للنبي ﷺ بتطبيق هذا النظام الشامل وتحقيق الأهداف العالمية للدعوة. فتعاليم الإسلام الكبرى تحتاج إلى كيان سياسي يحميها، وإلى دولة تنشر العدل وتطبق القانون وتكون منصةً لنقل الرسالة إلى العالم أجمع. لذا، كان الانتقال إلى المدينة ضروريًا لإقامة "الدولة" التي تمثل النواة الأولى للمجتمع الإسلامي، وتكون قاعدة لانطلاق الرسالة وتبلیغها للبشرية جماء في كل مكان.

ثامن عشر: سر اختيار المدينة

تمتَّعت المدينة المنوَّرة على الدوام بموقع استراتيجي ومجتمعي واقتصادي مُهمّ، بما أهّلها بشكل فريد لكي تصبح حصن الإسلام المنيع، ويمكننا إيضاح ذلك وفق الآتي:

١. الموقع الجغرافي المتميّز:

تبعد المدينة مسافة تزيد عن أربعين كيلومتر عن مكّة، ما وفَّر لها حصانة طبيعية ضدّ أي هجمات مفاجئة من قريش. وفي الوقت نفسه، قُربها من طريق تجارة قريش إلى الشام مَنَحَ النبيَّ محمدَ ﷺ نقطة مراقبة استراتيجية، مكتته لاحقاً من بسط نفوذه وممارسة ضغط سياسي واقتصادي بل وعسكري على قريش عندما حان الوقت.

٢. النسيج الاجتماعي القابل للتغيير:

شهدت المدينة صراعات قَبْلَية طولية الأمد بين الأوس والخزرج واليهود، الأمر الذي أدى إلى تفكُّك نسيجها الاجتماعي. هذا التشرذم جعلها عاجزة عن مواجهة قوَّة العقيدة الإسلامية ووحدتها الذاتية الجديدة، بل إنَّ هذا الوضع خلق توقاً مجتمعياً لظهور قائد موحَّد يلتئمون حوله فيجمعهم، ينقذهم من براثن العصبيَّات القبليَّة التي كانت تبدو كأنَّها مستعصية على أي حلٍّ ومعالجة.

٣. المقوّمات الاقتصادية المتينة:

اعتمد اقتصاد المدينة على الزراعة الغنية والمزدهرة، والتي وفرت لها قاعدة اقتصادية متينة. هذه المقوّمات مكّنتها من الصمود وتحمل أي ضغوط أو حصار اقتصادي قد تفرضه قريش أو غيرها من القوى المعادية، ما ضمن استمرارicity الحياة ودعم المجهود الدعوي والعسكري.

تاسع عشر: أحداث السنة الأولى للهجرة النبوية

لقد شهدت السنة الأولى من الهجرة النبوية الشريفة، وقوع عدد من الأحداث والتحولات المحورية التي أسهمت بقوة في تشكيل هوية الدولة ورسم معالمها الإسلامية الناشئة، ومن أبرزها:

١. التحوّل الديني في يثرب: شهدت المدينة المنورة في عامها الأول موجة عارمة من اعتناق الإسلام؛ حيث انضمت إلى دين الله الجديد شخصيات بارزة مثل (سلمان الفارسي)^(١) الذي ارتقى لاحقاً ليصبح أحد أبرز صحابة النبي ﷺ وأكثرهم قرباً منه.

١ - راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ج ١، ص ١٥١؛ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): إكمال الدين وإتمام النعمة، ص ١٥٩؛ الصناعي: المصنف، ج ٨، ص ٤١٨.

٢. عودة مهاجري الحبشة: بعد أشهر قليلة من استقرار الرسول ﷺ في المدينة، بدأت مجموعات من المسلمين الذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة بالعودة تدريجياً عند علمهم بخبر الهجرة إلى يثرب. ولم تكن رحلة العودة موحدة، في بينما توجه بعضهم مباشرة إلى المدينة - وشاركوا لاحقاً في غزوة بدر - آخرون بمكة أولاً، كما استمر تدفق العائدين من الحبشة على دفعات متفرقة حتى اكتملت عودة الجميع، مع وصول (جعفر بن أبي طالب) في السنة السابعة للهجرة النبوية الشريفة^(١).

٣. بداية العمل بالتقويم الهجري: اتّخذ رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة قراراً بالبدء في توثيق الأحداث وتسجيلها وتاريخها، فجعل من لحظة وصوله إلى قباء بداية لهذا التقويم. وقد اعتمد المسلمون هذا النظام تدريجياً، حيث بدؤوا بتاريخ حوادثهم بالأشهر فقط خلال السنوات الخمس الأولى، قبل أن يتحولوا إلى التأريخ الكامل بالسنة والشهر بعد ذلك^(٢).

١ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٣٩

٢ - راجع: محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ٣٥١؛ ابن كثير: البداية والنهاية: ج ٦، ص ٢٠٦؛ السجستاني: سنن أبي داود، ج ٤، ص ١٥٩.

المَبْحُثُ الثَّالِث: تَأْسِيسُ الْكِيَانِ الإِسْلَامِيِّ وَبَدْءُ مَوَاجِهَةِ الصُّعَابِ

بِمَجْرَدِ اسْتِقْرَارِهِ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، شَرَعَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي
وَضْعِ لِبَنَاتِ مَجَمِعٍ جَدِيدٍ، مَتَّكِئًا فِي بَنِيَانِهِ عَلَى أَسْسٍ وَقِيمَ إِلَيْهِ
الرَّاسِخَةِ. وَكَانَ هُمُّهُ مُوجَّهًا نَحْوَ تَأْمِينِ مُسْتَقْبَلِ الدُّعُوَةِ وَضِمَانِ
اسْتِمْرَارِهِ، فَانطَلَقَ فِي عَمَلِهِ الْجَادِّ عَبْرِ مَحْوَرَيْنِ أَسَاسَيْنِ:

أَوَّلًا: وَضْعُ حَجْرِ الأَسَاسِ لِلْمَسْجِدِ النَّبَويِّ

فَقَدْ أَوْلَى النَّبِيُّ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسَأْلَةَ بَنَاءِ الْمَسْجِدِ اهْتِمَامًا كَبِيرًا، وَشَكَّلَ
هَذَا الْصَّرْحُ أَوَّلَ مَوْقِعَ وَمَؤْسِسَةً مُتَعَدِّدَةَ الْأَغْرَاضِ فِي الدُّولَةِ إِلَيْهِ
النَّاشرَةِ، فَجَمَعَ بَيْنَ كُونِهِ مَكَانًا لِلْعِبَادَةِ، وَمَرْكَزًا لِلتَّعْلُمِ وَنَشَرِ الْعِلْمِ
وَتَعَالَيمِ إِلَيْهِ وَقِيمَهُ وَتَشْرِيعَتِهِ، وَمَقْرَأً لِإِدَارَةِ شَؤُونِ الْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ؛
حِيثُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَقْرَأً حَكُومِيًّا مُنْفَصِلًا.

وَوَقَعَ اخْتِيَارُ الْبَنَاءِ عَلَى مَكَانٍ يُسَمَّى "الْمَرْبَدَ"^(١) (وَهُوَ الْمَوْضِعُ
الَّذِي كَانَ يُجَفَّفُ فِيهِ التَّمَرُّ) بَعْدَ أَنْ اشْتَرَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَالِكِيَّهُ. وَجَرِيَ

١ - المَرْبَدُ: مَوْضِعُ نَزْوَلِ الْإِبْلِ، وَتَجْفِيفِ التَّمَرِ.

نقل الحجارة اللازمة للبناء من منطقة «الحرّة» المجاورة^(١). وقد شارك النبي ﷺ بنفسه في أعمال البناء، حاملاً الحجارة عاملًا إلى جوار المسلمين، ما كان له أثر كبير في تحفيزهم وإشعال حماسهم للعمل بجد ونشاط.

ولم يقتصر البناء على الرجال فحسب، بل كان للنساء أيضًا دور فاعل وحيوي؛ حيث كن يسهمن بحمل الحجارة تحت جنح الليل، بينما يتولى الرجال مهمة البناء في النهار.. وبعد اكتمال بناء المسجد نفسه، جرى تشييد غرف ومساكن ملائقة له، لسكن النبي ﷺ وأهل بيته^(٢).

ثانيًا: تشريع فريضة الأذان

بعد اكتمال بناء المسجد، برزت الحاجة إلى وسيلة واضحة تدعو الناس إلى أداء الصلاة في أوقاتها المحددة. ولهذا عقدت مشاورات لاقتراح أفضل الطرق لهذه الدعوة، فقدم عدد من الصحابة اقتراحاتهم

١ - موضع الحجارة السود خارج المدينة.

٢ - راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الورى، ج ١، ص ١٥٩؛ سعيد بن هبة الله الرواوندي: قصص الأنبياء، ص ٣٣٨؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٤٣؛ الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٧٥.

الفَصْلُ الْأُولُ - المَبْحُثُ التَّالِثُ ٦٣

(مثل استخدام الناقوس أو النار)، واستمع النبي ﷺ إلى جميع تلك الآراء باهتمام دون رفض أي منها. ثم أُعلنَ أنَّ الْحَلَّ الْأَفْضَلُ والأمثل جاءَ بُوحيٍ من الله تعالى، وهو نظام "الأذان" كما نعرفه اليوم. وتلقَّى النبي ﷺ صيغته مباشرةً من الوحي عن طريق الملك جبرائيل.. وقد كُلِّفَ الإمام علي عليه السلام بتلقَّى صيغة الأذان من النبي وتعليمها لـ(بلال بن رباح). وبعد أن تعلم (بلال) الأذان، صعد إلى مكان مرتفع على جدار المسجد وأذن لأول مرة في التاريخ الإسلامي^(١)، في إعلان صريح واضح لبداية رسالة الدعوة إلى الإسلام والصلوة التي ما زالت تتَرَدَّدَ إلى يومنا هذا.

ثالثًا: مبادرة المؤاخاة- حجر أساس المجتمع الوليد
اتَّخذَ الرسول الكريم ﷺ خطوة تنظيمية باللغة الأهميَّة لبناء نسيج المجتمع الإسلامي الفتى، وهي "المؤاخاة" بين المهاجرين والأنصار.
جاءت هذه المبادرة لتحقيق جملة من الأهداف الاستراتيجيَّة:
١ . ترجمة المبادئ إلى واقع: تحويل المبادئ النظرية للإسلام،

١ - راجع: المتقي: كنز العمال في سنن الأول والفعال، ج ٦، ص ٢٧٧؛
النعمان المغربي: دعائم الإسلام، ج ١، ص ١٤٢؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢،
ص ١٥٤.

مثل التضامن والأخوة، إلى ممارسة عملية حقيقية ملموسة في العلاقات والمعاملات.

٢. بناء أمة موحدة: تمهيد الطريق لولادة “أمة” متجانسة تتجاوز الانتماءات القبلية الضيقة.

٣. تصميم جراح الماضي: معالجة آثار النزاع التاريخي بين قبيلتي الأوس والخزرج، ومنع أي احتكاكات محتملة بين القادمين الجدد (المهاجرين) وسكان المدينة الأصليين (الأنصار).

٤. إلغاء الطبقية: تحطيم الحواجز الطبقية والقبلية والاقتصادية. وعلاج الفجوة في المستوى المعيشي بين الأفراد.

٥. تطبيق مبدأ التضامن: تقديم نموذج عملي حي على مبدأ المواساة والمساواة الذي ينادي به الإسلام.

وقد جرت هذه المؤاخاة بعد مرور ما بين خمسة إلى ثمانية أشهر على هجرة النبي ﷺ، حيث أمر المسلمين قائلاً: «اتأخوا في الله أخوين أخوين»^(١).

بعد أن آخى النبي ﷺ بين جميع الصحابة، لاحظ الجميع أنَّ الإمام

١ - علي بن ابراهيم الحلبي: السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٩٢.

الفَصْلُ الْأُولُ - المبحث الثالث ٦٥

عليّاً قد بقي دون آخر. فتقىدم النبي ﷺ نحو عليٍّ قائلاً له: «إنما تركتك لنفسي، أنت أخي وأنا أخوك».

ثمَّ أوضح النبي ﷺ المكانة الفريدة للإمام عليٍّ قائلاً: «فإن ذكرك أحد فقل: أنا عبد الله وأخو رسوله، لا يدعها بعده إلا كذاب. والذي يعنني بالحق ما أخرتكم إلا لنفسي، وأنت مني بمنزلة هارونَ من موسى، إلا أنه لا نبيٌّ بعدي. وأنت أخي ووارثي»^(١).

ثمَّ أمسك النبي بيد الإمام عليٍّ معلناً أمام الجميع: «هذا أخي». وهكذا، أخي رسول الله ﷺ بين نفسه والإمام عليٍّ، مكرساً هذه الرابطة الأخوية الاستثنائية في تاريخ الإسلام^(٢).

رابعاً: الصحفة

مع بزوج فجر الهجرة النبوية الشريفة، تشكّل النسيج الاجتماعي في المدينة المنورة من خمس فئات سكانية رئيسة، وهي:

-
- ١ - راجع: النعمان بن محمد التميمي المغربي: شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، ج ٢، ص ٤٧٧؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ٣٣.
 - ٢ - راجع: ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٣؛ الحلبـي: السيرة الحلبـية، ج ٢، ص ٢٠؛ محمد بن عبد الله (الحاكم النيسابوري): المستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ١٤؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٥١.

- المهاجرون: أولئك الذين قدموا أغلى ما يملكون من أوطان وأموال وروابط عائلية فداءً لعقيدتهم، وطلباً لحرثيَّتهم في العبادة، فاغتربوا عن مكَّةَ متوجَّهين إلى المدينة.
- الأنصار: وهم السَّكَانُ الْأَصْلِيُّونَ للمدينة من قبيلتي الأوس والخزرج، الذين آمنوا برسول الله ﷺ، فآووه ونصروه، واهتدوا بالوحي الذي جاء به.
- المشركون: وهم مجموعة من أفراد قبيلتي الأوس والخزرج وقبائل عربية أخرى، مثل بني خطمة وبني سليم، ظلُّوا على دين آبائهم الوثنِي عند بداية الهجرة، ولم يُسلِّم كثير منهم إلا بحلول العام الرابع لها.
- المتهوّدون: وهم من تصرَّ من العرب (من الأوس والخزرج وغيرهم) ثم اعتنق اليهوديَّة لاحقاً، نتيجة لجوارهم مع قبائل يهود خيبر واحتلاطهم مع قريظة والنضير.
- اليهود الأصليُّون: وهم المنحدرون من أصل إسرائيلي، الذين هاجروا من فلسطين واستوطنوا المدينة وما حولها، وأبرز قبائلهم: بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير، ويهود خيبر.

وأمام هذا المشهد الاجتماعي المعقد، رأى النبي ﷺ - وهو يبني

دعائم مجتمع إسلامي جديد تقوم على دولة تحكمها الشريعة- أنَّ من الضروري اتخاذ إجراءات تنظيمية تحكم العلاقات بين هذه المكونات في ظلِّ النظام القانوني الجديد. فكانت وثيقة الصحيفة، التي وضعها رسول الله ﷺ، وشملت مبادئ أساس وأسسًا عملية تنظم الحقوق والواجبات، متضمنة اثنين خمسين مادةً، من أبرزها:

- أنَّ المسلمين يشكّلون أمَّةً واحدةً متكافلة، تتجاوز روابط القبيلة والاتماءات الضيقَة.
- أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلم هو المرجعية العليا والسلطة المركزية للأُمَّة في جميع الشؤون.
- أنَّ مسؤولية مقاومة الظلم ودفعه هي مسؤولية جماعية مشتركة، وليس مقصورة على المظلوم وحده.

أعطت الوثيقة المتهدِّدين من سُكَّان المدينة حقوق المواطننة الكاملة، بما فيها حقَّ الأمن والحرِّية، شريطة أن يتزموا بدسِّتور الدولة، وألا يقوموا بأيِّ عمل من أعمال الفساد أو الخيانة ضدَّ الإسلام وأهله.

خامسًا: موادعة اليهود

بعد إقرار الوثيقة السياسية المُهمَّة في المدينة، عقد الرسول الكريم ﷺ معاهدة صلحٍ مع اليهود الذين دخلوا في الإسلام من قبيلتي

الأوس والخرج. أمّا اليهود الأصليون، فقد شعروا بالعزلة عن حلفائهم السابقين بعد توقيع الوثيقة، فتقدّموا إلى النبي ﷺ طالبين عقد هدنة. فاستجاب النبي لرغبتهم، ووضع شروطاً تقضي بعدم مساعدتهم لأعدائهم وخصوصه من المشركين، وعدم إيذاء أحد من أصحابه، سواء بالقول أم بالفعل أم بالسلاح، سرّاً أم علانية. وقد نصّ الاتفاق على أنّه في حال انتهاكهم لهذه الشروط، فإنّ رسول الله ﷺ الحق في إباحة دمائهم ونبي نسائهم وأطفالهم وأخذ أموالهم. وكتب لكل قبيلة وثيقة منفصلة بهذه الشروط^(١).

سادساً: إعداد القوّة العسكريّة

بعد تأسيس الدولة الناشئة في المدينة، اتّخذ النبي محمد ﷺ خطوة محوريّة أخرى على طريق بناء الدولة، تمثّلت في الإعداد العسكري الشامل. وشمل ذلك تدريب العنصر البشري، وتجهيز السلاح والخيول، وتوفير كلّ متطلبات القوّة المسلّحة، امثالةً لأمر الله عزّ وجلّ في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾

١ - راجع: ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٤٧؛ محمد بن يعقوب الكليني: أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦٦؛ الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان، ج ١، ص ٣٠٣؛ بن حنبل: مسند أحمد، ج ٤، ص ١٤١.

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴿الأنفال: ٦٠﴾ .
فنظم صلوات الله عليه وسلم المسلمين في المدينة تنظيماً عسكرياً دقيقاً؛ حيث قسمّهم إلى وحدات (عرافات)، وجعل على كلّ عشرة أفراد قائداً (عرباً)، واعتبر جميع الذكور البالغين جزءاً من الجيش، وشكلّ منهم سرايا عسكرية .

وي يمكن استخلاص الملامح الرئيسية لتنظيم القوّة العسكرية وإدارة المعارك في عهد النبي صلوات الله عليه وسلم من خلال الروايات التاريخية، وهي:

- القيادة المركزية: امتلك النبي الكريم زمام شؤون القرار العسكري الاستراتيجي والتكتيكي، بما يضمن ويفعل وحدة التوجيه واتخاذ القرار.
- التجنيد والتشكيل: كان الجيش يُشكّل من الذكور البالغين الذين بلغوا الخامسة عشرة من العمر فما فوق.
- التدريب المستمر: كان الشباب في المدينة يتدرّبون على استخدام الأسلحة وفنون القتال في مكان مخصص لذلك، وكان الإمام علي زمن بين من يقومون بتعليم الناس هذه المهارات.

كما اشتملت التنظيمات العسكرية في عهده على نظم متقدّمة أخرى، كالإعداد السكاني لأغراض عسكرية، وتطوير الصناعة الحربية،

وأنظمة الاستخبارات والتجسس.

وتكشف هذه الملامح جميعها عن دقّة التنظيم العسكري الذي كان ركيزة أساس في تحقيق الانتصارات العسكرية الكبرى في فترة زمنية قياسية.

سابعاً: مواجهة التحدّيات

بعد أن أرسى الرسول الكريم ﷺ دعائم الدولة الإسلامية ونظم أنسابها الأولى في المدينة، وثبتت أركانها الداخلية، بدأت مرحلة جديدة تمثّلت في الدفاع عن الدين ومواجهة القوى المعادية للإسلام؛ حيث خاض ﷺ مواجهات عسكرية ضد ثلاثة أنواع رئيسة من الأعداء، وهم:

١. المشركون، وشملوا قبيلة قريش والقبائل العربية الأخرى التي تعبد الأصنام.

٢. اليهود، الذين نقضوا عهودهم مع المسلمين وتحالفوا مع أعدائهم.

٣. النصارى، وذلك في معركتي مؤتة وتبوك.

ويُطلق المؤرّخون مصطلحين على المعارك التي خاضها المسلمون في عهد النبي ﷺ:

- أ. الغروة: وهي المعركة التي كان يشارك فيها النبي ﷺ

شَخْصِيًّا وَيَقُولُهَا بِنَفْسِهِ.

ب. السُّرِّيَّةُ: وَهِيَ الْحَمْلَةُ الْعَسْكُرِيَّةُ الَّتِي لَمْ يُشَارِكُ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ كَانَ يُوكِلُ قِيَادَتَهَا إِلَى أَحَدٍ مِّنْ أَصْحَابِهِ.

وَبِلْغِ إِجماليِ الغزواتِ والسرايا في عهدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْثَرُ مِنْ ثَمَانِينَ، جَمِيعُهَا حَدَثَتْ بَعْدِ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، مَا يَعْكِسُ حَدَّةَ الْمَرْحَلَةِ وَاتَّساعَ نَطَاقِ الْمَوَاجِهَاتِ الَّتِي خَاضَتْهَا الدُّولَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْفَتَيَّةُ الْجَدِيدَةُ الْنَّاشِئَةُ.

ثَامِنًا: السُّرِّيَّةُ وَأَهْدَافُهَا

شَكَّلَتْ سُرِّيَّةُ (حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ)، الَّتِي انطَلَقَتْ بَعْدِ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ مِّنْ الْهِجْرَةِ، أُولَى الْحَمْلَاتِ الْعَسْكُرِيَّةِ الَّتِي وَجَهَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَكَانَتْ مَهْمَمَتُهَا الْقِيَامُ بِعَمَلِيَّةِ اعْتِرَاضِ قَافْلَةِ لِقْرِيشٍ، لَكِنَّ وَسَاطَةً حَكِيمَةً مِّنْ (مَجْدِي بْنِ عُمَرَ الْجَهْنِيِّ) -الَّذِي كَانَ عَلَى عَلَاقَةٍ وَدَّ مَعَ الْطَّرَفَيْنِ- حَالَتْ دُونَ وَقْعَةِ الْقَتْالِ، فَانْفَصَلَ الْفَرِيقَانِ مِنْ دُونِ تَبَادُلِ ضَرِباتٍ. وَقَدْ انْطَوَتِ الْحَكِيمَةُ مِنْ إِرْسَالِ هَذِهِ السُّرِّيَّةِ^(١) عَلَى تَحْقِيقِ

١ - لِلْأَطْلَاعِ عَلَى بَعْضِ السُّرِّيَّاتِ، رَاجِعٌ: مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ: *تَارِيخُ الْأَمْمِ وَالْمُلُوكِ*، ج٢، ص٤٠٢؛ أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ الْيَعْقُوبِيِّ: *تَارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ*، ج٢، ص٧٠؛ أَبْنُ هَشَامٍ: *السِّيَرَةُ النَّبُوَّيَّةُ*، ج٢، ص٢٤٥.

جملة أهداف استراتيجية، تمثلت في:

- زعزعة استقرار قريش وحلفائها وإضعاف قدراتهم المعنية.
- استهداف اقتصاد قريش الحيوى عبر تعطيل طرق تجارتھا، والتي كانت تمثل مصدر قوتها وعصب حیاتها.
- إيصال رسالة تحذيرية واضحة إلى أعداء الدولة الإسلامية الفتية الناشئة، سواء من اليهود داخل المدينة أم قبائل البدو خارجها، مفادها أن المسلمين يمتلكون القوة والجاهزية العسكرية للردع، وأيضاً للردع على أي اعتداء قد يتهدّد كيانهم السياسي ويحاول إسقاط عقيدتهم ودينهما.
- وأسفرت هذه المهام العسكرية عن تحقيق إنجازات بارزة، منها: إقامة تحالفات استراتيجية: حيث دفعت هذه الحملات عددًا من القبائل في المنطقة إلى عقد اتفاقيات مع المسلمين، بعد أن أدركت قوتهما وحزمهم في مواجهة خصوم أقوىاء مثل قريش.
- اكتساب خبرات قتالية جديدة: حيث وفرت فرصة التدريب على القتال في سياقات مختلفة تماماً عن حروب الجاهلية، وفي ظل موازين قوى متغيرة.
- التعرّف على الجغرافيا المحيطة: وساهمت في استكشاف

المناطق المحيطة بالمدينة والتعرُّف على طرق المواصلات ومسالكها ومصادر المياه فيها، ما عزَّزَ الموقع الاستراتيجي لل المسلمين.

- فرض حصار اقتصادي غير مباشر: من خلال تهديد أمن الطرق التجارية الرئيسة التي تربط قريش ببلاد الشام، ما شكل ضغطًا اقتصاديًّا عليها.
- تعزيز النفوذ والهيمنة: وساعدت في ترسين هيبة الدولة الإسلامية وقوتها في نظر القبائل المجاورة، ما وسَعَ من نطاق نفوذها وردع الأعداء.

تاسعًا: معركة بدر

تُعدُّ معركة بدر أول مواجهة عسكرية كبرى خاضها رسول الله محمد ﷺ والمسلمون ضدَّ مشركي قريش؛ حيث وقعت في السابع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة، بالقرب من منطقة بدر التي تبعد نحو ١٦٠ كيلومترًا عن المدينة المنورة على الطريق بينها وبين مكة المكرمة.

خرج الرسول الكريم ﷺ ومعه ٣١٣ من أصحابه لاعتراف قافلة تجارية يقودها (أبو سفيان) قادمة من الشام إلى مكة، لا طمعًا في المال

بل لتعويض المسلمين عمّا سُلِّب منهم، ولفرض حصار اقتصادي على قريش لإضعافها وثنائها عن عدائها للإسلام. وعندما علم (أبو سفيان) بتحركات المسلمين، غير مسار القافلة واستنجد بقريش، التي هرعت ملييّة النساء بقراة ألف مقاتل مدجّجين بالسلاح والعتاد.

بدأت المعركة بمبارزة فردية، ثم اشتباك الجيشان في قتال ضارٍ وكانت موازين القوى المادية تميل إلى صالح قريش، لكنَّ النصر حسم بتدخل إلهي مباشر؛ حيث أيدَ الله المسلمين بالملائكة، فحققوا انتصاراً ساحقاً على الرغم من تفوق العدو عددياً وعتاداً.

تميزَت المعركة بالقيادة الحكيمية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبطولات الإمام علي بن أبي طالب عليه الاستثنائية، وأثبت المسلمون أنَّ إيمانهم وقوَّة عزيزتهم تغلب القوَّة المادية، وصدقَ وعد الله -تعالى- في قول الله عز وجل: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِنَا فِتْنَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَآخْرَى كَافِرَةٌ يَرُونَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُوَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَا وَلِيَ الْأَبْصَار﴾ [آل عمران: ١٣].

وقد كان لنصر بدر أبعاد ونتائج عملية متعددة: عسكرية بانتصار القلة على الكثرة، ومعنوية بتحقيق الوعود الإلهي الذي سبق أن أخبر عنه القرآن الكريم في الآية الكريمة: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلِبُونَ وَتُخْسِرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

ومن أبرز نتائج هذه المعركة التاريخيَّة:

- تعزيز ثقة المسلمين بأنفسهم وإيمانهم بعقيدتهم وإسلامهم.
 - رفع هيبة المسلمين بين قبائل المنطقة وتحصين وجودهم.
 - تشجيع كثيرين على اعتناق دين الإسلام بعد زوال هيبة قريش وكسر شوكة زعمائهم.
 - إضعاف نفوذ قريش السياسي والاقتصادي بين قبائل العرب.
 - تمهيد الطريق لانتشار الدعوة الإسلاميَّة بشكل أوسع.
 - تعزيز أواصر الأخوة والتماسك بين المهاجرين والأنصار.
- وهكذا أصبحت معركة بدر نموذجاً خالداً على أنَّ النصر من عند الله، وأنَّ الإيمان والعزم يمكن أن يغلبوا القوَّة الماديَّة حين تكون السواعد مرفوعة إلى السماء.

عاشرًا: دروس وعبر معركة بدر

١. أهميَّة القيادة الموحدة: برهنت المعركة على ذلك الأثر الحاسم للقيادة الموحدة في تحقيق النصر؛ حيث تولَّ النبي الكريم ﷺ بنفسه قيادة الجيش الإسلامي، فكانت جميع القرارات والتحركات تجري تحت توجيهه المباشر، ما جعل صَفَّ المسلمين كالجسد الواحد.

٢. قوَّةُ الإرادة والإيمان: أثبتت المعركة أنَّ القَلَّةَ في العدد والعتاد يمكنها أن تهزم الكثرة إذا امتلكت إيماناً راسخاً، وعزيمة صلبة، وتحظى طرفاً محاكماً، وإخلاصاً في الهدف. وهو ما تؤكّده الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ يُبَدِّرُ وَإِنْتُمْ أَذَلُّهُ...﴾ [آل عمران: ١٢٣].
٣. العنصر المعنوي ركيزة النصر: بيَّنت بدر أنَّ النصر لا يُكتسب بالعدَّة والعدد فحسب بل إنَّ العامل الروحي والمعنوي -المتمثل في الإيمان بالله، والتوكُّل عليه، والإخلاص له- هو المحرك الأساس والوقود الذي يدفع نحو تحقيق الانتصار ضد كل الصعاب.
٤. الانضباط والنظام: حيث قدم المسلمون في بدر مثالاً رائعاً ونموذجاً فريداً في الانضباط العسكري والطاعة العميماء للقيادة والقائد، فنفَّذوا الأوامر بدقةً وأمانةً وبرغبة إيمانيةً عقديَّة داخليةً، ما كان يعكس مستوى عالياً من الالتزام والوعي بالمسؤولية الرسالية.

حادي عشر: غزوة أحد

ظلَّت هزيمة المشركين في معركة بدر تلقي بظلالها الثقيلة على نفوس قريش وزعاماتها القبلية في مكَّةَ، حيث استقرَّ فيها الحقد والرغبة في الانتقام من النبي ودينه.. وهكذا فقد قاد (أبو سفيان) (رمز الشرك والكافر

في ذلك الحين) التوجّه نحو إشعال نار الحرب من جديد لتعويض هزيمته، ومحاولته استعادة هيبيته المفقودة، ومحو الآثار العميقه التي خلّفها انتصار المسلمين المعنوي والميداني الكبير في بدر.

فجهزَ -أي (أبو سفيان)- جيش المشركين، الذي بلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتل، واتّجه نحو المدينة المنورَة.. وكان النبي محمد ﷺ على علمٍ مسبقٍ بتحركاتهم عبر عيونه ومصادره الاستخباراتية.. وبعد مشاورته مع أصحابه، قرر الخروج لمقاتلتهم خارج حدود المدينة وبعيداً عن أسوارها.. فانطلق ﷺ مع ألف مقاتل، لكن هذا العدد تقلص لاحقاً إلى سبعمئة بسبب انسحاب فئة المنافقين بقيادة (عبد الله بن أبي بن سلول)، ليتلقى الجيشان عند سفح جبل أحد في شهر شوال من العام الثالث للهجرة.

قام النبي الكريم ﷺ بوضع خطَّةٍ عسكريَّةٍ دقِّيَّةٍ ومحكمةٍ؛ حيث قام بتعيين وتكتيل مجموعة من الرماة المهرة، قوامها خمسون رجلاً، على مُرتفع استراتيجي عند ثغرةٍ في الجبل، وذلك من أجل تأمين حماية ظهر قوات الجيش. بدأت المعركة وتحقّق النصر للمسلمين في مرحلتها الأولى؛ حيث بدأ جيش المشركين في التراجع والتقهقر، وشرع المسلمون في جمع غنائم المعركة. لكنَّ شغف بعض الرماة وطعمهم بالغنائم دفعهم -مع الأسف- إلى مغادرة مواقعهم الحصينة، مخالفين أوامر القيادة الرسولية، الأمر الذي أدى إلى فتح ثغرة في الخطوط الدفاعية الإسلامية..

وهذا ما استغلَّه القائد المشرك (خالد بن الوليد)، فقام بمحاجمة المسلمين من الخلف، ما أربكَ صفوفهم وأدى إلى انهيارهم.

استعادَ المشركون ثقتهم، ورباطة جأشهم، وقاموا بمحاجمة المسلمين المنشغلين بالغنائم، وانتشرت إشاعة مفادها أنَّ الرسول ﷺ قد قُتل، ما زاد من حالة الذعر والتشتُّت في صفوف المسلمين، ولم يبقَ ليدافع عن النبي ﷺ إلا ابن عمِّ الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام، الذي اشتَدَّ في الدفاع عنه، وصدَّ هجمات المشركين ببسالة نادرة. وقد نادى جبرائيل عليه السلام في تلك اللحظات الحاسمة: «لا فتى إلا علي، ولا سيف إلا ذو الفقار»^(١).

وعندما رأى المسلمون ثبات النبي ﷺ وبطولة علي عليه السلام، بدأوا في تجميع صفوفهم والعودة إلى ساحة القتال، ما مكَّنَهم من صدَّ الهجمات المضادة للمشركين.. هنا أدرك المشركون أنَّ هزيمة المسلمين أصبحت مستحيلة، وهم يعانون من الإرهاق والخسائر، فقرّروا الانسحاب والعودة إلى مكَّةَ خالي الوفاض، دون أنْ يحققُوا أيًّا من أغراضهم وأهدافهم^(٢).

- ١ - راجع: محمد بن سليمان الكوفي: مناقب الإمام أمير المؤمنين عليهما السلام، ج ١، ص ٤٩٥؛ النعمان المغربي: شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، ج ٢، ص ٣٨١.
- ٢ - راجع: ابن هشام: سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ١٠٦؛ محمد بن عمر الراقدi: المغازى، ج ١، ص ١٩٩؛ محمد بن جرير الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ١٨٦؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٩١.

ثاني عشر: معركة الخندق

بعد معركتي بدر وأحد، استمرّت معارك الرسول ﷺ وغزواته ضدّ عدد من قبائل العرب واليهود، ما أيقظَ مخاوفهم وشعورهم بالتهديد الجدي جرّاء تناامي قوّة الدولة الإسلامية بقيادة الرسول الكريم محمد ﷺ، فانخرطوا في كثير من حيَاة المؤامرات والدسائس ضدّ الإسلام ونبيه، وعملوا على بث الفتنة، وتحريض أعداء النبي، والتخطيط لتشكيل تحالف عسكري كبير لاقتحام المدينة، والقضاء على الإسلام والمسلمين.

قام اليهود بالاتصال بقريش وغطفان، وتوصلوا معهم إلى اتفاق لمهاجمة المدينة، ولكنّ أخبار هذه المؤامرة وصلت إلى النبي ﷺ، فاستشار أصحابه الذين أشاروا عليه لضرورة حفر الخندق حول المدينة، وشارك النبي ﷺ بنفسه في أعمال الحفر.

وتحضرت أحزاب الكفر والضلال من قريش وغطفان وحلفائهم من القبائل المعادية، وجمعوا مقاتليهم وأنصارهم، حتى بلغ عدد جيشهم عشرة آلاف مقاتل نزلوا على مقربة من المدينة، في حين لم يتجاوز عدد المسلمين تسعمئة مقاتل، اصطفوا خلف الخندق بقوّة وإيمان. وأسهمت ثلاثة عوامل رئيسة في تحقيق الصمود والنصر في هذه المعركة، وهي:

- التخطيط العسكري المتمثل بحفر الخندق، الذي شكلَ درعاً واقياً لل المسلمين والمدينة، وحال دون تقدُّم العدو بسرعة.
- نشاط الاستخبارات الفعال الذي قاده رسول الله ﷺ، وأدى إلى إضعاف تماسك جبهة الأحزاب وهزيمتهم من الداخل.
- البطولة الفذة التي أظهرها الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد وصفَ الرسول الكريم ﷺ موقفَ الإمام علي عليه السلام في غزوة الخندق بقوله الخالد: «ضربةٌ علىٌ يومَ الخندقِ أفضلُ من عبادةِ التقلين»^(١).

١ - راجع: محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٢٢؛ المجلسي: بحار الأنوار، ج ٣٩، ص ٢. وقد روي هذا الحديث بطريقة أخرى أوردها الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي في تفسيره مجمع البيان، حيث قال: عن حذيفة، قال: قال النبي ﷺ: «أشعر يا علي، ولو وزن اليوم عملُك بعمل أمَّةٍ محمد لرجح عملك على عملهم؛ وذلك أنَّه لم يبقَ بيتٌ من بيوت المشركين إلَّا وقد دخله وهنَّ بقتل عمرو، ولم يبقَ بيتٌ من بيوت المسلمين إلَّا وقد دخله عزٌّ بقتل عمرو». (راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان، ج ٨، ص ١٣٢). وعييد الله حسكان: شواهد التنزيل، ج ٢ ص ١٢).

ثالث عشر: صلح الحديبية

لقد شكلت الانتصارات المتتالية للرسول ﷺ في مواجهة أعداء الإسلام من المشركين واليهود نقلة نوعية عزّزت من مكانة الدولة الإسلامية وهيبتها، ما دفع النبي ﷺ إلى التوجّه مع أصحابه إلى مكة لزيارة البيت الحرام وأداء مناسك العُمرَة، مستنداً إلى رؤيا صادقة رأى فيها تحقق هذا الأمر بسلام، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ أَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِينَ هُلَّفِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقْصِرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].. فانطلق الرسول ﷺ في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، وكان معه قرابة ألف وأربعين من أصحابه من المهاجرين والأنصار، حاملين سلاحهم للتّحرّز من أي طارئ، وساقوا معهم هديةًّا من الإبل، بلغ سبعين بدنة ليحرروها في مكة. وعندما وصل خبرُ مسيرهم إلى قريش، استشعروا الخطر، واعتقدوا أنَّ القصد هو مهاجمتهم، فاستنفروا للتحضير للقتال وأرسلوا سريةً استطلاعيةً بقيادة (خالد بن الوليد). ولمّا علم النبي ﷺ بنبيتهم، حرصاً على تفادي القتال وتأكيداً أنَّ الهدف هو العُمرَة فقط، انحرف عن الطريق المباشر وتوجّه إلى منطقة الحديبية حيث مكثوا وخيموا هناك.

في ذلك الموقع، بدأت سلسلة من المفاوضات بين الطرفين، حيث بعثت قريش عدّة وفود لاستقصاء نوايا المسلمين، وكان رد النبي ﷺ موحّداً ومبشراً: «إنا لم نجع لقتال، وإنما جئنا معتمرین»^(١). وبعد مفاوضات مطولة، جرى إبرام اتفاقية تاريخية عُرفت بصلح الحديبية، بوساطة (سهيل بن عمرو) الذي أرسلته قريش، وتضمنت بنوداً رئيسة، أهمّها:

- وقف الأعمال العدائية بين الطرفين لمدة عشر سنوات.
- يتعرّف المسلمون بإعادة أيّ شخص يأتّهم من قريش دون إذن أهله، بينما لا تلتزم قريش بإعادة من يأتّها من المسلمين.
- حرية القبائل في التحالف مع الطرف الذي تختاره.
- عودة المسلمين ذلك العام إلى ديارهم، على أن يعودوا للعمرمة في العام التالي ويمكثوا ثلاثة أيام، دون دخول بسلاح إلا سيف المسافرين.
- حرية الدعوة إلى الإسلام في مكة دون تعرض أحد للأذى.
- منع أعمال السطو والخيانة بين الطرفين وضمان سلامة الأموال.

١ - عبد الرزاق الصناعي: كتاب المغازى، ج ٥، ص ٣٣١.

■ عدم تقديم قريش أي دعم عسكري أو لوجستي ضد المسلمين.

ونتيجة لهذه المعاهدة، فقد دخلت قبيلة خزاعة في حلف مع النبي ﷺ، بينما تحالفت كنانة مع قريش^(١).

رابع عشر: فتح مكة

بعد ما يقارب العامين على توقيع صلح الحديبية، قامت قريش بنقض بند الاتفاقية، وذلك بعد أن بنت حلفاً مع قبيلة كنانة في هجومهم على قبيلة خزاعة الحليفة للمسلمين، وهذا كان خرقاً صريحاً لبند الهدنة. لجأت خزاعة إلى رسول الله ﷺ طالبة النصرة، وحينها أدركت قريش خطورة ما فعلت، فقرر النبي ﷺ التوجه إلى مكة لمواجهة هذا الانتهاك، فجهّز جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل من مختلف القبائل. اتّخذ النبي ﷺ إجراءات احترازية لضمان مفاجأة قريش، فتحرّك الجيش الإسلامي في العاشر من شهر رمضان في السنة الثامنة للهجرة بشكل سري، حتى أحاط بمكة من جميع نواحيها وأطرافها.

١ - راجع: النعمان المغربي: شرح الأخبار، ص ١٠٨؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٢٠٢؛ الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان، ج ٩، ص ١٧٨؛ محمد بن عمر الواقدي: المغازى، ج ٢، ص ٥٨٧.

دخل رسول الله ﷺ مكةً محققاً النصر دون إراقة دماء، وتوجه إلى الكعبة مباشرة، حيث أظهر موقفاً إنسانياً فريداً تجلّ في العفو عن قريش وزعماتها، قائلاً لهم: «اذهبا فأنتم الطلقاء»^(١)، ما حول لحظة الانتصار إلى صفحة جديدة من المصالحة والعفو الكريم.

خامس عشر: أبرز الصراعات مع قبائل اليهود أ - مواجهة بني قينقاع:

شكّلت الأعمال والسلوكيات العدائية لليهود دافعاً لمواجهةهم على مراحل، وكانت أولى هذه المواجهات مع بني قينقاع الذين سكنوا داخل المدينة، وكانوا أول من غدر بال المسلمين ونقض العهود معهم. وجاءت القطيعة بعد أن قاموا بقتل أحد المسلمين الذي دافع عن امرأة مسلمة، فاضطُرَّ النبي ﷺ إلى محاربتهم؛ حيث حاصرهم المسلمون بقيادة عليّ عليه السلام في حصنهم لمدة أسبوعين، حتى استسلموا وطلبو النفي مقابل الاحتفاظ بأسرهم، فقبل النبي ﷺ بذلك، وصادر أموالهم وأسلحتهم، ووزعها على المسلمين، ثم أجلّهم إلى أذرارات

١ - راجع كل من: احمد بن يحيى البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٤؛ ابن أبي الحميد: شرح نهج البلاغة، ج ١٧، ص ٢٥٧؛ ابن الأثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٣٢١.

في الشام، حيث هلكوا جميعاً في العام نفسه.

ب - مواجهة بني النمير:

تعرّض الرسول الكريم ﷺ إلى محاولة اغتيال نظمتها وخططت لها قبيلة بني النمير، فكشف مخططهم، وأمرهم بمعادرة المدينة خلال عشرة أيام. عند رفضهم الانصياع، حاصرهم المسلمون وقطعوا نخيلهم، الأمر الذي دفعهم للاستسلام بعد أن قتل علي عليهما السلام عشرة من فرسانهم. ثم لاحقاً سمح لهم النبي ﷺ بمعادرة المدينة محملين بأمتعتهم دون السلاح، فتوّجَه معظمهم إلى خير بينما اتجه آخرون إلى الشام^(١).

ج - فتح خير:

كانت خير أقوى معقل لليهود في الحجاز، وقد شاركوا في التحرير ضد المسلمين في غزوة الأحزاب. توجّه الرسول الكريم ﷺ بجيشه إلى خير السنة السابعة للهجرة، وتمكنّ المسلمين من مفاجأة اليهود بعد تحرك سريّ. بعد عدّة محاولات فاشلة لاقتحام الحصن، أُسند الرسول الكريم ﷺ الراية إلى الإمام علي عليهما السلام الذي قتل بطليهم

١ - راجع: ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٥٧؛ الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ج ١، ص ٩٢.

(مرحب)، واقتلع باب الحصن لكي يتمكّن المسلمين من العبور إليه. انتهى الأمر باستسلام اليهود، واتفاقهم على العمل في الأرض مقابل نصف إنتاجهم لصالح المسلمين.

د - مصالحة فدك:

بعد سقوط خير، بادر يهود فدك إلى طلب الصلح مع النبي ﷺ، فجرى الاتفاق على مناصفة محصول أراضيهم. أصبحت خير ملكاً للMuslimين، بينما حرى تخصيص فدك للنبي ﷺ الذي أوصى بها لابنته فاطمة الزهراء ؓ لتصرف ريعها على فقراء بنى هاشم وفق ما تراه مناسباً^(١).

سادس عشر: حجّة الوادع وبيعة غدير خمٌّ

في العام العاشر للهجرة، أعلن الرسول الكريم ﷺ عزمه على أداء فريضة الحجّ، فتوافدت الجموع إلى المدينة المنورة ليضمُّوا إليه. وفي الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة، غادر ﷺ المدينة مصطحبًا زوجاته وأبنته فاطمة الزهراء ؓ.

١ - راجع: ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٩٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٠، ص ٣٠٠.

وبعد إكمال مناسك الحجّ، انطلقت القافلة عائدة إلى المدينة، وكانت تضمّ حشوداً لم تشهدها مكةً من قبل. وعند وصولهم إلى موضع يُعرف بـ "غدير خم" قرب الجحفة في يوم شديد الحرارة، نزل الوحي على النبي ﷺ صلوات الله عليه وآله وسلامه بالآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلَّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ التَّأْسِ﴾ [المائدة: ٦٧] .. وعندها أمر النبي ﷺ صلوات الله عليه وآله وسلامه بتجميل الدوحة (الأشجار) ليصعد عليها حتى يراه الجميع، فخطب في الناس حامداً لله ومثنى عليه، ثم قال: «كَأَنِّي دُعِيتُ فَأَجَبْتُ.. إِنِّي تارِكُ فِيكُمُ الشَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللَّهِ، وَعَرْتَتِي أَهْلَ بَيْتِي؛ فَانظُرُوا كَيْفَ تَخَلَّفُونِي فِيهِمَا، فَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقاً حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ... لَلَّهُ مَوْلَايَ وَأَنَا وَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ»^(١)، ممسكاً بيد الإمام علي عليه السلام قائلاً: «مَنْ كَنْتَ مَوْلَاهُ فَهُذَا عَلَيُّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالَّذِي مَنْ وَالَّذِي وَعَادَ مِنْ عَادَاهُ»^(٢). وَتَوَكَّدَ الْرَوَايَاتُ كَمَا عِنْدَ (زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ) - أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ حَاضِرًا قد شهد وسمع هذا الحديث.

وفي رواية للإمام جعفر الصادق عليه السلام أوردها (الشيخ المفيد) في

١ - راجع: سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الكبير، ج ٥، ص ١٨٣ .

٢ - راجع: علي المتقى: كنز العمال، ج ١١، ص ٦٠١، ح ٣٢٨٩٩؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٢، ص ٢٣٨، ح ١٥٨٩ .

كتابه «الإرشاد»^(١)، أنَّ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَامَ خِيمَةً لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْإِمامِ عَلَيِّ الْجَلِيلِ وَأَمْرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَهْنَئُوهُ وَيَبَايِعُوهُ بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى سَبِيلِ الْانْفِرَادِ جَمَاعَةً جَمَاعَةً، كَمَا أَمْرَ النِّسَاءَ بِذَلِكَ. وَقَدْ هَنَّا (عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ) قَائِلًا: «بَخٌ بَخٌ لَكَ يَا عَلِيٌّ، أَصْبَحْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلَّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ»^(٢).

سابع عشر: الوصيَّةُ الأخيرةُ

مع اقترابِ أَجَلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَلَمْ بِهِ مَرْضٌ شَدِيدٌ أَقْعَدَهُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ.. ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَهَا إِلَى الْمَسْجِدِ مَعْصُوبَ الرَّأْسِ، مَتَّكِئًا عَلَى كُلِّ مِنْ الْإِمَامِ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الْجَلِيلِ وَالْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ، حَتَّى صَدَعَ الْمَنْبَرُ وَجَلَسَ عَلَيْهِ. ثُمَّ خَاطَبَ النَّاسَ قَائِلًا: «يَا مَعْشَرَ النَّاسِ، قَدْ قَرَبَ مِنِي الْفَرَاقُ؛ فَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدِي وَعْدٌ فَلِيأْتِنِي أَوْفِ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لِي عَلَيْهِ دِينٌ فَلِيُعْلَمَنِي بِهِ.. أَلَا وَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنِ أَحَدٍ نَسْبٌ يُعْطِيهِ خَيْرًا أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ شَرًا إِلَّا الْعَمَلُ.. لَا يَدْعُ مُدَّعٌ، وَلَا يَتَمَنَّ مُتَمَنٌ». وَالَّذِي بَعْثَنِي بِالْحَقِّ لَا يُنْجِي إِلَّا الْعَمَلُ مَعَ الرَّحْمَةِ، وَلَوْ عَصِيتُ لَهُوَيْتَ.

١ - الشِّيخُ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَفِيدُ: الْإِرشَادُ، ج ١، ص ٣٣٩.

٢ - راجع: ابنُ كَثِيرٍ: الْبَدَايَةُ وَالنَّهَايَةُ، ج ١١، ص ٥٤؛ مُحَمَّدُ باقرُ الْمَجْلِسِيِّ: بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ٢١، ص ٣٨٨.

اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغَتْ؟». ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ وَصَلَّى بِالنَّاسِ صَلَاةً خَفِيفَةً وَعَادَ إِلَى بَيْتِهِ. وَعِنْ أَذَانِ الْفَجْرِ، جَاءَهُ (بَلَالُ) وَهُوَ فِي سَكَرَاتِ الْمَرْضِ، فَنَهَضَ عَلَيْهِ ضَعِيفًا حَتَّى أَنَّ رَجْلِيهِ كَانَتَا تَخْطَآنَ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَدَّةِ الْوَهْنِ، مَعْتَمِدًا عَلَى عَلَيِّهِ وَ(الْفَضْلِ)، وَبِدَا الصَّلَاةُ، ثُمَّ أَغْمَى عَلَيْهِ فَتْرَةً، فَبَكَى الْحَاضِرُونَ وَارْتَفَعَ النَّحِيبُ مِنْ زَوْجَاهُ وَابْنَتِهِ فَاطِمَةَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَلَّ مِنْ حَضْرِ^(١).

ثامن عشر: وفاة النبي ﷺ

كانت اللحظات الأخيرة للنبي الكريم ﷺ موسحة بحزن عميق بين المسلمين. وفي يوم الاثنين (الثامن والعشرين من صفر) من السنة الحادية عشرة للهجرة، وكان عمره ثلاثة وستين سنة، حُجب الناس عنه، ولم يزل الإمام علي عليه السلام ملازمًا له.. وعند حضور الأجل، أوصى النبي ﷺ علياً بقوله: ”يا علي، ضع رأسك في حجرك، فقد جاء أمر الله. فإذا فاضت نفسك فخذها بيديك وامسح بها وجهك، ثم وجّهني نحو القبلة،

١ - راجع: أحمد بن حنبل: مسنـد أـحمد بن حـنـبل، جـ ١، صـ ٣٢٥؛ الشـيخ محمد بن محمد المـفـيد: الأـمـالـيـ، صـ ٣٧؛ محمد بن اسماعـيل البـخارـيـ: صـحـيـحـ الـبـخارـيـ، جـ ٥، صـ ١٣٧؛ ابن أبي الحـدـيدـ: شـرـحـ نـهـجـ الـبـلـاغـةـ، جـ ١٢، صـ ٢٠؛ سـليمـانـ بنـ أـحمدـ الطـبرـانـيـ: المعـجمـ الـكـبـيرـ، جـ ١١، صـ ٣٠.

وتولَّ أمرِي، وَصَلَّى عَلَيَّ أَوَّلَ النَّاسِ، وَلَا تفارقني حتَّى تواري جسدي في قبره، واستعن بالله“ . ففعل الإمام علي عليه السلام كما أمر، ففاحت النفس الطاهرة ورأسها على صدر علي^(١) عليه السلام.

١ - راجع: الشيخ محمد بن محمد المغيد: الأمالى، ص ٢٣؛ محمد بن يعقوب الكليني: الكافى، ج ١، ص ٤٥٩؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٢٠٣.

الفصل الثاني:

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

يُقارب هذا الفصل شخصية الإمام علي عليه السلام بوصفها الامتداد العملي للنبيّة ومعايير القيادة العادلة في الإسلام. لا نعرض السيرة للتعظيم العاطفي، بل لالتقاط قواعدها المعيارية: إعداد مبكر في حجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسبق في الإيمان ونصرة الدعوة، ثم تحوّل من الجهاد تحت راية الرسول إلى تجربة حكم اختبرت عدالة التوزيع، ونزاهة الوسيلة، ومشروعية القوّة. يركّز الفصل على ثلات دوائر:

- (١) السيرة المشرقة ومفاصلها من المولد إلى المرافقة والغار؛
- (٢) المحطّات الحاسمة في بدر وأحد والخندق بوصفها دروسًا في الانضباط والاقتدار؛ (٣) الخلافة ومبادئ الحكم والصراعات الثلاث (الناكثون، والقاسطون، والمارقون) بما تكشفه من تمایز بين منطق الدولة الخلقيّة ومنطق الغلبة. بهذه الزاوية، يصبح علي عليه السلام ليس مجرد «شخص فريد»، بل ميزانًا تُوزَن به السياسة والعدالة معاً.

المبحث الأول: السيرة المشرقة

أولاً: ملخص سيرة الإمام علي عليه السلام وحياته:
يُعدُّ أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أول الأئمّة. ولد داخل جدار الكعبة المشرفة في مكة المكرّمة في الثالث عشر من شهر

رجب، بعد حادثة الفيل بثلاثين عاماً. وكانت ولادته معجزة؛ إذ دخلت به أمُه (فاطمة بنت أسد) إلى البيت الحرام حيث مكثت ثلاثة أيام.

استشهد عليه السلام في ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ٤٠ للهجرة، عن عمر ناهز الثالثة والستين، إثر طعنة غادرة تلقاها من (عبد الرحمن بن ملجم) أثناء أدائه صلاة الفجر في مسجد الكوفة؛ ودفن في النجف الأشرف الذي أصبح مقاماً ومزاراً.

امتدَّت إمامَة أمير المؤمنين عليه السلام بعد الرسول الكريم صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمدَّة تقارب التسعة والعشرين عاماً، من سنة ١١ للهجرة حتى سنة ٤٠ للهجرة. وقد عُرِفَ بعدَة ألقاب تدلُّ على مكانته السامية، مثل: سيد الأولياء، والصديق الأكبر، والفاروق الأعظم، وقسيم الجنة والنار، وأشهرها أمير المؤمنين. وكنيته أبو الحسن.

نشأ الإمام علي عليه السلام في كنف الرسول الكريم صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتربَّى على يديه منذ نعومة أظفاره، وكان رفيق دربه في كل مسيرة وطيلة فترة الرسالة.. حكم بصفته خليفة للمسلمين قرابة خمس سنوات، ثم أوصى بالخلافة من بعده لابنه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام^(١).

كان للإمام علي عليه السلام عدد من الأولاد، من الذكور والإإناث، ومن

١ - راجع: محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٢٩٢.

أبرزهم من السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام: الإمام الحسن، الإمام الحسين، السيدة زينب الكبرى، والسيدة أم كلثوم (زينب الصغرى)^(١).

اهتمَ الإمام علي عليه السلام بتكوين مجموعة مخلصة من أصحاب المبادئ والأفياء وتوجيهها، ومن أبرز تلامذته وأنصاره: (الأصيغ بن نباتة)، و(أويس القرني)، و(الحارث الهمданى)، و(حجر بن عدي)، و(رشيد الهجري)، و(زيد بن صوحان)، و(سليمان بن صرد الخزاعي)، و(سهل بن حنيف)، و(عبد الله بن عباس)، و(عمرو بن الحمق الخزاعي)، مضافاً إلى عدد من الشخصيات البارزة الأخرى^(٢).

ثانياً: ميلاد الإمام علي عليه السلام ونشأته:

ولد الإمام علي عليه السلام بعد رسول الله صلوات الله عليه وسلم بثلاثين عاماً، فكان عمره عشر سنوات عندبعثة النبيّة. وقد تشكّلت شخصيّته وتربيّة روحية ومعنىّة في تلك المرحلة الحساسة تحت رعاية الرسول صلوات الله عليه وسلم في بيته، بعد أن تعرّضت قريش لازمة اقتصاديّة شديدة، وكان (أبو

١ - الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ج ١، ص ٣٥٤.

٢ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ٥٥.

طالب) يعاني من كثرة العيال، ما دفع بأبنائه إلى التفرق بين إخوته. لكنَّ رسول الله ﷺ اختار علياً خصيصةً ليكفله ويضمّه إليه. فبقي ملازمًا له في بيته إلى أنْ بُعْثَ النَّبِيِّ ﷺ بالرسالة، فكان أول من آمن به وصدقه^(١).

ولمّا أشار رسول الله ﷺ إلى أنَّ الله -تعالى- اصطفاه بكفالة على علي^(٢)، فقد أوضح الإمام علي^(٣) في الخطبة القاصعة طبيعة هذه الرعاية قائلاً: «وقد علمتم مكانتي من رسول الله ﷺ بصلة القرابة والمكانة المميزة. فقد ربّاني في حجره وأنا صغير، كان يحضّني إلى صدره، ويؤويوني في فراشه، ويقرّبني من جسده لأنّم عرفه. وكان يُمضغ لي الطعام ثمَّ يطعمينيه... وكنت ألازمه التزام الفضيل بأمّه، يطلعني كل يوم على خلق من أخلاقه، ويأمرني أن أقتدي به»^(٤).

١ - راجع: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٥٨؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٦٢؛ محمد بن جرير الطبرى: تاريخ الرسل والملوك: ج ٢، ص ٢١٣.

٢ - أبو الفرج الأصفهانى: مقاتل الطالبين، ص ١٥.

٣ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٥٧.

ثالثاً: مراقبة الإمام علي عليه السلام للرسول في غار حراء^(١):
 قبلبعثة، كان رسول الله عليه صلواته يعتكف للعبادة في غار حراء كلّ عام لمدة شهر^(٢). وتذكر الروايات أنَّه كان يصطحب الإمام علي عليه السلام معه إلى الغار في بعض الأوقات. وهناك، كان الإمام علي عليه السلام يرى علامات النبوة وأثارها. وقد رُوي عنه قوله: «ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري...»، ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه عليه صلواته، فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلا إنك لست بنبيٍ ولكنك لوزير، وإنك على خير»^(٣).

المبحث الثاني: محطّات رئيسة في حياة الإمام علي عليه السلام في الإسلام

أولاً: الفترة المكية (منبعثة النبي إلى الهجرة):
 امتدَّت هذه المرحلة ثلاثة عشر عاماً، وتميزت بإسهامات الإمام علي عليه السلام الجليلة ودوره المحوري في دعم الرسالة الإسلامية ونشرها.

١ - حراء جبل يقع في شمال مكة، وغار حراء يقع في قمته.

٢ - ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٥٢.

٣ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢.

١ - السَّبُقُ إِلَى الْإِسْلَامِ:

تمثل أول إنجازات الإمام علي عليه السلام في كونه أول من آمن برسالة النبي محمد عليهما السلام، وذلك نظراً لبقاء سريرته وطهارة قلبه ونفوره من عبادة الأصنام؛ حيث كان موحداً قبلبعثة^(١). وقد شهد له رسول الله عليه السلام بهذه الفضيلة حين قال: «أولكم وروداً على الحوض، أولكم إسلاماً على بن أبي طالب»^(٢). ويقول الإمام علي عليه السلام: «ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة»^(٣).

٢ - الدَّعْمُ وَالنَّصْرَةُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

رافق الإمام علي عليه السلام ابن عمّه رسول الله عليه السلام منذ نعومة أظفاره، وتعمق هذا الارتباط بعد ظهور الإسلام. ففي سنوات الدعوة السرية، تولى الإمام علي مهمّة الدعوة إلى الإيمان بالرسول عليهما السلام والذود عنه ضدّ المعارضين طيلة ثلاثة سنوات. وعندما أمر الله نبيه بدعاوة عشيرته

١ - الموفق الخوارزمي: المناقب، ص ١٨.

٢ - راجع: يوسف بن عبد الله: الاستيعاب، ج ٣، ص ٢٨؛ الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ١٧.

٣ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢، ج ٢، ص ١٥٧.

الأقربين، أوكل النبي ﷺ إلى الإمام علي عليه السلام وهو في نحو الرابعة عشرة من عمره^(١) - أن يدعو وجوه بنى هاشم إلى وليمة؛ وبعد حضورهم في الموعد المحدد وتناول طعامهم، افتتح النبي ﷺ كلمته قائلاً: «إني والله ما أعلم أن شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيّسكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفي فيكم؟» فلم يجده أحد، فنهض الإمام علي عليه السلام، لكنَّ رسول الله ﷺ كرر ذلك ثلاثاً ليلقى الحجَّة على القوم، وكان يقوم على علي عليه السلام مجيئاً، فقام رسول الله، فضرب بيده على يد علي عليه السلام، وقال في حقه وبحضور وجهاء بنى هاشم المقولة الشهيرة: «هذا على أخي ووصيي وخليفي فيكم»^(٢).

٣ - فداءُ النبي ﷺ وليلة المبيت:

عندما أجمع زعماء قريش على قتل النبي ﷺ بمشاركة شاب من

١ - راجع: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ج ١٣، ص ٢٣٤-٢٣٥.

٢ - راجع: محمد بن جرير الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٢١٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٦٣؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٣، ص ٢١١.

كل قبيلة لتتوزع المسؤولية - وأوحى إلى النبي ﷺ بالمؤامرة^(١) وأمره بالهجرة- اختار النبي ﷺ علياً عليه السلام ليكون في فراشه ليلة خروجه، متلفعاً ببردته؛ ليوهم المشركين بأنه لا يزال نائماً في بيته. وقد قال الرسول يومها لعلي: «امض إلى فراشي ونم في مضجعي والتف في بريدي الحضرمي ليروا أني لم أخرج».. فأطاع علياً عليه السلام.. وفعلاً، حاصر مجندو قريش البيت، وهجموا عليه، ليفاجأوا بعلي عليه السلام في الفراش^(٢).

ثانياً: من هجرة الرسول ﷺ إلى وفاته:

١ - على عليه السلام أخو رسول الله:

عندما استقرَّ النبي ﷺ في المدينة المنورة، عقد ميثاق الأخوة بين المهاجرين والأنصار، فصار كل مسلم له أخ. وبعد أن نال جميع المسلمين أخاً لهم، بقي على عليه السلام وحيداً، فتووجه إلى رسول الله ﷺ بعينين تفيضان بالدموع قائلاً: «ما آخيت بيني وبين أحد»، فرد عليه

١ - جاء ذلك في قوله تعالى: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» [الأفال: ٣٠].

٢ - راجع: ابن هشام: سيرة النبوة، ج ٢، ص ١٢٤-١٢٨؛ الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ٤.

النبي ﷺ قائلًا: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»، ثم عقد أخوته الخاصة به عليهما السلام مع علي عليهما السلام^(١).

٢ - جهاد الإمام علي عليهما السلام:

اشترك الإمام علي عليهما السلام في كل غزوات النبي عليهما السلام باستثناء غزوة تبوك، وذلك بسبب الأجواء المتورّة والمؤامرات التي كان يدبرها المنافقون أثناء غياب الرسول عن عاصمة الدولة الإسلامية؛ حيث بقي في المدينة بأمر منه عليهما السلام. وفي ما يأتي نسلط الضوء على دور الإمام علي عليه السلام) في ثلات محطّات جهادية:

المحطة الأولى: في غزوة بدر:

علم رسول الله عليهما السلام بمرور قافلة تجارية لقريش بقيادة (أبي سفيان) قرب المدينة قادمة من الشام متوجهة إلى مكة، فخرج رسول الله مع أصحابه من المهاجرين والأنصار لملاقتها عند بدر.

استغاث (أبو سفيان) فقررت قريش خوض الحرب، وتحركت جيوشها نحو المدينة. وانتهت المعركة بهزيمة نكراء للمشركين؛ حيث

١ - يوسف بن عبد الله: الاستيعاب، ج ٣، ص ٣٥.

أُسر منهم سبعون، وقد أسرهم سيف على عليه السلام في قتل أكثر من نصف قتلى المشركين. وقد أحصى (الشيخ المفید) (رحمه الله) ثلاثة وثلاثين مشركاً من قتلى بدر قتلهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مباشرة، مشيراً إلى أنه: «قد أثبتت رواة العامة والخاصة معًا أسماء الذين تولى أمير المؤمنين قتلهم ب الدر من المشركين سوى من اختلف فيه وأشركه فيه غيره»^(١).

المحطة الثانية: في غزوة أحد

بعد الهزيمة التي مُنيت بها قريش في غزوة بدر، عقدت العزم على الهجوم على المدينة انتقاماً وتعويضاً عن خسارتها. وعلم رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتحركاتهم، فقرر بعد مشورة أصحابه مواجهتهم عند سفح جبل أحد.

وزع النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطَّة الدفاع؛ حيث وضع خمسين راميًّا من الرماة على مُرتفع استراتيجيٍّ وأمرهم بعدم مغادرته مهما كانت النتيجة. بدأت المعركة وانقلب موازينها إلى صالح المسلمين، حتى بدأ جيش قريش في التقهقر والفرار. لكنَّ تهاون بعض الرماة ونزو لهم لجمع الغنائم

مخالفين الأوامر، سمح للمشركين بالاتفاق ومحاصرة المسلمين من الخلف، فحدثت الهزيمة وفرّ كثير من المسلمين، واستُشهد قرابة سبعين من الصحابة.

اشتدَّت المعركة ولم يثبت في ساحتها إلا رسول الله ﷺ والإمام عليّ عليهما السلام وبعض من عاد بعد فراره. ولمّا أبصر النبي ﷺ جماعة من المشركين، أمر عليّاً عليهما السلام أن يحمل عليهم، ففرق صفوهم وقتل من فيها. ثمَّ كرَّر ذلك مع جماعة أخرى، فكان له النصر. عندها نزل جبرائيل عليه السلام وقال: «يا رسول الله، هذه هي الموساة»!، فردَّ النبي ﷺ: «إنه مني وأنا منه»، فقال جبرائيل: «وأنا منكما، قال فسمعوا صوتاً يقول: «لا فتى إلا عليّ، ولا سيف إلا ذو الفقار»»^(١).

المحطة الثالثة: غزو الأحزاب (الخندق)

حين بلغ النبي ﷺ تحرك جيش قريش والقبائل المتحالفة معها نحو المدينة، عقد مجلساً استشارياً عسكرياً. فاقترح (سلمان الفارسي) رضي الله عنه حفر خندق يحمي المدينة من الجهة المكسوفة، وهو أسلوب دفاعي جديد على العرب، فقبل النبي ﷺ بالمشروع ونجح المسلمين في تفديه.

١ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٥٤.

وعند وصول جيش الأحزاب، تفاجأوا بالخندق الذي حاصرهم بدورهم، فاضطروا إلى حصار المدينة من خارجه. وحاول عدد من فرسان المشركين اخترافه، وكان أبرزهم الفارس المخيف (عمرو بن عبد ود)، الذي عبر بفرسه عند نقطة ضيقة وتحدى المسلمين للمبارزة، وهو يستهزئ بعقيدتهم قائلاً: «أين جناتكم التي تعدون؟ ألا من يبارز؟».. كان الإمام علي عليه السلام هو الوحيد الذي نهض ليستأذن النبي عليه السلام في كل مرّة، وكان النبي عليه السلام يمسك عنه في البداية. وعندما تكرر التحدّي واستأذن علي عليه السلام للمرّة الثالثة، قال النبي عليه السلام: «إنّه عمرو»، فردّ علي عليه السلام بثبات: «وأنا على»^(١). فلما أذن له، ألبسه النبي عليه السلام عمانته وأعطاه سيفه، وقال عليه السلام وهو يرى علياً عليه السلام يتقدّم: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»^(٢).

تقدّم علي عليه السلام نحو (عمرو) ودعاه أوّلاً إلى الإسلام، ثمّ عرض عليه أن يعود من حيث أتى دون قتال، فرفض (عمرو) متكبراً. فالتحم الطرفان في قتال شديد، تلقى خلاله علي عليه السلام ضربة على رأسه الشريف شُق فيها الترس، لكنه استطاع أن يوجّه ضربته القاضية التي أرداه

١ - ابن أبي الحميد: شرح نهج البلاغة، ج ١٣، ص ٢٨٤.

٢ - الشيخ محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢١٥.

(عمرًا) قتيلاً. ارتفعت أصوات التكبير من معسكر المسلمين ابتهاجاً بالنصر^(١)، وقال رسول الله ﷺ في حق علي عليهما السلام يومها: «ضربة على يوم الخندق أفضل من عبادة التقلين»^(٢).. وفي رواية أخرى: «لو وزن اليوم عملك بعمل جميع أمة محمد، لرجح عملك على عملهم، وذاك أنه لم يبق بيت من المشركين إلا وقد دخله ذل بقتل عمرو ولم يبق بيت من المسلمين إلا وقد دخله عز بقتل عمرو»^(٣).

المبحث الثالث: وفاة الرسول ﷺ ومسألة الخلافة

كان الإمام علي عليهما السلام هو الشخصية الإسلامية الأولى بعد رسول الله ﷺ في مكانته العلمية وفضائله الحُلْقَيَّة وجهاده في سبيل الله، وقد نصبه النبي ﷺ صراحةً في مناسبات عدّة، أبرزها وأهمّها واقعة أو

١ - راجع: محمد بن عمر الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٤٧١ .. وقد ذكرت أحاديث قتال علي عليهما السلام المصيرية مع (عمرو بن عبد ود) في تصانيف ومصادر كثيرة.. نذكر منها الآتي- مضافاً إلى ما سبق- مع اختلاف يسير: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٨١؛ الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ص ٥٤؛ ابن أبي الحميد: شرح نهج البلاغة، ج ١٩، ص ٦٢-٦٤.

٢ - ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ٢٣٦.

٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢١٦.

حادثة الغدير، ليكون ولِيًّا للمؤمنين وخليفةً من بعده.

وعلى الرغم من ذلك، لم يتمكَّن الإمام عليٌّ عليه السلام من توليٍّ منصب القيادة الفعلية للأمة بعد رحيل النبي صلوات الله عليه وسلم؛ حيث أُبعد عن مركز صنع القرار وعن الساحة السياسية، ما شكَّلَ منعطافاً حاسماً في مسار الخلافة الإسلامية.

وقد أوضح الإمام عليه السلام في أكثر من موقف أنَّ صبره على هذا الأمر كان بداع الحفاظ على كيان الإسلام ووحدته، ومن ذلك قوله في بداية خلافة عثمان بن عفَّان: «لقد علمتُ أنِّي أحق الناس بها من غيري، ووالله لأسلمَنَّ ما سلمتُ أمور المسلمين، ولم يكن فيها جورٌ إلَّا على خاصَّة»^(١).

كما يصوَّرُ أميرُ المؤمنين الإمام عليه السلام في خطبة الشقشقة المشهورة الحالة التي مرَّ بها والمأزق الصعب الذي وضعه فيه الانحراف عن تنفيذ أمر الرسول والرسالة بالخلافة الشرعية، فيقولُ: «فَسَدَّلْتُ دُونَهَا ثُوبًا، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا، وَطَفَقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيدِ جَذَّاء، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَّةِ عَمِيَّاء، يَهْرُمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدُحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ». فرأَيْتُ أَنَّ الصَّبَرَ عَلَى

١ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٦، ص ١٦٦.

هَاتَأْ حَجَّيِ، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَدَّى، وَفِي الْحَلْقِ شَجَّا، أَرَى تُرَاثِي
نَهْبًا»^(١).

المبحث الرابع: دور الإمام علي عليه السلام في عهد الخلفاء

تركّز نشاطات الإمام علي على كثير من المحاور، كان من أهمّها قيامه بالردّ على الشبهات والاستفسارات العلميّة خلال فترة حكم الخلفاء الثلاثة؛ حيث كان الإمام علي عليه السلام هو الملجأ الأوّل والأخير للجواب عن أسئلة علماء الأديان الأخرى وإشكاليّاتهم ومختلف شبهاتهم، خصوصاً اليهود والنصارى، ومن كانوا يأتون ويفدون إلى المدينة المنورة للتحقّق من تعاليم الدين الإسلامي بعد وفاة النبي الكريم عليه السلام. فقد كانت معرفة الإمام علي عليه السلام العميقه بالتوراة والإنجيل واضحة وجليّة في حواراته معهم.. ولولا تدخله الحكيم لملء هذا الفراغ العلمي لتعريض المجتمع الإسلامي الناشئ لانتكاسة فكريّة كبيرة في مواجهة تحديات الآخرين.. وكانت واجهة القيادة الحاكمة أيضاً مأزقاً كبيراً في كثير من القضايا السياسيّة أو المشكلات الاجتماعيّة المستعصية.

١ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ١٥٥.

لقد كان الإمام علي بن أبي طالب هو المستشار الوحيد والمرجع المعتمد لحل تلك المعضلات بحكمة و موضوعية . وهذا ما شهدت به الواقع التاريخية ؛ حيث إنَّ (أبا بكر) و(عمر) كانوا يرجعان إليه في كثير من الشؤون والأمور السياسية والدينية ، وتفسير القرآن والأحكام الشرعية طيلة فترة خلافتهما .

مثال تاريخي : في السنة الرابعة عشرة للهجرة ، وقعت معركة حاسمة بين جيش المسلمين والجيش الفارسي في القادسية ، انتهت بانتصار المسلمين ومقتل القائد العام للفرس (رستم فرخ زاد) مع عدد كبير من جنوده ، ما أدى إلى انضمام العراق بالكامل إلى الدولة الإسلامية ، وسقوط العاصمة الفارسية المدائن .. وتحسباً لتقدم الجيش الإسلامي داخل الأراضي الفارسية ، حشد (يزدجرد) ملك فارس جيشاً ضخماً قوامه مئة وخمسون ألف مقاتل بقيادة (فiroزان) لصد أي هجوم محتمل . عندها ، كتب القائد الإسلامي (سعد بن أبي وقاص) إلى الخليفة (عمر) يخبره بحشود العدو و يقترح مباغتهم بالهجوم لاستباب الخطر .

دخل الخليفة (عمر) المسجد وجمع كبار الصحابة ، وعرض عليهم نيته مغادرة المدينة والتوجه إلى موقع بين البصرة والكوفة . بعد مداولات مطولة ، تكلَّم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قائلاً : «إنَّ

نصر هذا الأمر أو هزيمته لا يتوقف على الكثرة أو القلة، فهو دين الله الذي أظهره، وجنته الذي أعدّه وأيده حتى بلغ ما بلغ. ونحن على عهد من الله، والله منجز وعده وناصر جنده. ومكان القائد بالآمة كالنظام في العقد؛ يجمعه ويضمّه، فإذا انقطع النظام تفرّق الخرز وضاع، ولن يعود مجتمعاً كما كان أبداً. والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً، لكنَّ الإسلام جعلهم كثيرين، والمجتمع جعلهم أعزاء. فكن أنت المحور، وادر رحى المعركة بالعرب، واجعلهم أساساً لدعمك في الحرب، فإنَّك إنْ غادرت هذه الأرض، ستنتقضّ عليك العرب من كل صوب، حتى يصير ما خلفته من الثغرات أشدّ خطراً مماً أمّاك.»..«إنَّ العجم (غير العرب) إذا رأوك غداً قالوا: هذا أصل العرب، فإذا استأصلتموه استرتحتم. وهذا سيزيد من حقدكم عليك وطمعهم فيك.

أمّا ما ذكرته من تقدّم القوم لقتال المسلمين، فإنَّ الله سبحانه أكره لمسييرهم منك، وهو أقدر على تبديل ما لا يرضيه. وأمّا ما ذكرته من كثرتهم، فإنَّ لم نكن نقاتل في الماضي بالعدد، وإنَّما كنا نقاتل بالنصر والمعونة من الله»^(١).

١ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٠

فاستمع (عمر) إلى كلام الإمام وقبل رأيه، ولم يغادر المدينة^(١). ونظرًا لحكمة هذا الحل الذي قدّمه الإمام علي^(عليه السلام)، قال (عمر) معبرًا عن اعتماده عليه: «أعوذ بالله من معضلة لا يكون لها أبو الحسن^(عليه السلام)»^(٢).

المبحث الخامس: من الخلافة إلى الاستشهاد

بعد مضي فترة وجيزة على تولّي الخليفة (عثمان بن عفان)، شهدت دولته ثورة شعبية استمرّت حتى انتهت بمقتله، بعد خلافة دامت قرابة أثني عشر عاماً. عاش الناس خلال تلك الفترة في حالة من الاضطراب والفراغ، وفي خضمّها لجأ الثوار إلى الإمام علي^(عليه السلام) طالبين منه تولّي الأمر، لكنه كان يعتزلهم غالباً؛ إذ كان يرى أنَّ الظروف غير مناسبة لتقبّل الخلافة، وأنَّ الحجّة لم تكتمل لديه لقبول هذا المقترح، قائلاً لهم: «دعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا ثبت عليه العقول، وإنَّ الآفاق قد أغامت والحجّة

١ - راجع: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٨؛ محمد بن جرير الطبرى: تاريخ الأمم والملوک، ج ٤، ص ٢٧٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٠٧ .
 ٢ - راجع لمزيد من الاطلاع: ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٢، ص ٥٠٩.

قد تنكّرت، واعلموا أنّي وإن أجبتكم ركبتم بكم ما أعلم، ولم أصح إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتمه أمركم، وأنا لكم وزيرًا خيرًا لكم مني أميرًا^(١). ولكن مع تزايد أعداد الوافدين عليه وازدحام داره بهم وإلحاحهم المتزايد، شعر الإمام علي عليه السلام بتقليل المسؤولية، وبالتالي لم يجد مفرًا من قبول البيعة.. وقد أوضح في خطبة أخرى أسباب قبوله للخلافة، متحدثًا عن حماسة الناس، وسرورهم بذلك في البداية، قائلاً: «..فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلى ينثالون على من كل جانب حتى لقد وطئ الحسنان^(٢)، وشق عطفاً مجتمعين حولي كريضية الغنم، فلما نهضت بالأمر نكث طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا كلام الله سبحانه يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]. بل والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حلّيت الدنيا في أعينهم وراقبهم زيرجها، أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو لا حضور الحاضر

١ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ١٨١، الخطبة ٩٢.

٢ - نص كلام الإمام هو (وطئ الحسنان) الذي قد يعني: الحسن والحسين، ولكن قد فسر البعض الحسن بالابهام. (راجع: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٠٠).

وقيام الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كفالة ظالم ولا سغب مظلوم، لأنّقيت حبلها على غاربها ولسقين آخرها بكأس أولها، ولألفيت دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عز». ^(١).

المبحث السادس: مبادئ حكم الإمام علي

واجهت خلافة الإمام علي تحديات عملية جسيمة، لكنّها تمكّنت من تقديم نموذج متّميّز للحكم الإسلامي القائم على الأسس والمبادئ السامية، والتي يمكن عرض أبرزها في ما يأتي:

١. العدالة الاجتماعية هدف أساس: حدد الإمام الهدف

الجوهرى من قبّوله مقاييد الحكم في إقامة العدل المجتمعي الشامل، خاصة على الصعيد الاقتصادي، وضمان توزيع عادل للثروات والموارد العامة، ومحاربة أشكال التفاوت الطبقي الفاحش.

٢. الحكم وسيلة للخدمة لا للغنيمة: ارتكزت رؤيته

في كون المنصب الحكومي أداة لخدمة الناس ونصرة

١ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٠٢.

الفصل الثاني - المبحث السادس ١١٣

الحق ومحاربة الباطل، وليس وسيلة للكسب أو الامتياز الشخصي. وترجم هذا المبدأ عملياً بتجنبه تولية المناصب الحساسة - كالولاية وإدارة بيت المال- لأصحاب التزعات الماديه والطامعين في السلطة.

٣. الزهد ونمط الحياة البسيط: اتسمت حياة الإمام علي عليهما الشخصية خلال فترة حكمه بالزهد والبساطة، كما حرص على توجيه عماله وولاته إلى الاعتدال في العيش والابتعاد عن مظاهر الترف والبذخ، ما يشكّل سمة بارزة في سيرته وإدارته.

٤. معايير الكفاءة والتقوى في التعيين: اعتمد علي عليهما في اختيار ولاته ومعاونيه على معايير موضوعية ترتكز إلى: السابقة في الإسلام، والتقوى، والكفاءة الإدارية، والالتزام بالقيم، دون أي اعتبار للقرابة أو الانتماء القبلي. وقد تجلّى ذلك بشكل كاملوضوح في قائمة ولادة الأقاليم ٥١ الذين عينهم، والتي ضممت تنوعاً من المهاجرين والأنصار، ومن مختلف المناطق والأعمار، دون أن تشمل أبناءه المباشرين أو أقرباءه المقربين. كما أنه، رغم حرصه على اختيار الكفوئين، كان يراقب طريقة عملهم وأداءهم عن كثب، كما في رسالته المشهورة إلى عامله على البصرة (عثمان بن حنيف الانصاري)

حين بلغه مشاركته في وليمة تثير الشبهات^(١).

٥. وسائل مشروعة لغايات نبيلة: خلافاً لنهج كثير من القادة، رفض الإمام علي^{عليه السلام} أن يقيم حكمه وأساس دولته على مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»، ولم يلجأ أبداً إلى أساليب غير مشروعة لتحقيق أهدافه التي هي أهداف الرسالة الإسلامية، وهو ما ظهر بوضوح في ردّه على من عاتبه على مساواته في العطاء بين الناس، قائلًا: «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن ولّيت عليه؟، والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أمّ نجم في السماء نجماً، ولو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله؟»^(٢).

المبحث السابع: الصراعات في عهد الإمام علي^{عليه السلام} (حروب على ثلاث جهات)

أدَّت سياسة الإمام علي^{عليه السلام}- القائمة على العدل والكرامة، وإحياء

١ - راجع: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٣٢ ، الكتاب ٤٥.

٢ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٣٤٨، خ ١٢٦.

القيمة الإسلامية- إلى استقطاب معارضة عنيفة، تجسدت عملياً وميدانياً في ثلات حروب كبرى:

■ حرب الناكثين (معركة الجمل): نشبت بسبب نقض (طلحة) و(الزبير) للبيعة، بعد أن رفض علي^{عليه السلام} منحهما ولالية البصرة والكوفة، فسارا بجيشٍ إلى البصرة، واستوليا عليها بتمويل من أموال مختلسة. دفع هذا الأمر الإمام علي^{عليه السلام} إلى التوجّه لمواجهة هم، وانتصر عليهم في معركة الجمل سنة ٣٦ هـ.

■ حرب القاسطين (معركة صفين): جاءت نتيجة رفضِ (معاوية بن أبي سفيان) لأمر الإمام علي^{عليه السلام} بعزله عن ولية الشام. وعندما اشتبك الجيشان في صفين، كان النصر حليفاً لجيش الإمام علي^{عليه السلام} لو لا خديعة رفع المصاحف المعروفة التي أوقفت القتال، وأجبت الإمام على الموافقة واللجوء إلى «خدعة» التحكيم! وانتهت هذه الخديعة بمكر (عمرو بن العاص) بـ (أبي موسى الأشعري)، ما أدى إلى انشقاق داخل صفوف أنصار الإمام علي^{عليه السلام}، وانتقادهم له على قبول التحكيم، ووقعت هذه الأحداث في السنة السابعة والثلاثين للهجرة.

■ حرب المارقين (معركة النهرawan): وهي اندلعت بفعل

جماعة (الخوارج) الذين هم من طالبوا بالتحكيم أولاً، ثم نكثوا وطالبو الإمام علي بن أبي طالب بنقض الاتفاق، وعندما رفض لالتزامه بالعهد، خرجوا عليه، وحاربوه في النهرawan، فهزّهم، وذلك سنة ٣٨ أو ٣٩ هـ، تاركين وراءهم بذور حقد استمرّت بعد ذلك.

الفصل الثالث:

السيدة فاطمة بنت محمد (عليها السلام)

يقدّم هذا الفصل الزهراء عليها نموذجاً مكتملاً لاجتمع العبادة والرحمة والمسؤولية العامة. تُقرأ سيرتها بوصفها «دليلًا تطبيقياً» لقيمها، أبرز معالمها: عبادة تُهذّب الوجدان، وتكافلٌ يوسع دائرة «الجار ثم الدار»، وشراكة نبوية-علوية تؤسس لبيتٍ هو مركزُ الإمامة والتربية. يتناول الفصل ثلاثة محاور:

(١) لمحات السيرة والفضائل بما هي معايير للسلوك لا مناقب سردية؛ (٢) موقعها في المباهلة شاهداً على الاصطفاء ودلالة على حجّية البيت النبوى في الجدل العقدي؛ (٣) مواقفها بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ - من خطاب الاحتجاج إلى قضيّة فدك—باعتبارها دفاعاً مبدئياً عن وصيّة القيادة ومعنى العدل في إدارة المال العام. بهذه القراءة، تخرج الزهراء عليها من حقل التمجيل المجرّد إلى مساحة الفاعلية: مثالٌ يُهتدى به في العبادة، وفي بناء الأسرة، وفي صون معيار الحق حين تشوّش السياسة.

المبحث الأول: سيرة السيدة الزهراء.. نورٌ يقتدى به

أولاً: نبذة عن حياتها:
ولدت سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها - كما هو المشهور - بعد بعثة

النبي ﷺ بخمس سنوات، في العشرين من جمادى الآخرة بمكة المكرمة. نشأت في أحضان أبوين عظيمين هما: رسول الله ﷺ والسيّدة خديجة بنت خويلد ؓ. قضت خمس سنوات تحت رعاية أمّها، إلى أن تُوفيت السيّدة خديجة في السنة العاشرة للبعثة. وتُوفيت السيدة الزهراء ؓ في الثالث من جمادى الآخرة أو الثالث عشر منه. ومن أبرز ألقابها: الزهراء، وسيّدة نساء العالمين، والمحدثة، والبتول، والصدقة، وكنيتها الأشهر أمُّ الحسينين. وقد تولى أمير المؤمنين ؓ دفنهما ليلاً بإجراءات سرية، ما جعل موقع قبرها مجهولاً حتى يومنا هذا.

ثانيًا: لمحات من مناقبها وفضائلها:

تميّزت حياة السيدة الزهراء ؓ بالعبادة والاجتهاد فيها إلى حد فاقت به كل أمّة زمانها في العبادة، حتى إنّها كانت تقف في محرابها للصلوة حتى تنفتح قدماها وتتوّرمان^(١).

وكان نور عبادتها يضيء لأهل السموات، وقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «وَأَمَّا ابْنَتِي فَاطِمَةُ فَإِنَّهَا سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ،

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٧٦.

وهي بضعة مني وهي نور عيني وهي ثمرة فؤادي، وهي روحني التي بين جنبيّ، وهي الحوراء الإنسنية، متى قامت في محاربها بين يدي ربّها (جلّ جلاله) زَهَرَ نورها لملائكة السماء كما يزهُر نور الكواكب لأهل الأرض، ويقول الله (عزّ وجلّ) لملائكته: يا ملائكتي انظروا إلى أمتي فاطمة، سيدة إمائي قائمة بين يديّ ترتعد فرائصها من خيفتي، وقد أقبلت بقلبها على عبادتي...»^(١).

كما جسّدت عليها أروع صور التكافل والرحمة الاجتماعية، فكانت عندما تدعوه في محاربها، تخصّ جيرانها والمؤمنين جمیعاً بالدعاء، وتكثر من ذلك، ولا تدعو لنفسها.. وهذا ما يحدّثنا عنه الإمام الحسين عليه السلام عن أخيه الإمام الحسن عليه السلام قال: «رأيت أمي فاطمة قامت في محاربها ليلة جمعتها فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتّضح عمود الصبح، وسمعتها تدعوا للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم، وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أمّاه لم لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت: يا بُني! الجار ثم الدار»^(٢).

١ - شاذان بن جبرائيل القمي: الفضائل، ص ٩.

٢ - محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): علل الشرائع، ج ١، ص ١٨٢.

المبحث الثاني: دورها العظيم في ظلّ الإسلام

أولاً: نشأتها في مكة:

ترعرعت السيدة فاطمة في بيت النبوة الذي كان منارة للعرفة والطهارة، فتشبّعت بمكارم الأخلاق من أبيها النبي ﷺ وأمّها خديجة عليها السلام، لتصبح النموذج الأمثل للمرأة المسلمة التي تستطيع أن تبني كياناً أُسريّاً قائماً على تعاليم الإسلام وقيمه.

وعاصرت عليها في مكة المراحل الأولى للدعوة النبوية وشهدت الصعوبات الجسمانية واجهتها، فكانت سنداً وعوناً لأبيها في تحمل تلك المصاعب، بل كانت بمثابة الأم الحنون له، حتى منحها وسام "أم أيها" (قوله لها: فاطمة أم أيها^(١)) تكريماً لعظمتها ولعظمة الدور الذي قامت به.

ثانياً: هجرتها إلى المدينة:

هاجرت السيدة الزهراء عليها السلام إلى المدينة المنورة برفقة مجموعة من النساء (الفواطم) والإمام علي عليه السلام، حيث نزلوا في قباء ثم استقرُوا في

١ - سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢٢، ص ٣٩٧.

يُثرب (المدينة المنورة).

وبعد تأسيس الدولة الإسلامية، كانت شريكة فاعلة في بنائها، مساندةً لأبيها النبي ﷺ في كل المجالات. كما شهدت ظهور ظاهرة النفاق ومقاومة أعداء الإسلام من الداخل، ما أثرَ على المسيرة السياسية للإسلام.

ثالثاً: زواجه المبارك وحياتها الأسرية:

بعد أن بلغت سنَّ الزواج، تقدَّم لها عدد من الخطاب، لكنَّ النبي ﷺ كان يُؤجل الرد حتَّى جاء الأمر الإلهي بتزويجها من الإمام علي عليهما السلام، فجرى الزواج المبارك الذي جمع النور بالنور.

أسَّست السيدة فاطمة عليها السلام مع الإمام علي عليهما السلام بيتاً كان مثالاً للإيمان والتقوى والصفاء، وهو البيت الذي احتضن فرع النبوة وموضع الإمامة؛ حيث ولد وتربى فيه الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام. واستمرَّت حياتها مطبوعة بالهناء والطهر حتى وفاة أبيها عليهما السلام، فتحولت بعدها إلى حياة مليئة بالحزن والألم نتيجة ما تعرَّضت له من إساءات وألام، حتى انتقلت إلى الرفيق الأعلى شهيدةً راضيةً مرضيةً^(١).

١ - ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص ١٢٤.

المبحث الثالث: مكانتها في حديث المباهلة

عندما نزلت آية المباهلة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلَ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحُقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَذِيَّسَاءَنَا وَذِيَّسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهُلْ فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٠]، دعا النبي ﷺ نصارى نجران إليها.

في اليوم المحدّد، خرج النبي ﷺ ومعه الإمام علي عليهما السلام (الذي يمثل نفسه)، والحسن والحسين (ابناء)، وفاطمة الزهراء (المرأة التي تمثل نساء المؤمنين). وعندما رأى أسقف نجران هذا المشهد العظيم -خروج النبي ﷺ بأقرب الناس وأعزّهم إليه وأثقاً بهـ. أدرك أنّ مباهلته تعني الهلاك، فأثر الصلح ودفع الجزية. فصالحهم النبي ﷺ على أن يدفعوا ألفي حلة سنويًا، وكتب لهم بذلك عهداً يؤمنهم ويضمن حقوقها. وأنخذ القوم الكتاب وانصرفوا^(١).

١ - الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ج ١، ص ١٦٩.

المبحث الرابع: السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أولاً: موقفها من قضية الخلافة:

بعد انتقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الرفيق الأعلى، ترك وصيّاً واضحاً ومعلوماً لأمته هو الإمام علي الله يحبه، حيث أكد على ذلك في عدد من مواقفه، وكان أبرزها حادثة الغدير في طريق عودته من حجة الوداع.

وقد عاشت السيدة الزهراء عليها السلام هذه الأزمة عن كثب، فوقفت إلى جانب زوجها الإمام علي الله يحبه ليس بداع العلاقة الزوجية والرابطة العائلية فحسب، بل انطلاقاً من إدراكتها العميق للمسؤولية الشرعية الملقة على عاتقها. ويمكن تلخيص محاور معارضتها ومطالبتها في النقاط الآتية:

- المطالبة العلنية والصريحة بالعمل بوصيّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبيعة الإمام علي الله يحبه.
- محاولة تحفيز المسلمين والأنصار خاصةً، واستشارة همّهم للطالبة بإرجاع الحق إلى صاحبه الشرعي. لكن محاولاتها لم تلق آذاناً صاغية.
- تحذير المسلمين من العواقب الوخيمة لقرارهم، وأنّ ما تمسّك به الإمام علي الله يحبه يمثل الحق المطلوب.

ثانيًا: قضية فدك:

أ-التعريف بأرض فدك:

فدك هي أرض زراعية شاسعة تقع قرب خيبر، على بعد يومين سيراً من المدينة المنورة (يشرب). وقد أصبحت ملكاً خالصاً لرسول الله ﷺ سنة سبع للهجرة عن طريق الصلح، دون قتال (أي لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب)، وذلك عندما صالحه يهود فدك على أن يتراكم لهم نصف ثمارها مقابل بقائهم. واستناداً إلى الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رَكَابٍ وَلَكُنَّ اللَّهُ يُسْلِطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦]، فإن هذه الأرض كانت من حقّ الرسول ﷺ يتصرف بها كما يشاء، ولم تكن من غنائم الحرب التي توزع على المقاتلين.

ب-ملكيّة فدك للزهراء عَلَيْهِ الْكَلَامُ:

لا خلاف بين المسلمين على أنَّ رسول الله ﷺ قد وهب فدك لابنته السيدة الزهراء عَلَيْهِ الْكَلَامُ هبة (نحلة)، خاصةً بعد نزول الآية الكريمة: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرْبَى فَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَمَا لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا

الله إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿الحشر: ٧﴾؛ حيث رأى عليهما في ذلك
تطييقاً لهذا النصّ. وقد ذكر المؤرخون والمحدثون أنَّ السيدة الزهراء
عليها السلام كانت تتولى إدارة فدك وتصرفاً في ريعها خلال حياة أبيها، كما
تؤكّد ذلك رسالة الإمام علي عليه السلام إلى عامله على البصرة (عثمان بن
حنيف) التي جاء فيها: "...بلى، كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلمته
السماء، فشحّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين،
ونعم الحكم الله...«^(١). وقد طالبت السيدة الزهراء عليهما السلام باستعادة حقّها
في فدك مراراً، وقدّمت شاهدين بما الإمام علي عليهما السلام وأمّ أيمان، لكن
ذلك لم يجد نفعاً.

١ - وهي من رسالة أمير المؤمنين الإمام علي عليهما السلام إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف. (راجع: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٦، ص ٢٠٨).

الفصل الرابع:

الإمام الحسن بن علي السليماني

يقدم هذا الفصل الإمام الحسن عليه السلام في لحظة اشتباك تاريخي بين معيار الرسالة ومنطق الدولة. لا يتعامل مع سيرته بوصفها أخباراً متفرقة، بل بوصفها بناءً متاماً: عبادةٌ ورُزْهُ ومرؤدةٌ تُترجم في السياسة إلى ضبط للمال العام، ومعيار للولاية، وحماية للجماعة من انهيار داخلي. يتبع النص شروط الصالح ومقدّماته كما رسمتها الواقع لا الانطباعات؛ ويقرأ المعاهدة بما هي تدبيرٌ شرعيٌ لحفظ أصل الإمامة وإبطال شرعية الغلبة. هنا يصبح الحسن عليه السلام واضعاً قاعدة الحكم العادل: سلطنة مقيّدة بالكتاب والسنّة، ومسؤوليةٌ خُلُقيةٌ لا تسمح بتحويل الأمة إلى وقود لصراعٍ أهليٍ. يوضح هذا الإطار أنَّ ما جرى ليس تراجعاً عن المبدأ، بل صوناً للمبدأ من الانكسار.

المبحث الأول: محطّاتٌ من سيرته العطرة

أولاً: نظرةٌ على حياته المباركة:

ولد الإمام الحسن عليه السلام في ليلة النصف من شهر رمضان المبارك، في السنة الثالثة للهجرة بالمدينة المنورة^(١). ونشأ في أحضان أُسرةٍ كريمةٍ؛

١ - راجع: ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ٢٨؛ الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ص ١٨٧؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٢، ص ١٠؛ ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٣٢٨.

حيث كان والده هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والدته هي سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عَلَيْهِمُ الْكَلَامُ، فتربي في بيتهما على مكارم الأخلاق والقيم الإسلامية الأصيلة، وتلقى أفضل منهج في التربية والقدوة الحسنة.

وتقلى مهام الإمامة بعد استشهاد والده أمير المؤمنين الإمام علي صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. استمررت فترة إمامته قرابة عشر سنوات، بدأت بمباغطة له بالخلافة في الحادي والعشرين من شهر رمضان لعام ٤٠ هـ، وانتهت باستشهاده في سنة ٥٠ هـ. وقد دامت فترة حكمه الفعلية نحو ثمانية أشهر فقط، ليوصي بعدها بالإمامية لأخيه الإمام الحسين عَلَيْهِمُ الْكَلَامُ^(١).

وعُرف الإمام الحسن عَلَيْهِمُ الْكَلَامُ بعدة ألقاب منها: الحجة، والكتفي، والسبط، والولي، وكانت كنيته أبو محمد.

أما فيما يخص ذريته، فقد رُزق بخمسة عشر ولداً بين ذكر وأنثى، وهم: (زيد) وأختاه (أم الحسن) و(أم الحسين) (وأمهم أم بشير بنت أبي مسعود الخزرجيَّة)، و(الحسن المثني) (وأمها خولة بنت منظور الفزاريَّة)، و(عمر) و(القاسم) و(عبد الله) (وأمهم أم ولد)، و(عبد الرحمن) (وأمها أم ولد)، و(الحسين) الملقب بالأثرم و(طلحة) و(فاطمة) (وأمهم أم

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٣٠٠.

الفصل الرابع – المبحث الأول ١٣٣

إسحاق بنت طلحة التيمي)، مضافاً إلى (أم عبد الله)، و(فاطمة)، و(أم سلمة)، و(رقية) (من أمّهات شتى)^(١).

ومن أبرز رواد مدرسته وأصحابه: (أشعث بن سوار)، و(سليم بن قيس الهمالي)، و(عبد الله بن جعفر بن أبي طالب)، و(عمرو بن قيس المشرقي)، و(المسيب بن نجية)، و(مسعود مولى أبي وائل) المكنى بأبي رزين^(٢).

وأفاه الأجل شهيداً في السابع من شهر صفر سنة ٥٠ هـ، عن عمر ناهز السابعة والأربعين، بعد أن دبرت له زوجته (جعدة بنت الأشعث) مؤامرة دسّ السم له بتدبير من (معاوية بن أبي سفيان). ودفن عليه في مقبرة البقيع بالمدينة المنورة.

ثانياً: عبادته وزهده:

تميز الإمام الحسن عليهما السلام بأنه كان الأكثر عبادةً وزهداً وفضلاً بين أهل زمانه، وكان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣). فقد عُرف عنه أنه كان يحجّ

١ - الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ج ٢، ص ٢٠.

٢ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ٩٣.

٣ - راجع: محمد بن عيسى الترمذى: صحيح الترمذى، ج ٥، ص ٦٥٩؛ محمد بن اسماعيل البخارى: صحيح البخارى، ج ٥، ص ٣٣.

إلى بيت الله الحرام مأشياً على قدميه. وكانت مشاعره جياشةً عند تذكر الآخرة؛ فكان يبكي عند ذكر الموت والقبر والبعث، وعند تذكر المرور على الصراط والعرض على الله تعالى، حتى إنَّه كان يصرخ صرخةً يغشى عليها خوفاً من الله.

وكانت مشاعر الخوف والرجاء تتجاوزه عند ذكر الجنة والنار، فيضطرب اضطراب الشخص الذي لدغته الأفعى، داعياً الله أن يدخله الجنة ومستعيناً به من النار. ولم يكن يسمع نداء الله في القرآن: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِلَّا رَدَّ بِإِجْلَالٍ: لَيَّكَ اللَّهُمَّ لَيَّكَ». وكان دائم الذكر لله -تعالى- في جميع أحواله، مضافاً إلى كونه أصدق الناس في حديثه^(١).

أما في صلاته، فكانت له هيئة خاصة تعبّر عن خشيته العميقه من الله؛ فكانت فرائصه ترتعش وهو قائم بين يدي ربّه، وإذا توضاً ارتعدت مفاصيله واصفر لونه. وعندما سُئل عن سبب ذلك، أجاب بأنه حق واجب على كل من يقف أمام عرش الرحمن أن يظهر عليه أثر الخشوع والهيبة.

وكان له دعاء خاص يدعوه به عند دخوله المسجد؛ حيث يرفع رأسه

١ - محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): الأimalي، ص ١٥٠.

ويقول: «إلهي، ضيفك ببابك، يا محسن قد أتاك المسيء، فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم»^(١).

ثالثاً: مكارم أخلاقه:

جسّد الإمام الحسن عليه السلام قيم الإسلام السامية ومُثله العلية في تعامله مع الآخرين، فكان مثلاً يُحتذى به في الخلق الحسن. وقد وردت روايات تُظهر سموّ أخلاقه، منها أنَّ جارية قدّمت إليه باقةً من الريحان تحيَّة له، فأعتقها في الحال تقرّباً إلى الله. وعندما استفسر عن سبب ذلك، استشهد بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [البقرة: ٨٦]، وكان يعتقها هو الرد الأحسن على تحيَّتها^(٢). كما عُرف عليه السلام بالحلم والتواضع الجم، ويتجلى ذلك في موقفٍ له مع رجلٍ من أهل الشام؛ حيث قام الرجل بسببه ولعنه وهو على دابّته، فلم يرد الإمام عليه بالمثل، بل انتظر حتى أنهى كلامه. بعدها، توجّه إليه الإمام مبتسمًا وحيًا بكل أدب، قائلاً له: «أيها الشيخ، أطئناك غريبًا، ولعلك شبّهت، فلو استعتبرتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيانك، ولو

١ - ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ٧.

٢ - ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ١٨.

استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كsonianك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طریداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حرکت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك، كان أعود عليك، لأنّ لنا موضعًا رحباً وجاهًا عريضاً وما لّا كثیراً». فلما سمع الرجل هذا الكلام الطیّب، انقلب موقفه تماماً وأخذ يبكي، ثم قال: «أشهد أنك خليفة الله في أرضه، والله أعلم حيث يجعل رسالته. لقد كنت أنت وأبوك أبغض الخلق إلى»، وأصبحت الآن أحبّ الخلق إلى قلبي». فنزل ضيقاً على الإمام حتى وقت رحيله، وتحول إلى محبٌ مخلصٌ لأهل البيت عَلَيْهِمُ الْكَلَامُ^(١).

المبحث الثاني: سيرة الإمام الحسن عَلَيْهِمُ الْكَلَامُ الجهادية

يجمع المؤرخون على أنَّ الإمام الحسن عَلَيْهِمُ الْكَلَامُ كان مثالاً للشجاعة والهمة العالية، فلم يخش في الحق لومة لائم، ووقف بكل ثبات في مواجهة التحدّيات والتعقيدات التي واجهته، وبذل كلّ ما في وسعه

١ - راجع: محمد بن يزيد المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج ١، ص ٣٢٥؛ محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٣٤٤.

من أجل نصرة دين الإسلام ورفع رايته، حيث كان مستعداً دوماً لتقديم أغلى التضحيات في سبيل الله.

أولاً: دوره في معركة الجمل:

برزت بطلات الإمام الحسن عليه السلام جلية في معركة الجمل؛ حيث خاض غمار القتال في الصفوف الأولى إلى جانب والده الإمام علي عليه السلام^(١). قبل نشوب المعركة، أوفدته أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام مع الصحابي الجليل (عمار بن ياسر)، وعدد من أنصاره- إلى الكوفة لتحريض أهلها وحثّهم على القتال من أجل الإسلام. وعلى الرغم من وجود معارضة لحكم الإمام آنذاك، لكنَّ الإمام الحسن عليه السلام نجح في حشد قوَّة عسكرية كبيرة بلغت أكثر من تسعة آلاف مقاتل، وأرسلهم إلى ميدان المعركة^(٢).

ثانياً: دوره في معركة صفين:

كان للإمام الحسن عليه السلام دور محوري وفعال أيضاً في معركة صفين؛

١ - ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج٤، ص٢١.

٢ - راجع: أحمد بن داود الدينوري: الأخبار الطوال، ص١٤٤-١٤٥؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٣، ص٢٣١.

حيث تولى مهمة حشد الجنود وتنظيمهم وتوجيههم لقتال جيش (معاوية). وكان يحث أهل الكوفة باستمرار على الانضمام إلى جيش الإمام علي للقضاء على أعداء الإسلام والخارجين عليه^(١). وقد بلغ من إصراره على الجهاد والتضحية في سبيل المبادئ أن تدخل أمير المؤمنين الإمام علي طالباً من مقربيه أن يبعدوه وشقيقه الإمام الحسين عن خطوط المواجهة المباشرة، حرصاً على حياتهما، وخوفاً من انقطاع نسل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بهما^(٢).

المبحث الثالث: الإمام الحسن عليه السلام واستلام دفة الحكم

شكّلت الظروف المعقدة والمليئة بالتحديات التي عاشها الإمام الحسن المجتبى عليه السلام حاجزاً يجعل من سبر غور حياته ودراسة مواقفه مهمة تستلزم قدراً مهماً وعالياً من الموضوعية والتدقّيق والإنصاف. فقد عانى الإمام الحسن عليه السلام من ظلمٍ مزدوج: ظلمٍ من معاصريه في زمانه، وظلمٍ آخر طاله في بعض سير ومدونات التاريخ الإسلامي، سواءً على صعيد تفسير مسيرته

١ - نصر بن مزاحم المنقري: وقعة صفين، ص ١١٣.

٢ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٢٥، الخطبة ٢٠٠.

الفصل الرابع – المبحث الثالث ١٣٩

السياسية الحكيمية التي توجّت بتوقيعه اتفاقية الصلح مع (معاوية)، أم على مستوى ما أُلْصِقَ به من تهم باطلة لا تليق بمقامه السامي، كمسألة تعدد الزوجات، وما شابهاه من اتهاماتٍ تُلوّح فيها تلميحاتُ النظام الأموي ورواياته المغلوطة والمنحولة. وفي خضم هذه الظروف، أوصى به الإمام علي عليه السلام قبل يومين من استشهاده قائلاً: «يا بُنِي! أمرني رسول الله عليه السلام أن أوصي إليك وأن أدفع إليك كتبِي وسلاحي، كما أوصى إليّ رسول الله عليه السلام ودفع إليّ كتبِه وسلاحِه، وأمرني أنْ أمرَكَ إذا حضرَكَ الموتُ أن توصي بها إلى أخيك الحسين عليهما السلام»^(١).

وبعد استشهاد أمير المؤمنين عليهما السلام، خطب الإمام الحسن عليهما خطبةً قال فيها: «أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفي فأنا الحسن بن محمد رسول الله عليهما السلام أنا ابن البشير، أنا ابن النذير... إلخ»^(٢). وبعد ذلك قام (ابن عباس) ودعا الناس إلى بيته فاستجابوا وبايته قائلين «ما أحّبّ إلينا وأحّقّه بالخلافة»^(٣). وينقل (ابن أبي الحديد) أنه: «كان عدد المbaiعین له أكثر من أربعين ألفاً»^(٤).

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٢٩٧.

٢ - أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص ٣٣.

٣ - أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص ٣٣.

٤ - راجع: يوسف بن عبد الله: الاستيعاب، ج ١، ص ٣٨٥.

المبحث الرابع: صلح الإمام الحسن (عليه السلام)

أولاً: دوافع الصلح وأسبابه:

لفهم دوافع الصلح الذي عقده الإمام الحسن (عليه السلام)، والنتائج المترتبة عليه بشكل واضح، لا بدّ من الرجوع إلى صفحات التاريخ ودراسة هذا الحدث من خلال الوثائق التاريخية الموثوقة. والحقيقة الجوهرية التي يجب التأكيد عليها هي أنَّ الإمام الحسن (عليه السلام) لم يُبرم الصلح باختياره حُرّاً ومطلقاً، بل كان مضطراً إليه نتيجة ضغوط هائلة. لقد تكادلت مجموعة من العوامل والظروف القاسية لخلق واقع لا خيار فيه سوى قبول الصلح؛ حيث كانت الأوضاع الدُّولية المحيطة بالدولة الإسلامية، مضافاً إلى الوضع الداخلي المتربّي في العراق وفي معسكر الإمام نفسه، جميعها تدعوه إلى إيقاف الحرب وتجنب استمرارها. ويمكن إرجاع أسباب الصلح إلى عاملين رئисين:

١- الوضع الداخلي (خذلان الرأي العام):

خلفت الحروب المتعاقبة (الجمل وصفين والنهرawan)، مضافاً إلى المناوشات المستمرة على الحدود بين جيش (معاوية) ومناطق العراق والحزاج واليمن بعد حادثة التحكيم، شعوراً عميقاً بالإرهاق والرغبة

الفصل الرابع – المبحث الرابع ١٤١

في السلام لدى أنصار الإمام علي عليه السلام. فقد قضاوا خمس سنوات كاملة في سلسلة من الحروب لم ينتهوا من واحدة إلا ليدخلوا في أخرى. وكانت مأساة هذه الحروب أنَّهم كانوا يواجهون في ساحات القتال أبناء عشائرهم وإخوانهم السابقين، الذين انضمُّوا إلى معسكر (معاوية)^(١). ظهرت رغبة الناس في السلم وكراهيَّتهم للقتال جليًّا في تناقضهم عن التصدِّي لهجمات القوات الشاميَّة على حدودهم، وتقاعسهم عن الاستجابة لدعوات الإمام علي عليه السلام للخروج مرة أخرى لقتال (معاوية)^(٢).

وبعد استشهاد الإمام علي عليه السلام ومباعدة الإمام الحسن عليه السلام بالخلافة، تفاقمت هذه الظاهرة بشكل ملفت وحادٍ، خاصةً عندما دعاهم الإمام للاستعداد لقتال الشام؛ حيث كانت استجابة الناس بطئية وضعيفة للغاية. وعندما بلغه نبأ تقدُّم جيش (معاوية) نحو الكوفة، جمع الإمام

١ - قتل في حرب الجمل أكثر من ثلاثة ألفاً. (راجع: أحمد بن إسحاق اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٧٢). وقتل في حرب النهروان قرابة أربعة آلاف من الخوارج. (راجع: أحمد بن إسحاق اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٨٢). وكانت خسائر الطرفين في صفوف قدرت بـ٥٠٠٠ ألف قتيل. (راجع: علي بن حسين المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ٣٩٣).

٢ - محمد مهدي شمس الدين: ثورة الحسين في الوجдан الشعبي، ص.ص ١٣٨-١٤١.

الحسن عليه السلام الناس في المسجد، وألقى خطبة حماسية مليئة بالتحدى وبالحث على الجهاد، لكن الجميع صمتوا بعد انتهائه، ولم يستجب له أحد، أو يؤيده حتى بكلمة واحدة. يوضح هذا الموقف حجم الخذلان والفتور الذي أصاب أهل العراق؛ حيث انطفأت في نفوسهم جذوة الحماس، ولم يعودوا مستعدّين لخوض غمار الحرب معه!

وبعد جهود كبيرة من بعض كبار أصحاب الإمام وخطبهم الحاثة على القتال، تحرك الإمام الحسن عليه السلام مع مجموعة قليلة من الكوفيين إلى منطقة «النخيلة» وأقام معسكره هناك. وبعد انتظار دام عشرة أيام لوصول التعزيزات، لم يجتمع حوله إلا أربعة آلاف مقاتل فقط، ما اضطره إلى عودة إلى الكوفة لمحاولة حشد مزيداً من القوات مرة أخرى^(١).

٢- جيش متلهلك وغير متماسك:

انعكست حالة الانقسام العقدي والتباين الفكري السائد في المجتمع على تكوين جيش الإمام الحسن عليه السلام، فتحول هذا الجيش إلى قوّة عسكرية تفتقر إلى الوحدة والتماسك الداخلي. وبالتالي، كان من المستحيل الاعتماد على مثل هذا الجيش لمواجهة عدو خارجي

١ - راضي آل ياسين: صلح الحسن، ص ١٠٢.

الفصل الرابع – المبحث الرابع ١٤٣°

قويٌّ ومتماسك مثل جيش (معاوية). ويجمع المؤرخون على أنَّ الإمام عليًّا قام بتجهيز الجيش والاستعداد للقتال بالفعل، ولكنَّ انعدام الوحدة والانقسامات داخل صفوف جيشه من ناحية، وتفككه قبل بدء القتال بسبب مؤامرات (معاوية) الخبيثة وخذلان الناس من ناحية أخرى، أجبراه على إيقاف الحرب والموافقة على الصلح. وهكذا، بدأ الإمام تحرُّكه بإعلان الحرب وتجهيز الجيش، لكنَّه انتهى إلى قبول الهدنة، وهو يدرك تماماً طبيعة الظروف الصعبة التي يمرُّ بها المجتمع الإسلامي وتهمه فيه مصالح الأمة العليا فوق كل اعتبار. ودليلًا على ذلك، رُوي عن الإمام الحسن عليهما السلام أنه عندما سأله (أبو سعيد) عن سبب مصالحته لـ (معاوية) مع علمه بأنَّ الحقَّ له دونه، وأنَّ (معاوية) ضالٌّ وباغٌ، أجاب عليهما: «لقد سخطتم عليَّ بسبب جهلكم بالحكمة من وراء هذا الصلح، ولو لا أنِّي فعلتُ ذلك لما بقي من شيعتنا على وجه الأرضِ أحدٌ إلا قُتل»^(١).

ثانياً: الصلح وأهداف الإمام الحسن عليهما السلام:
إزاء الظروف الصعبة والملابسات الحرجة التي أحاطت بالأمة،

١ - محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): علل الشرائع، ج ١، ص ٢١١.

والتي أُشير إليها سابقاً بتفصيل، رأى الإمام الحسن عليه السلام أنَّ مواصلة الحرب ستتعارضُ مع المصالح العُليا لل المسلمين وتهدّد كيان الإسلام نفسه^(١). لذا، اختار الدخول في عملية صلح اضطراراً، ساعياً بكل جهده إلى تحقيق أهدافه السامية والمبادئ المقدّسة عبر هذه الوسيلة السلمية، مستفيداً من الظرف إلى أقصى حد ممكن.

ومن جهة أخرى، ولأنَّ (معاوية) كان مستعداً لتقديم أي تنازلات أو وعود مقابل إحلال السلام وضمان تسلُّمه للسلطة، حتى أنَّه أرسل إلى الإمام صحيفة بيضاء مختومة وقال له: "اشترط في هذه الصحيفة ما شئت فهي لك"، استغلَ الإمام عليه السلام هذه الفرصة فصاغ معاهدة صلح شملت جميع القضايا الجوهرية والحساسة التي تمثل مبادئه، ملزماً معاوية بالالتزام بها.

ويمكن إيجاز نصوص المعاهدة في خمسة بنود رئيسة هي:

١. **تسليم الخلافة:** تسليم أمر الخلافة لـ (معاوية) على أن يحكم بكتاب الله وسُنَّة رسوله صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢. **العهد من بعده:** أن تكون الخلافة بعد (معاوية) للإمام

١ - راجع: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٠٥؛ ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ١، ص ٣٧١؛ محمد بن جرير الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٦، ص ٩٣.

الفصل الرابع - المبحث الرابع ١٤٥

الحسن - ثم لأخيه الحسين عليهما السلام. بعد وفاته، مع منع (معاوية) من عهدها لأحد.

٣. الكف عن سب الإمام علي عليه السلام: والتوقف عن الدعاء عليه في الصلاة (القنوت)، وذكره فقط بخير.

٤. الجانب المالي والعطاء: تخصيص خمسة ملايين درهم من بيت مال الكوفة للإمام الحسن عليه السلام، وتفضيلبني هاشم في العطاء والهبات علىبني أمية، ودفع مليون درهم تعويضاً لأبناء شهداء معركتي الجمل وصفين، على أن يؤخذ هذا المبلغ من خراج «دار أبجرد»^(١).

٥. الأمان العام: تأمين الناس جمیعاً في كل أرجاء الدولة (الشام،

١ - كانت «دار أبجرد» إحدى المدن الخمس الرئيسية في ولاية فارس التاريخية. ويشير الدليل التاريخي إلى أن سبب اختيار خراجها، قد يعود إلى أن سكانها قد أعلنوا استسلامهم الطوعي للجيش الإسلامي دون قتال، ودخلوا في صلح معه. وطبقاً للتقاليم الإسلامية، فإن خراج هذه الأرض (أي إيراداتها الضريبية) يُخصص منفعةً لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته الكرام، مضافاً إلى اليتامي والمساكين وابن السبيل. ومن هذا المنطلق، حرص الإمام الحسن عليه السلام على أن يُدفع التعويض لعائلات شهداء معركتي الجمل وصفين من خراج هذه المدينة تحديداً؛ وذلك لسيسين: أولاً، لأن عائلاتها كانت من حق الإمام شرعاً يمتلك التصرف بها، وثانياً، لأن أبناء تلك العائلات المنكوبة كانوا من الفئات المستحقة لأموال الخراج أصلاً بحكم الشرع. (راجع: محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ١٠).

والعراق، والججاز، واليمن) على أرواحهم وأموالهم، والعفو عمّا مضى، وعدم ملاحقة شيعة الإمام علي عليهما السلام أو التعرض لهم بأي سوء، وضمان أمانهم وأمان أسرهم، ووصول كل ذي حقّ حقّه، مع التعهد بعدم إيهاد الإمام الحسن عليهما السلام أو الإمام الحسين عليهما السلام أو أي من أهل بيته الرسول عليهما السلام سرّاً أو علانية. فكتبَ (معاوية) هذه البنود بخطه وختمتها، وأقسمَ على الالتزام بها، وأشهدَ عليها قادة أهل الشام وأعيانهم^(١).

ثالثاً: نقض (معاوية) لبنود الصلح:

بعد إبرام المعاهدة، دخل الطرفان الكوفة بجيشهما واجتمعا في المسجد الكبير؛ حيث كان الناس ينتظرون سماع خطبة من كلا القائدين تؤكّد على بنود الصلح علينا لطمئن قلوبهم. لكن (معاوية) - عند صعوده المنبر - لم يكتفِ بعدم الوفاء بهذا التوقيع، بل صرّح باستخفاف قائلاً: «يا أهل الكوفة، أتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج، وقد علمتُ أنكم تصلون وتزكون وتحجرون؟، ولكنني قاتلتكم لأنّ أمراً

١ - لمزيد من الاطلاع على تفاصيل معاهدة الصلح، راجع: راضي آل ياسين: صلح الحسن، ص. ٢٥٩-٢٦١.

عليكم وألي رقابكم، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون! ألا إنَّ كُلَّ دَمٍ أصيَبَ في هذه الفتنة مطلول.. ثُمَّ أعلنَ صراحة: وكل شرطٍ شرطته فتحت قدمي هاتين! ولا يصلحُ الناسَ إِلَّا ثُلَاثٌ: إِخْرَاجُ العطاءِ عند محله، وأقفالُ الجنود لوقتها، وغزو العدو في داره، فإنْ لم تغزوهم غزوكم...»^(١)، مُعْلِنًا بذلك عن نقضه العلني لكل العهود والمواثيق. وبدلًا من التراجع عن سياساته، انتهج (معاوية) نهجًا أكثر قسوة وطغيانًا؛ حيث:

- أشاع بدعة سبّ أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام على المنابر بشكل أوسع.
- ضيق الخناق على شيعة الإمام علي عليه السلام وخاصة الشخصيات البارزة منهم.
- قام بقتل شخصيات كبيرة مثل (حجر بن عدي) وأصحابه.
- تصاعدتْ وتيرةُ القتل والتكميل والاضطهاد إلى درجة جعلتُ أغلب الشيعة إِمَّا مسجونين أو مطاردين أو مشردين، يعيشون في أجواء من الرعب والخوف الدائم.

١ - راجع: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٥؛ السيد عبد الحسين شرف الدين: صلح الحسن، ص ٢٨٥.

الفصل الخامس:

الإمام الحسين بن علي

عليه السلام

ينعقد هذا الفصل على معنى مركزي: الإمامة ميزانُ الحق في الفضاء العام. تتقدم سيرةُ الحسين عليهما من المولد إلى الشهادة لتكشف منطق النهضة: نقضُ مُلك جائز، واستعادةُ تعريفٍ قرآنِيًّا للأمر بالمعروف باعتباره تحريراً لإرادة الأُمَّة من هيمنة الخوف والمصلحة. يُبَيَّن الفصل ملامح العهد الأموي: تحويلُ الخلافة إلى ملكٍ عضوض، وسياسةُ قمعٍ وتجويع، وتزيفٍ للوعي، ثم يضع خiarات الحسين عليهما في سياقها الاستراتيجي ليتّهي إلى كربلاء حدثاً مؤسِّساً يُعيد بناء الضمير العام ومعايير الشرعية. ليست الواقع غاية السرد، وإنما مدخلاً لقراءةٍ خُلُقيةً للسياسة تجعل الشهادة حجَّةً دائمةً على التاريخ.

المبحث الأول: سيرة مشرقة

أولاً: لمحَّة تاريخية:

ولدَ الإمامُ الحسين عليهما في الثالث من شعبان في السنة الرابعة للهجرة في المدينة المنورة. أبوه هو أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليهما، وأمه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليهما. نشأ في كنف والديه في بيئَة مشبعة بالإيمان والتقوى، وتلقى تربية مثلى على يديهما. تولى الإمامُ الحسين عليهما منصب الإمامة بعد استشهاد أخيه الإمام

الحسن عليه السلام، واستمرّت إمامته قرابة عشر سنوات.

ومن الألقاب التي عُرف بها: السيد، والطيب، والوفي، والمبارك، والنافع، والدليل على ذات الله، والبسيط، والتابع لمرضاه الله. وكنيته هي أبو عبد الله.

رُزق الإمام الحسين عليه السلام بستة أولاد هم^(١):

■ علي الأكبر (زين العابدين) وكنيته أبو محمد، وأمه (شاه زنان) بنت كسرى يزدجرد.

■ علي الأوسط الذي استشهد في كربلاء، وأمه (ليلي بنت أبي مررة الثقفيّة).

■ جعفر الذي تُوفّي في حياة أبيه، وأمه امرأة من قبيلة قضاعة.

■ عبد الله (علي الأصغر) الرضيع.

■ سكينة وأمهها (الرباب بنت امرئ القيس)، وهي أم عبد الله.

■ فاطمة وأمهها (أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله).

وكان من بين أصحاب الإمام الحسين عليه السلام ثلاثة مؤمنة استشهدت معه في كربلاء، ومنهم: (أنس بن الحارث الكاهلي)، و(جعید الهمданی)، و(سيف بن مالک)، و(سوار بن المنعم بن الحابس)، و(ضرغامة بن

١ - الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ج ٢، ص ١٣٥

مالك)، و(قيس بن مسهر الصيداوي)^(١).

استشهاده ظهر يوم العاشر من محرّم (عاشراء) سنة ٦١ للهجرة في أرض كربلاء بالعراق، وهو مظلومٌ ظمآن صبورٌ محتسبٌ، وكان عمره آنذاك ٥٨ عاماً. ودفن في المكان الذي أصبح يعرف بكرباء المقدسة.

ثانيًا: مكارم أخلاقه وعبادته

اتسم الإمام علي^{عليه السلام} بأرفع درجات الفضائل والأخلاق، وكان حريصاً على خدمة الناس ومساعدتهم، كما تجلّى في موقفه مع ذلك الأعرابي الذي عجزَ عن دفع دية كانت عليه، حيث تحمل الإمام عنه دفعها^(٢).

وكان الحسين^{عليه السلام} إذا توضأً يتغير لونه، وترتعد فرائصه؛ وعندما سُئل عن سبب ذلك أجاب: «حق لمن وقف بين يدي الملك الجبار أن يصفر لونه وترتعد مفاصيله». وسأله رجل عن عظيم خوفه من ربِّه، فقال: «لا يؤمن يوم القيمة إلا من خاف الله في الدنيا»^(٣).

١ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ٩٩.

٢ - عبد الله البحرياني: العوالم (الإمام الحسين)، ص ٦١.

٣ - ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٣، ص ٢٢٥.

ثالثاً: مكانة الإمام الحسين وفضله

لقد امتاز الإمام الحسين عليه السلام بمكانة خاصة عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قال فيه جدّه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حسين مني وأنا من حسين أحبت الله من أحبت حسيناً». حسين سبط من الأسباط^(١).

وكان الناس يهابون الإمام الحسين عليه السلام، فقد روى (إبراهيم بن الرافعي)، عن أبيه، عن جده قال: «رأيت الحسن والحسين عليهمَا السلام يمشيان إلى الحجّ، فلم يمرا براكب إلا نزل يمشي، فثقل ذلك على بعضهم فقالوا لسعد بن أبي وقاص: قد ثقل علينا المشي، ولا نستحسن أن نركب وهذان السيدان يمشيان، فقال سعد للحسن عليه السلام: يا أبا محمد، إنّ المشي قد ثقل على جماعة ممّن معك، والناس إذا رأوكما تمشيان لم تطب أنفسهم أن يركبوا، فلو ركبتما، فقال الحسن عليه السلام: «لا نركب، قد جعلنا على أنفسنا المشي إلى بيت الله الحرام على أقدامنا، ولكتنا نتنكب الطريق»، فأخذنا جانباً من الناس^(٢).

١ - الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ج ٢، ص ١٢٧.

٢ - الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ج ٢، ص ١٢٩.

المبحث الثاني: ملامح عصر الإمام الحسين (عليه السلام)

سعى (معاوية بن أبي سفيان) إلى إحياء قيم الجاهلية الأولى داخل المجتمع الإسلامي، لكن تحت غطاء الإسلام ولقب "أمير المؤمنين"! ولتحقيق هذا الغرض، انتهج سلسلة من السياسات تركت آثاراً عميقاً وسلبية على الإسلام وال المسلمين، أصبحت سمات بارزة لتلك الحقبة التاريخية، وكان من أبرزها:

أولاً: تحويل نظام الحكم من الخلافة إلى الملك العضوض:
عندما تولى^(١) (معاوية) حكم الشام، مارس سلطته فيها باعتباره ملكاً مطلقاً من النواحي كلها: العسكرية، والسياسية، والاقتصادية، وحتى الاجتماعية، ومن دون أن يجد أيّ رادع يحدّ من تصرفاته؛ حيث قام ببني عدد من القبائل العربية والمعارضين له، واستخدم المال العام (بصفته مالاً سياسياً) بلا رقيب أو حسيب. وتجلّى توجّهه هذا بوضوح في خطابه لأهل الكوفة حين قال مستهزئاً: «يا أهل الكوفة، أتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج، وقد علمتُ أنكم تصلون وتزكّون وتحجّون؟ ولكنني قاتلتكم لأنّي أمر عليكم وأليّ رقابكم»^(١).

١ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٦٠.

ثانيًا: سياسة الإرهاب والتجويع:

أشاعَ (معاوية) سياسةَ القمع والتصفية الجسدية لـكُلّ معارضٍ لحكمه. فها هو أحد قادته العسكريين، (سفيان بن عوف الغامدي)، يروي توجيهات (معاوية) له قائلًا: «فاقتُلْ كُلّ من لقيتهِ ممن ليسَ على مثل رأيكِ، وأخربْ كُلّ ما مررتَ به من القرى، وأحربَ الأموال؛ فإنَّ حربَ الأموال شبيهٌ بالقتل وهو أوجع للقلب»^(١). ولم تكن هذه الحملاتُ مقصورةً على منطقة واحدة بل امتدَت إلى مختلف البلدان الإسلامية؛ حيث أمر (معاوية) قائدِه (الضحاك بن قيس الفهري) بالتوجه إلى الكوفة لسفك الدماء وقتل الناس^(٢).

ويصوّر الإمام محمد الباقر عليهما السلام بشاعة تلك الفترة بقوله: «فقتلت شيعتنا بكل بلدنا، وقطعنا الأيدي والأرجل على الظنّة، وكان من يذكر بحبنَا والانقطاع إلينا سجن، أو نهب ماله أو هدمت داره»^(٣).

أما سياسة التجويع، فتمثلَت في محو أسماء محبي أهل البيت عليهما السلام وشيعتهم من دواوين العطاء، وإسقاط رواتبهم وأرزاقهم. فقد أرسل (معاوية) إلى عمّاله يعلمهم بهذه السياسة قائلًا: «انظروا من قامت عليه

١ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٢، ص ٨٦.

٢ - ابراهيم بن محمد الكوفي: الغارات، ج ٢، ص ٤٢١.

٣ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٣.

البيئة أنه يحبُّ عليًّا وأهل بيته فامْحُوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه»^(١).

المبحث الثالث: خطوات الإمام الحسين (عليه السلام) في مواجهة سياسة (معاوية)

انتهَى الإمام الحسين (عليه السلام) في مواجهة هذه الخطوات منهاجاً يقوّض هذا البناء من أساسه:

أولاً: مواجهة (معاوية) ورفض البيعة لـ (يزيد):
أرسل الإمام الحسين (عليه السلام) رسالة مطوية إلى (معاوية)، حذر فيها من مغبة أفعاله، وجاء في جزء منها: «تحاول أن تزيّن يزيد في أعين الناس وكأنك تصف شخصاً لا يعرفونه... لكن دع عنك هذه المحاولات، فليس في ذلك ما ينجيك من حساب الله وعقابه، والذي تحمله من أوزار الناس سيزيد من وزرك. فوالله ما زلت تسير في طريق الباطل والجور والظلم حتى امتلأت مكيال إثمك، وما يفصلك عن الموت إلا

١ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٥.

طرفة عين، وسوف تُقدم على الله بعملك المحفوظ في يوم مشهود،
ولن يكون هناك مهرب أو مفرّ»^(١).

ثانياً: كشف جرائم (معاوية):

رد الإمام الحسين عليه السلام برسالة أخرى كان الهدف منها فضح ممارسات
النظام الأموي بقيادة (معاوية)، وتضمنت النقاط الرئيسة الآتية:

١. توصيف حزب معاوية ومعسكره بـ «حزب الظلمة».
٢. تذكير (معاوية) بجرائمها التي أدّت إلى إراقة دماء عدد من
الشخصيات الصالحة والأبراء، مثل الصحابي (حجر بن
عدي) و(عمرو بن الحمق الخزاعي) رفيق رسول الله صلوات الله عليه وسلم.
٣. وصف فترة حكم (معاوية) بأنّها «أعظم فتنة» مرّت على
الامة الإسلامية.
٤. تذكيره بنقضه لبند معاهدة الصلح التي عقدها مع الإمام
الحسن عليه السلام
٥. تحذيره وتهديده بعقاب الله، كما في نصّ الرسالة : «فاستعد
يا معاوية للقصاص، وتيقن بأنك محاسب، واعلم أنَّ لله

١ - ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٩٥-١٩٦.

كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولن ينسى الله كيف أخذت الناس بالظنة، وقتلت أولياءه بتهمٍ باطلة، ونفيتهم من ديارهم إلى منفى الغربة^(١).

المبحث الرابع: الخيارات الاستراتيجية للإمام الحسين عليهما السلام

واجه الإمام عليهما السلام عدّة خيارات يمكن أن يسلكها:

- الخيار الأول: مبايعة (يزيد بن معاوية).
- الخيار الثاني: رفض البيعة والبقاء في مكة أو المدينة.
- الخيار الثالث: رفض البيعة والهجرة إلى بلد إسلامي آخر آمن، مثل اليمن.
- الخيار الرابع: رفض البيعة والاستجابة لنداءات أنصاره والتوجه إلى العراق لمواجهة مصير الاستشهاد في كربلاء. وكان اختيار الإمام للخيار الرابع (الخروج إلى كربلاء) نابعاً من تحليل دقيق للواقع المريض الذي كانت تعيشه الأمة، ومن خلال هذا

١ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ٣٢٧.

الموقف استطاع أن:

- يهزّ ضميرَ الأُمَّةِ ويوقظه من سباته.
- يبيّن لِلأُمَّةِ قيمةَ الإسلام وكرامته.
- يُعيدُ لِلأُمَّةِ إرادةَ المقاومة والمواجهة.
- يوضحُ أنَّ صلحَ الإمام الحَسَنِ عَلَيْهِ الْكَفَافُ لم يكن استسلاماً، بل كان خطوةً تكتيكيةً تمهديةً لثورة الإمام الحسين عَلَيْهِ الْكَفَافُ.

المبحث الخامس: دوافع الرحيل عن المدينة المنورة

آثر الإمام الحسين عَلَيْهِ الْكَفَافُ مغادرة المدينة المنورة بعد أن أيقن أنَّ السلطة الحاكمة قد حاصرت أمنه فيها. وكان يتوقع أن تفرضَ عليه مواجهة عسكرية مفتوحة داخل أسوار المدينة مع قوات الأمويين؛ وذلك نتيجةً لتهور (يزيد بن معاوية) وتشدّده في أوامره إلى والي المدينة، (الوليد بن عتبة)، بقتل الإمام إذا هو امتنع عن مبايعته. وقد بلغ (يزيد) أنَّ الحسين عَلَيْهِ الْكَفَافُ لا يُظهر طاعةً ولا بيعة؛ (حيث جاء هذا عندما أرسل الوليد إلى يزيد يخبره بهذا)^(١)، مما كان منه إلا أن بعث برسالة غاضبة إلى واليه

١ - أحمد بن أعمش الكوفي: الفتوح، ج ٥، ص ١٨.

يحثّه فيها على أخذ البيعة قسراً ويأمره صراحةً بإرسال رأس الحسين مقابل وعود بالمال والمناصب.

وحتى لو تردد الوالي في تنفيذ الأمر احتراماً لمكانة الإمام عليه السلام^(١)، فإنَّ النظام الأموي كان ليجد حتماً من ينفذ خطَّته من عناصر أخرى داخل المدينة. وبدلًا من الشروع في مواجهة صريحة - كان من المحتمل أن تلجأ السلطة إلى اغتيال الإمام سراً، ما يعني إجهاض ثورته قبل أن تبدأ. ومن هنا، كان قرار الخروج استباقاً لهذه المخططات واحتياطاً من عنف السلطة، بهدف نقل المعركة إلى ساحة يختارها هو بنفسه، يحافظ فيها على إشعال شعلة ثورته ويحول دون إخمادها في مهدها، ليكون خروجه تحريراً للثورة من حصار التعييم الأموي^(٢).

المبحث السادس: إقامة الإمام الحسين عليه السلام في مكَّة المكرَّمة

غادر الإمام الحسين عليه السلام المدينة متوجّهاً إلى مكَّة المكرَّمة في أواخر

١ - أحمد بن أعثم الكوفي: *الفتوح*, ج ٥، ص ١٨.

٢ - أحمد بن أعثم الكوفي: *الفتوح*, ج ٥، ص ١٨.

رجب من سنة ٦٠ للهجرة، وأقام فيها من الثالث من شعبان حتى الثامن من ذي الحجة من العام نفسه، وهي مدة تقارب مئة وخمسة وعشرين يوماً، ما يعده فترةً مُهمَّةً ضمن إطار زمن الثورة. وكان الإمام يدرك أنَّ نفوذ بنى هاشم بين أهل مكَّةَ محدود، بل إنَّ ولاء أغلبهم كان للطرف المضاد؛ إذ ورد عن الإمام زين العابدين قوله: «ما بمكَّةَ والمدينة عشرون رجلاً يحبُّنا...»^(١)، ما يكشف عن ضعف القاعدة الشعبية الداعمة لأهل البيت عليهم السلام هناك.

ولم يكن الهدف من المجيء إلى مكَّةَ هو استعماله عموم أهلها، بل كان التركيز على استقطاب الموالين ذوي البصيرة ومن يمكن أن ينصروا الحق ويقفوا إلى جانب الثورة. كما كان الهدف الرئيس هو مخاطبة الوفود الإسلامية القادمة لأداء مناسك العمرة والحج، طلباً للنصرة وإتماماً للحجَّة على الجميع. وقد لقي الإمام ترحيباً حاراً من قبل المقيمين في مكَّةَ، فأقبلوا عليه يلتقطون به ويسمعون إلى حديثه ويستفيدون من علمه، ويحفظون ما يرويه.

المبحث السابع: العزمُ على مغادرة مكَّةَ إلى العراق

إثر انقضاء فترة إقامته في مكَّةَ، تبيَّن للإمام عليهم السلام أنَّ النظام الأموي

١ - ابن أبي الحديد: شرح النهج، ج ٤، ص ١٠٤.

يعزم على الغدر به واغتياله. وقد ورد أنَّ (يزيد) أرسل (عمرو بن سعيد بن العاص) على رأس جيش كبير وأوكل إليه مَهْمَة قيادة الحجَّ، مع توصية خاصة بالقبض على الإمام الحسين سرًّا أو قتله غدرًا إن لزم الأمر. بل إنَّ السلطة دسَّت بين الحجاج مجموعةً من العناصر الأمويَّة لقتله بأي طريقة ممكنة.

فلما اطَّلَعَ الإمام على هذه المؤامرات، عزم على الخروج فورًا إلى العراق، حتَّى إنَّه لم يتمكَّن من إكمال مناسك الحج، فاضطرَّ إلى الإحرام بالعُمرة المفردة والخروج. وكانت السلطة قد ضيقَتُ الخناق عليه، ولم تترك له ملاذًا آمنًا في أي اتجاه. ويُروى أنَّه حين حاول أخيه (محمد بن الحنفية) ثنيه عن التوجُّه إلى الكوفة، أجابه الإمام بأنَّهم لن يتركوه ولو كان مختبئًا في جحر ضبٍّ، وسيخرجونه منه كي يقتلوه.

ولو سلَّمَ الإمام للهِ لهم، فإنَّ عداوتهم العميقه ما كانت لتدعه بحاله، بل كانوا سيواصلون محاولاتهم لاغتياله بكلٍّ وسيلة. وكان عرض البيعة عليه مجرد خطوة تكتيكيَّة؛ لأنَّهم يعلمون برفشه، وكان واليهم في العراق، (عبد الله بن زياد)، يقول: “أعرضوا عليه فلينزل على أمرنا ثمَّ نرى فيه رأينا”， وهو المنطق نفسه الخادع الذي

انتهجوه مع (مسلم بن عقيل) عندما أعطوه الأمان ثم غدروا به^(١). كما أنَّ الإمام علي أرادَ صونَ حرمة البيت الحرام، فقال لأخيه: «يا أخي، قد خفتَ أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم، فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت»^(٢).

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٠٠.

٢ - ابن طاوس: اللهو في قتل الطفوف، ص ٣٩.

الفصل السادس:

الإمام علي بن الحسين عليه السلام

يرصد هذا الفصل تحول الإمامة بعد كربلاء من المواجهة المباشرة إلى صناعة المعنى وحراسة المعيار. يظهر الإمام زين العابدين عليه السلام قائداً لمرحلة صعبة تُدار بأدوات مختلفة: خطاب يفضح الزيف في الكوفة والشام، ثم مشروع طويل النفس في المدينة يعيد تأسيس الوعي من القاعدة عبر العبادة المعلمة، والدعاء المربّي، وتخریج العلماء، وتبییت مفهوم الولاية. يوضّح النص أن الانصراف عن الصدام المسلح لم يكن انسحاباً من الشأن العام بل استراتيجية لحفظ الكيان الرسالي وبناء جماعة واعية قادرة على مقاومة التزيف. هكذا تتواصل الثورة بوسائل أخرى: تبییت سيرة الإمام الحسين عليه السلام في الضمير، وترميم الصدع بين المرجعية الفكرية والاجتماعية، وتكوين بنیان خلقي يستعيد للسياسة معيارها.

المبحث الأول: سيرة مضيءة:

أولاً: نظرٌ على حياته عليه السلام:

ولد الإمام زين العابدين عليه السلام في الخامس من شعبان سنة ٣٨ للهجرة، وكان يوم الخميس. وهو ابن الإمام الحسين عليه السلام، وأمه هي السيدة الجليلة (شهربانو) (المعروفة أيضاً بشاه زنان) بنت (يزدرجد).

نشأ الإمام علي عليه السلام وتربى في أحضان هذا البيت النبوى الكريم، فتشبع بقيم الفضيلة وتخلى بأخلاق الأنبياء والأوصياء. واشتهر عليه السلام بكثرة عبادته وتقواه، حتى انعكس ذلك على أبرز ألقابه، والتي كانت: (زين العابدين)، و(سيد الساجدين)، و(سيد العبادين)، و(ذو الثفنات). أما كنيته فهي (أبو الحسن) و(أبو محمد)، وقيل أيضاً (أبو الحسين).

آلت إليه الإمامة في العام ٦١ للهجرة، وتحديداً في العاشر من محرّم إثر استشهاد والده الإمام الحسين عليه السلام، وقد امتدّت فترة إمامته خمسة وثلاثين عاماً. وقبل وفاته، أوصى بالإمامية من بعده إلى ابنه الإمام محمد الباقر عليهما السلام^(١).

وكان له عليهما السلام من الأولاد خمسة عشر ولداً بين ذكور وإناث، وهم: الإمام محمد الباقر عليهما السلام وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن علي عليهما السلام، و(عبد الله)، و(الحسن)، و(الحسين)، و(زيد)، و(عمر)، و(الحسين الأصغر)، و(عبد الرحمن)، و(سليمان)، و(علي) (وكان أصغر الإخوة)، و(خدیجة)، و(محمد الأصغر)، و(فاطمة)، و(عليه السلام)، و(أم كلثوم). وأمهات هؤلاء الآخرين كنّ من أمهات الأولاد^(٢).

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٥٥.

٢ - الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ص ١٥٥.

وافته المنية في سنة ٩٥ للهجرة، والتي سُمِّيت بـ "سنة الفقهاء" بسبب كثرة من توفي فيها من العلماء والفقهاء. واختلف في اليوم الحقيقى لشهادته بين الثاني عشر، أو الثامن عشر، أو الخامس والعشرين من شهر محرّم. وكان عمره الشريف عندها ستًا وخمسين سنة، ودُفن لليلة في مقبرة البقيع في المدينة المنورة.

ثانيًا: عبادة الإمام زين العابدين لليلة:

اشتهر الإمام علي بن الحسين، المكنى بزين العابدين، بأنه أعبد الناس في عصره، حتى إنَّ هذا اللقب أصبح عَلَمًا عليه، وشهدَ بذلك الموافق والمخالف. وقد نقل (مالك) قائلًا: «سُمِّي زين العابدين لكثره عبادته»^(١).

ولتوسيح مدى انقطاعه التام لله تعالى، تروي لنا إحدى الروايات أنَّ السيدة فاطمة بنت علي بن أبي طالب لليلة، لما رأت ما يبذله ابن أخيها علي بن الحسين لليلة من جهدٍ شديد في العبادة، أتت الصحابي (جابر بن عبد الله الأنباري) قائلة: «يا صاحب رسول الله، إنَّ لنا عليكم حقوقًا، ومن حقنا عليكم أن تذكروا بالله من يبالغ في اجتهاده

١ - محمد هادي الميلاني: قادتنا كيف نعرفهم، ج ٤، ص ١٠.

حتى يُتعب نفسه، وهذا علي بن الحسين - وهو بقية أبيه الحسين - قد أثّر السجود في جسده؛ فانخرم أنفه، وتغلظت جبهته وركبتاه وكفاه من شدة مواطبه على العبادة»... فأقبل (جابر) عليه وهو يقول: «يا بن رسول الله، أما علمت أنَّ الله خلق الجنة لكم ولمن أحبّكم، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم؟ فلماذا تتكلّف نفسك هذا الجهد الشديد؟».. فأجابه الإمام علي: «يا صاحب رسول الله، أما علمت أنَّ جدّي رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك لم يترك الاجتهاد في العبادة، بل استمرَّ فيها حتى تورّمت قدماه وانتفخت ساقاه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غُفر لك؟ فقال: أفلأكون عبدًا شكوراً؟»^(١).

وكان من مظاهر تعرّبه العظيم من الله كثرة سجوده؛ إذ كان يسجد شكرًا لله في كلّ مناسبة: عند تذكّر نعمة، أو عند قراءة آية سجود، أو عند دفع سوء، أو بعد كلّ صلاة مفروضة، أو عند التوفيق لإصلاح بين الناس. وقد ترك السجود أثراً بارزاً على جميع مواضع سجوده، حتى اُعرف به ولقب بـ«السجّاد»^(٢).

١ - محمد بن الحسن الطوسي: الأموالي، ص ٦٣٦-٦٣٧.

٢ - محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): علل الشرائع، ج ١، ص ٢٣٢.

كما لُقِّب بـ "ذِي الثَّفَنَاتِ" لكثرَة سجوده وعبادته. وروي عن الإمام الباقي عليه قوله: "كان لأبيه في موضع سجوده أثر، وكان يقطعها في السنة مرَّتين، في كلّ مرة خمس ثفنات، فُسِّمِي ذا الثفنات لذلك".^(١)

ثالثاً: مكانة الإمام زين العابدين بين المسلمين:
 تَمَتَّع الإمام زين العابدين عليه بمكانة علمية ودينية مرموقة، فكان إماماً يُقتدى به، ومنارةً للعلم والمعرفة، ونموذجًا أعلى في الورع والعبادة والتقوى والعرفان، حتى ذاع صيته بين جميع المسلمين في عصره بأنَّه أفقه أهل زمانه وأورعهم وأتقاهم، ولم يكن في قريش بل في المسلمين كُلُّهم من يفوقه فضلاً. وقد شهد بفضلِه أعلام المذاهب الأخرى، مثل (سفيان بن عيينة) (سفيان الثوري/الковي) الذي قال: «ما رأيت هاشمياً أفضلَ من زين العابدين ولا أفقه منه».^(٢)
 بل إنَّ هذه المكانة قد حظيت باعتراف حكام بني أمية أنفسهم، على الرغم مما يكنونه من عداء وخصومة لأهل البيت عليه. فقد قال له

١ - محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): علل الشرائع، ج ١، ص ٢٣٣.

٢ - ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٣، ص ٢٩٧

(عبد الملك بن مروان) ذات مرّةً: «لقد أُوتيت من العلم والدين والورع ما لم يؤتَه أحدٌ مثلك إلّا من مضى من سلفك»^(١)، ووصفه (عمر بن عبد العزيز) بأنّه «سراج الدنيا وجمال الإسلام»^(٢).

في المقابل، يذهب بعض المؤفّفين إلى أنّ استشهاد الإمام الحسين عليهما السلام فقد الفكر الشيعي زعيمه السياسي المحوري، ما دفع بالإمام زين العابدين عليه السلام إلى الانصراف عن السياسة المباشرة إلى الشأن الديني، ليصبح زعيماً روحياً منعزلاً عن أحداث الواقع، واقتصر دوره على تخرّج مجموعة من العلماء والفقهاء الذين أصبحوا مراجع للفقه الإسلامي.

لكنّ الحقيقة تكمن في أنّ هذا الانزياح الظاهري كان استراتيجية حكيمية أراد منها الإمام عليه السلام أن يبعث بها رسالة مطمئنة للسلطة الأمويّة الحاكمة، بهدف الحفاظ على كيان التشّيّع من جهة، ونشر تعاليم الإسلام المحمدي الأصيل بهدوء وتدرّج من جهة أخرى، ساعياً إلى إحداث التغيير من القاعدة لا من القمة. وهذه الرؤية الاستراتيجيّة العميقّة تتجلّى بوضوح لكلّ من يدقّق ويتأمّل مراحل حياة الإمام (عليه السلام) وسيرته الشرفية.

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٥٧.

٢ - أحمد بن إسحاق البغوي: تاريخ البغوي، ج ٢، ص. ٣٠٣-٣٠٥.

المبحث الثاني: المحطات الرئيسية في حياة الإمام السجّاد عليه السلام

تُعدّ مسيرة الإمام السجّاد عليه السلام محطاتٍ كاشفةً عن أبعاد شخصيّته الجهادية الحقيقية، والتي تجلّت بوضوح في ثلاثة مواقف محوريّة: حضوره في كربلاء، وموافقه البطولية في الشام، وتخطيطه الاستراتيجي بعد العودة إلى المدينة.

المحطة الأولى - حضور الإمام في كربلاء:

تشير المصادر التاريخية إلى أنَّ الإمام السجّاد عليه السلام كان شاهداً على واقعة الطف (كربلاء) بكلِّ تفاصيلها المأساوية ومشاهدتها المرؤوعة. ومن الثابت أنَّه كان يعاني ذلك اليوم من مرضٍ شديد أقده عن القتال^(١)، إلى درجة أنَّه لم يكن يقوى على الوقوف أو حمل السلاح^(٢). وقد وردت روايات تفيد بأنَّه شارك في بعض موقع القتال رغم

١ - راجع: الشيخ محمد بن محمد المفید: الارشاد، ص ٢٣١؛ النعمان المغربي: شرح الأخبار، ج ٣، ص ٢٥٠؛ شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٤٨٦.

٢ - أحمد بن إسحاق اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٤٣-٢٤٤.

مرضه^(١)؛ حيث قيل: «وكان علي بن الحسين علياً، وارتث يومئذ، وقد حضر بعض القتال، فدفع الله عنه وأخذ مع النساء»^(٢).

هذه التجربة القاسية، التي منعته ظروفه الصحّيّة من استشهاد كان يطمح إليه، أصبحت أمانةً ثقيلةً يحملها في قلبه، ليوظّفها لاحقاً في فضح وحشّيّة النظام الأموي وبشاشة جرائمهم أمام الملأ.

المخطّة الثانية - في الكوفة:

يستذكر الإمام السجّاد عليه استشهاد إخوته وأبناء عمومته، فيقف شامخاً في قصر الإمارة بالكوفة، حاملاً في حروفه بلاغة جده أمير المؤمنين الإمام علي عليه، وعزيمة أبيه الحسين عليه، فيلقي خطاباً جليلاً في وجه الطاغية (عبد الله بن زياد)، محولاً إياه إلى متّهم مباشر بدماء الأبرياء، حينما ردّ عليه بقوله: «الله يتوفى الأنفس حين موتها... وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله...». فاشتعل غيظ (ابن زياد)، وأراد قتلها جراء شجاعته وتحديه، فانبرت له عمتّه زينب عليه تحتضنه وتتعلق به، قائلةً: «يا ابنَ زياد، اكتف بما سفكَ من دمائنا! أما ممتلأت

١ - راجع: محمد رضا الجلاي: جهاد الإمام السجّاد، ص ٤٢.

٢ - محمد رضا الجلاي: حياة الإمام السجّاد، ص ٤٣.

فُغْرًا من دمائنا؟ وهل تركتَ مِنْ أَحَدًا؟ أَسأَلُكَ بِاللَّهِ إِنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا أَنْ لَا
تُقْتَلَهُ إِلَّا وَتُقْتَلَنِي مَعَهُ»^(١).

المحطة الثالثة - في الشام:

في الشام، حيث كان للدعـاعة الأمويـة سلطة تفـوق سلطة السـيف والرمـاح، بما تحـملـه من مـخـاطـر التـشـويـه والـقتـلـ، وـقـفـ الإمام السـجاد عليه السلام في بلاط (يزيد)، فـبـدـأ خطـابـه بـحمد الله والـثـنـاء عـلـيـهـ، دـاحـضـا بـمـقـولـاتـهـ أـدـعـيـاءـ بـنـيـ أـمـيـةـ الـذـينـ سـعـواـ لـتـشـويـهـ ثـورـةـ أـيـهـ وـتـحرـيفـ أـهـادـفـهاـ. وـقـد عـرـفـ بـنـفـسـهـ تـعـرـيـفـاـ مـفـصـلـاـ؛ لـأـنـ صـورـةـ أـهـلـ الـبـيـتـ عليه السلام كـانـتـ مشـوـهـةـ وـمـغـيـيـةـ فـيـ الشـامـ، فـقـالـ: «يـاـ مـعـشـرـ النـاسـ: فـمـنـ عـرـفـنـيـ فـقـدـ عـرـفـنـيـ، وـمـنـ لـمـ يـعـرـفـنـيـ فـأـنـ أـعـرـقـهـ نـفـسـيـ، أـنـاـ بـنـ مـكـةـ وـمـنـيـ، أـنـاـ بـنـ مـرـوةـ وـالـصـفـاـ، أـنـاـ بـنـ مـحـمـدـ الـمـصـطـفـىـ... أـنـاـ بـنـ مـنـ عـلـاـ فـاسـتـعـلـىـ، فـجـازـ سـدـرـةـ الـمـتـهـىـ، وـكـانـ مـنـ رـبـّـهـ قـابـ قـوـسـينـ أـوـ أـدـنـىـ، أـنـاـ بـنـ مـنـ صـلـىـ بـمـلـائـكـةـ السـمـاءـ مـثـنـىـ مـثـنـىـ، أـنـاـ بـنـ مـنـ أـسـرـيـ بـهـ مـنـ الـمـسـجـدـ الـحـرـامـ إـلـىـ الـمـسـجـدـ الـأـقـصـىـ، أـنـاـ بـنـ عـلـيـ الـمـرـتضـىـ، أـنـاـ بـنـ فـاطـمـةـ الـزـهـراءـ، أـنـاـ بـنـ خـدـيـجـةـ الـكـبـرـىـ، أـنـاـ بـنـ الـمـقـتـولـ ظـلـمـاـ، أـنـاـ بـنـ الـمـجـزـورـ

١ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٣٥.

الرأس من القفا، أنا ابن العطشان حتى قضى، أنا ابن صريع كربلاء، أنا ابن مسلوب العمامة والرداء، أنا ابن من بكت عليه ملائكة السماء، أنا ابن من ناحت عليه الجن في الأرض والطير في الهواء، أنا ابن من رأسه على السنان يهدى، أنا ابن من حرمه من العراق إلى الشام تسبى... أيها الناس إن الله تعالى - وله الحمد - ابتلانا أهل البيت بباء حسن، حيث جعل راية الهدى والتقوى فيها، وجعل راية الضلاله والردى في غيرنا...»^(١).

وبهذه الخطبة الموجزة أصبح الإمام الرمز القائد لمسيرة إحياء الدين الذي شوّهته السلطة الأموية وحكمت باسمه زوراً وظلماً وبهتاناً.. وعندما حاول (يزيد) قطع كلامه بالأذان للصلوة، علق الإمام على قول المؤذن «أشهد أنَّ محمداً رسول الله» قائلاً: «يا يزيد، هذا جدي أم جدك؟ فإن قلت جدك فقد كذبت، وإن قلت جدي فلم قتلت أبي وسيت نساءه وسبتي؟!» ثم خاطب الناس قائلاً: «أيها الناس، هل فيكم من أبوه وجده رسول الله ﷺ؟» فتعالت أصوات البكاء.

وهكذا تجلّى دور الإمام السجاد عليه السلام في قيادة مشروع الإحياء وثورة التصحيح. ومن هذه المحطة بدأ رحلة الألف ميل من الشام إلى

المدينة، ليستكمل مسيرته الرسالية في قيادة هذا المشروع وتوجيهه هذه الشورة.

المحطة الرابعة - في المدينة المنورة:

دوره العلمي:

لا يمكن للكلمات أن تحيط بالدور العلمي للإمام السجاد عليهما السلام
تعبر عنه تعبيراً وافياً، ولكننا نستعرض هنا بعض المعالم التي تُظهر
جانبًا من هذا الدور ومكانته العلمية الرفيعة.

عاش الإمام زين العابدين عليهما السلام في المدينة المنورة، حاضرة الإسلام الأولى ومنبع العلوم والعلماء، في فترة كانت تضمّ نخبة من علماء الصحابة وكبار علماء التابعين. وكان بإجماع أبرز علماء عصره الأعلم والأفقيه والأوثق دون أدنى شك. فقد قال (الزهري): «ما كان أكثر مجالستي مع علي بن الحسين، وما رأيت أحداً كان أفقه منه»، كما أقرّ الفقيه الشهير (سفيان بن عيينة) بهذه الحقيقة^(١)، وقال الشافعي محتاجاً به: «كان أفقه أهل المدينة»^(٢).

١ - راجع: شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٣٨٩؛ ابن عساكر: مختصر تاريخ دمشق، ج١٧، ص٢٤٠.

٢ - ابن أبي الحميد: شرح النهج، ج١٥، ص٢٧٤.

وكان مدرسته العلمية تعجّ بكتار العلماء في عاصمة العلم الإسلامية؛ حيث كانوا يتلقّون عنه العلم والأدب وينقلون الحديث. ومن بين تلامذته: أولاده الإمام محمد الباقر عليهما السلام و(عمر) و(زيد) و(عبد الله)، وكذلك (الزهري) و(عمرو بن دينار) وغيرهم. كما حدث عنه عدد من كبار علماء شيعته مثل: (أبان بن تغلب)، و(أبي حمزة الثمالي)، و(ثابت بن هرمز الفارسي)، و(جابر بن عبد الله الأنصاري)، و(حبيب بن حسان الأسدى)، وغيرهم كثير^(١).

هذا الجمع الكبير من التلامذة وغيرهم من وصّفوا بكثرة العدد، تلقّوا على يديه علوم الشريعة المختلفة: من تفسير القرآن الكريم، ومعرفة مُحكمه، ومتناهيه، وناسخه، ومنسوخه، وأحكامه، وآدابه، إلى السُّنَّةُ النَّبُوَّيَّةُ الشَّرِيفَةُ روايَةً وتدوينًا في عصر كانت كتابة الحديث لا تزال تتأثّر بسياسة المنع من التدوين، والتي تجاوزها أئمّة أهل البيت عليهما السلام، فدون تلامذتهم والرواة عنهم علومًا غزيرة، إلى أحكام الشريعة من حلال وحرام وآداب، فضلاً عن فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في فترة سعت فيها السياسة الحاكمة إلى تعطيل عدد من الأحكام، وتبدل بعض السُّنَّنَ، وإحياء بعض البدع، إلى الجهر بنصرة

١ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ١٠٩.

المظلوم، والردّ على الظالم وكشف أساليبه الجائرة.

المبحث الثالث: مرحلة التحول الاستراتيجي

تمثل مرحلة الإمام السجاد عليه السلام منعطفاً حاسماً بين مراحلتين
متميّزتين في مسيرة أئمّة أهل البيت عليهم السلام:

المرحلة الأولى: مرحلة المواجهة المباشرة التي تميّزت بالتصدي
السياسي والصراع المسلح ضد المنحرفين والمحرّفين من الفاسقين
والناكثين والمارقين، مضافاً إلى مواجهة الكفّار والمنافقين والأعداء
الظاهرين للدين.

المرحلة الثانية: مرحلة المعارضة السياسية الهدأة، أو الرفض
الوعي المسؤول للانحراف، في مواجهة الغموض والتزييف المغلّف
بشعارات الدين، ثمَّ بناء القاعدة الشعبية والجماعة الوعية القادرة على
حمل أعباء الرسالة لمواجهة الانحراف والتحريف اللذين طالا الواقع
الديني تحت شعارات إسلامية مزيّفة من النصوص الدينية.

وانطلاقاً من هذا التحول، كان على الإمام زين العابدين عليه السلام أن
يرسّخ في عقول الجماعة المؤمنة وضمائرها -المكلّفة بحفظ الإسلام-
عقيدة ونظاماً، شريعة ومنهاجاً- جملة من المبادئ الأساس:

١. ترسیخ ثوره الإمام الحسین صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فی وجдан الامّة باعتباره خرج للإصلاح فی امّة جده، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنکر، وداعياً إلی تحکیم دین الله، دون طلب سلطة أو جاه، ولم يخرج على "إمارة المؤمنین یزید" كما زعم، ولم یقصد تفکیک وحدة المسلمين، وبالتالي فقد استشهد بسیف أعداء الدين لا "بسیف جده" كما روّج الإعلام الرسمي آنذاك وبعض المؤرّخین حتى یومنا هذا^(١).
٢. بناء جماعة واعية وقاعدة شعیّة مؤھلة لحماية الرسالة ومبادئها من التزییف والتضليل، ومقاومة سياسة تسطیح الوعی التي طالت مساحات واسعة من المسلمين، فأصبحت الجماهیر عاجزة عن التميیز بين المفاهیم ومصادیقها، وبين الشعارات البراقة وضرورة تبییها، وبين الأصیل والدخیل، ما یسبّب الفتنة ویحجب الرؤیة الواضحة عن النفوس البریئة. التي تنجدب للشعارات السطحیّة.
٣. تعییق مفهوم الإمامة والولاية في نطاق الجماعة الخاصة بعد أن اهتزّ قناعات العامة تحت ضغط الإعلام المضاد

١ - صائب عبد الحميد: ابن تیمیة حیاته عقائده، ص ٣٩٠

وآلاته الإعلامية، وإيضاح الفجوة الكبيرة التي حدثت بفضل المرجعية الفكرية عن المرجعية السياسية والاجتماعية.

٤. العمل بدقة في مرحلة بالغة الحساسية؛ حيث كل حركة وسكنة محسوبة، وكل كلمة ونفس مُرصَد، مع ضرورة الموازنة بين ذلك وبين حملة إعلامية ودعوية معقدة لكشف المعالم الحقيقية للدين، بعيداً عن رقابة السلطة وعيونها وجوايسها المنتشرين في كل مكان. وبهذه الرؤية الاستراتيجية استطاع الإمام السجّاد عليهما أن يقود الأمة ويكمِل مسيرة الثورة ويحقق أهدافها، ولكن بأسلوب يتناسب مع طبيعة المرحلة وتعقيداتها، حتى دون أن يتسلّم سلطة سياسية أو حكماً رسمياً.

الفصل السابع:

الإمام محمد بن علي الباهر (عليه السلام)

يطلّ الإمام الباقر عليه السلام على تاريخ الإسلام بوصفه لحظة انبعاث معرفيٌّ تستعاد فيها النبوة منهجاً للفهم لا مجرد مروياتٍ تُحصى. طفولته وسمتها كربلاء، وشبابُ تشكّل في ظلّ انكسار عامٍ واحتقان سياسيٍّ، ثم إماماً اشتبتَك مع انحراف المذاهب والتيارات، فحوّلت جرح الطف إلى مدرسةٍ تُعيد ترتيب العلاقة بين النصّ والعقل والأخلاق. في سيرته المشخصة بالعبادة والزهد والجود، تتبدّى ملامح الإمام المعلم: يَجمعُ العلمَ ويُشْقِ طبقاته الكامنة، ويُقيّم للقرآن معياراً على الرواية، وللسنة ميزاناً على الفهم، وللأخلاق وظيفةً تربط الإنسان بالله قبل أن تربطه بالأَخرين.

يتتبّع هذا الفصل حركة الإمام الباقر عليه السلام بوصفها مشروعَ تأسيس: مواجهةُ الغلاة والمرجئة والمجرّبة والمفوضة لا بوصفهم خصوماتٍ مذهبيةٍ عابرةً، بل دفاعاً عن توحيد لا يُختزل في شعار، وشرعية لا تُدار بالقياس، ومعرفة لا تُستخرج بالهوى. ومن خلال رسم ملامح المدرسة العلمية لأهل البيت عليهم السلام في زمنٍ بلغ فيه الاضطراب الفكري ذروته، يضع الإمامُ خرائطَ طريق للاجتهداد: أصولٌ تُلقى، وتقريرٌ يُنطَّ بالفقهاء، ونصٌّ يُحتكمُ إليه، ومنهجٌ يربّي قبل أن يُفتقِي. وهكذا لا يصبح الإمام الباقر عليه السلام راوياً لعلمٍ محفوظٍ فحسب، بل صانعَ شرطٍ إمكانه في الوعي والواقع معًا.

المبحث الأول: سيرة عطرة

أولاً: نبذة تاريخية:

ولد الإمام محمد بن علي الباقي عليه السلام في المدينة المنورة يوم الاثنين، إما في الثالث من شهر صفر أو في الأول من شهر رجب سنة ٥٧ للهجرة. ينحدر من سلالة طاهرة، فأبواه هو الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وأمه هي السيدة فاطمة بنت الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، والتي كانت تُكنى بأم عبد الله واشتهرت بين الناس بتقوتها وفضائلها وعبادتها. وقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله فيها: «كانت صديقة لم يوجد في آل الحسن امرأة بمثل فضلها»^(١).

ثانياً: ألقابه وكنيته:

عرف الإمام عليه السلام بعدة ألقاب تدل على مكانته، منها: (الباقي)، و(الشاكر)، و(الهادي)، و(الأمين). أما كنيته فهي (أبو جعفر).

ثالثاً: نشأته وأحداث الطف:

شهد الإمام الباقر عليه السلام وهو في الرابعة أو الثالثة من عمره واقعة كربلاء الأليمة مع جده الإمام الحسين عليه السلام، ورافق قافلة السبايا في رحلتها من الكوفة إلى الشام، ثم في العودة إلى المدينة المنورة.

رابعاً: فترة الإمامة:

تولى منصب الإمامة بعد استشهاد والده الإمام السجاد عليه السلام، وامتدّت فترة إمامته تسعة عشر عاماً، من سنة ٩٥ هجرية حتى سنة ١٤٤ هجرية.

خامسًا: ذريته:

رُزق الإمام الباقر عليه السلام بسبعة أولاد بين ذكور وإناث، وهم: الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، وعبد الله بن محمد (وكانَتْ أمّهما أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر). وكذلك (إبراهيم) و(عيَّد الله) (وأمّهما أم حكيم بنت أسيد بن المعيرة الثقفيَّة)، مضافاً إلى (علي) و(زينب) و(أم سلمة) (وكانَتْ أمّهم أم ولد)^(١).

١ - الشیخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ج ٢، ص ١٧٦.

سادساً: وصيته ووفاته:

قبل استشهاده، أوصى الإمام عليه السلام بابنه الإمام جعفر الصادق عليه السلام خليفة وإماماً من بعده^(١). وافته المنية يوم الاثنين في السابع من شهر ذي الحجة سنة ١١٤ هجرية، عن عمر يناهز السادسة والخمسين عاماً، ودفن في مقبرة البقيع في المدينة المنورة إلى جوار قبر والده الإمام السجّاد عليه السلام.

المبحث الثاني: عبادته ودعاؤه وتقواه عليه السلام

تميّز الإمام الバاقر عليه السلام بأنّه كانَ أكثَرَ النَّاسِ عبادةً في عصره. ويروى عن (عبد الله بن يحيى) أنَّه قال: «رأيتُ على أبي جعفر محمدَ بن علي إزاراً أصفر اللون، وكانَ يؤدّي كلَ يوم وليلة خمسين ركعة تشمل الفرائض والنوازل»^(٢).

وكان عليه السلام يُعرف بعموديَّته لله -تعالى- اعترافاً شديداً، فقد رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «كانَ والدي يقولُ في جوف الليل: لقد أمرتني فلم أطعك، ونَهَيْتني فلم أنتِه، ها أنا عبدك بين يديك لا أعتذر»^(٣).

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٠٦.

٢ - شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٤٠٤.

٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٩٠.

الفصل السابع – المبحث الثاني ١٨٩

ويروى عن (إسحاق بن عمار) أَنَّه قال: «قال لِي أَبُو عبد الله عليه السلام: كنت أَهِيئ لوالدي فراشه وأَتَظَرُه حتَّى يَأْتِي، فَإِذَا اضطَجعَ ونَامَ ذَهَبَ إِلَى فراشي. وفي إحدى الليلَاتِ تَأَخَّرَ عَنْ موَعِدِهِ، فَذَهَبَتْ أَبْحَثُ عَنْهُ فِي الْمَسْجِدِ بَعْدَ أَنْ هَدَأَ النَّاسُ، فَوَجَدَتْهُ ساجِدًا وحيدًا فِي الْمَسْجِدِ، وَسَمِعَتْهُ وَهُوَ يَبْكِي وَيَقُولُ: سِبْحَانَكَ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي حَقًّا، سَجَدْتُ لَكَ تَعْبُدًا وَخَشْوَعًا. اللَّهُمَّ إِنَّ عَمَلي قَلِيلٌ وَضَعِيفٌ فَضَاعَفْتُ أَجْرِي. اللَّهُمَّ نَجِّنِي مِنْ عَذَابِكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ، وَتَقْبَلْ تَوْبَتِي إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيم»^(١).

وَأَمَّا اهتمامه بشيعته ودعاؤه لهم، فقد أَوْلَى الْإِمَام عليه السلام شيعته ومحبيه عناية خاصةً، وكان من أدعيته من أجلهم: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، يَا ذَا الْعَطَاءِ غَيْرِ الْمُتَبَاطِئِ، يَا أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، اجْعَلْ لِشَيْعَتِي وَقَايَةً مِنَ النَّارِ، وَأَرْضَ عَنْهُمْ، وَاغْفِرْ ذُنُوبَهُمْ، وَيُسِّرْ أَمْوَالَهُمْ، وَأَدِّ دِيُونَهُمْ، وَاسْتَرْ عَيُوبَهُمْ، وَاغْفِرْ لَهُمُ الذُّنُوبُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ. يَا مَنْ لَا يُظْلَمُ وَلَا يُغْفَلُ وَلَا يَنْامُ، اجْعَلْ لِي مِنْ كُلِّ هُمْ فَرْجًا وَمَخْرَجًا»^(٢).

١ - الشِّيخُ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَفِيدِ: الْمَقْنَعَةُ، ص ٤٣٠.

٢ - الشِّيخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلَيِّ بْنِ بَابُوِيِّهِ (الشِّيخُ الصَّدُوقُ): عَيْنُ أَخْبَارِ الرَّضا عليه السلام، ج ١، ص ٦٣.

المبحث الثالث: مكارم أخلاقه وسجاياه

جَسَدُ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ الْكَلَامُ قِيمُ الْإِسْلَامِ السَّامِيَّةِ فِي سُلُوكِهِ، فَكَانَ جَوادًا كَرِيمًا، يَبْذِلُ مَا فِي يَدِهِ لِلْمُحْتَاجِينَ، مُشَهُورًا بِالسُّخَاءِ وَالْجُودِ بَيْنَ خَاصِّتِهِ وَعَامَّةِ النَّاسِ، وَمُعْرُوفًا بِالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ رَغْمَ كُثْرَةِ مَنْ يَعُولُ وَتَوَاضُعُ حَالَهُ الْمَادِيِّ. وَيَرَوِيُّ عَنْ (الْحَسْنِ بْنِ كَثِيرٍ) أَنَّهُ قَالَ: شَكُوتُ إِلَى أَبِي جَعْفَرِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلَيْهِ الْكَلَامُ حَاجِتِي وَجَفَاءُ الْإِخْرَانِ، فَقَالَ: «بَئْسَ الْأُخْرُ الذِّي يَصَاحِبُكَ غَنِيًّا وَيَبْتَعِدُ عَنْكَ فَقِيرًا». ثُمَّ أَمَرَ غَلامًا فَأَحْضَرَ كِيسًا فِيهِ سِبْعَمِائَةِ دَرْهَمٍ وَقَالَ: «أَنْفَقْ هَذِهِ، فَإِذَا انتَهَتْ فَأَخْبِرْنِي»^(١). وَكَانَ لَا يَمْلِلُ مِنْ مُواصِلَةِ الْإِحْسَانِ إِلَى إِخْرَانِهِ وَزَوْرَاهُ وَكُلَّ مَنْ يَرْجُوهُ^(٢). وَفِي مَوْقِفٍ آخَرَ يَظْهَرُ خُلُقُهُ الْحَسِنِ، الَّذِي كَانَ سَبِيلًا فِي اسْتِمَالَةِ قُلُوبِ النَّاسِ حَتَّى أَصْبَحُوا مِنْ أَتَابِعِهِ وَمَحْبِيهِ. فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ كَانَ يَحْضُرُ مَجْلِسَ الْإِمَامِ عَلَيْهِ الْكَلَامُ فِي الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ يَوْمًا: «يَا مُحَمَّدَ، اعْلَمُ أَنَّنِي أَحْضَرْ مَجْلِسَكَ حِيَاءً مِنْكَ، وَلَيْسَ لَأَنِّي أَحْبُّكَ، وَلَا أَجِدُ عَلَى الْأَرْضِ أَحَدًا أَبْغَضُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، وَأَعْتَقْدُ أَنَّ طَاعَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ تَكُونُ فِي بُغْضِكُمْ. وَلَكَنِّي أَرَاكَ رَجُلًا فَصِيحًا، مَهْدِبًا وَحَسِنَ

١ - الشِّيخُ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَفِيدِ: الْإِرْشَادُ، ج٢، ص١٦٦.

٢ - الشِّيخُ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَفِيدِ: الْإِرْشَادُ، ج٢، ص١٦٦.

ال الحديث، وإنما أحضر لأدبك». فكان أبو جعفر عليه السلام يرد عليه بالخير ويقول: «لن تخفي على الله خافية». ولم يمض وقت طويلا حتى مرض الرجل الشامي مرضًا شديداً، أوصى غلامه إذا مات أن يتولى الإمام الباقي عليه السلام الصلاة عليه. وعندما ظنوا أنه مات، ذهب الغلام إلى الإمام عليه السلام، لكنَّ الإمام أخبره بأنَّ صاحبه لم يمت بل هو في سكرات المرض. فذهب الإمام عليه السلام إلى داره، وأمرهم بعلاجه، ثم صلَّى ركعتين، فلم يلبث الرجل إلا قليلاً حتى شُفِيَ . فجاء إلى أبي جعفر عليه السلام وقال له على انفراد: «أشهد أنك حجَّة الله على خلقه، وبابه الذي يؤتى منه، فمن لم يأت من عندك خاب وخسر وضلَّ ضلالاً بعيداً». فقال له أبو جعفر عليه السلام: «أما علمت أنَّ الله قد يحبَّ العبد ويكره عمله، وقد يكره العبد ويحبَّ عمله؟». فأصبح الرجل بعد ذلك من أخلص أصحاب الإمام عليه السلام^(١).

المبحث الرابع: العوامل المؤثرة في عصر الإمام الباقي عليه السلام

يمكن إيجاز أبرز العوامل التي شكلت ملامح تلك الحقبة التاريخية في النقاط الآتية:

١ - محمد بن الحسن الطوسي: الأموali، ص ٤١١ (بتصريف).

١. سيطرة مناخ الخوف والرعب على مختلف أرجاء العالم الإسلامي، خاصةً بعد أحداث ”وقعة الحرّة“ الأليمة.

٢. التراجع الفكري والثقافي الذي أصاب معظم أفراد المجتمع الإسلامي، نتيجة الابتعاد عن المنهج الديني الأصيل على مدى سنوات طويلة.

٣. تفشي ظاهرة الفساد السياسي بين صفوف الحكام على المستويين النظري والتطبيقي.

في خضم هذه الظروف الصعبة، شرع الإمام السجاد عليهما السلام في العمل الدؤوب والمتواصل -كما أسلفنا-، ليواصل من بعده ابنه الإمام الباقر عليهما السلام المسيرة نفسها. وقد شهد عهد الإمام الباقر عليهما السلام تحسناً نسبياً في الأجواء بالمقارنة مع السابق، وذلك بناء على الجهد المضني التي بذلها الإمام زين العابدين عليهما السلام.

إلى جانب ما سبق، بلغت حالة الانحراف في عصر الإمام الباقر عليهما السلام ذروتها، سواء على صعيد نظام الحكم والسلطة أم على المستوى العقدي والديني والثقافي. فقد تحول الحكم إلى كتلة متراسمة من الظلم والجور، بينما أصبحت العقائد والمفاهيم الدينية عرضة للأهواء الشخصية، فتكاثرت المدارس الفكرية، وتنوعت المناهج، وتعمقت الخلافات الأيديولوجية.

وفي هذا السياق، يمكن الإشارة إلى بعض التيارات المنحرفة التي واجهها الإمام علي عليهما ووقف ضدّ أفكارها:

١. الغلاة: وقد نشطوا تحت قيادة (المغيرة بن سعيد)، الذي قال

عنه الإمام الصادق عليهما: «لعن الله المغيرة بن سعيد، فإنَّه كانَ يفتري الكذب على أبي»^(١).

٢. المجبرة: وهم الذين قالوا بنظرية الجبر الملزمة، والتي تنفي في جوهرها النبوَّات والتکاليف الشرعية. وقد اتفق معظم مؤرِّخي فرق "المجسّمة" على ذكرهم، بينما قلَّ من صرَّح بکفرهم^(٢).

٣. المفوَّضة: وهم الذين يقابلون المجبرة في الرأي؛ حيث يقولون بتفويض الله أمر العباد إليهم بالكامل. وحال هؤلاء يشبه حال المجبرة في الانحراف^(٣). وقد رُوي عن الإمام الباقر عليهما تحذيره من هذا الفكر: «إيّاك أنْ تقول بـالتُّفْوِيْضِ، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يفوَّض الأمر إلى خلقه عجزاً منه

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ٢٩٧.

٢ - محمد علي الأنصاري: الموسوعة الفقهية الميسرة، ج ٢، ص ٢١.

٣ - محمد علي الأنصاري: الموسوعة الفقهية الميسرة، ج ٢، ص ٢٢..

وَضَعْفًا، وَلَا أَجْرَهُمْ عَلَى مَعَاصِيهِ ظَلْمًا مِّنْهُ»^(١).

٤. المُرجِئة: وهي تسمية مشتقة من "الإرجاء" بمعنى التأخير. فهم يعتقدون أنَّ جميع أهل القبلة مؤمنون، وأنَّ الله -تعالى- قد أخَّرَ عقابهم على المعاصي أو أَسْقَطَهُمْ^(٢). وقد حذَّر الإمام عليه السلام منهم قائلاً: «اللَّهُمَّ اعْنُنِي عَنِ الْمَرْجَأَةِ فَإِنَّهُمْ أَعْدَّوْنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٣).

المبحث الخامس: إسهام الإمام الباقر عليه السلام في تأسيس المدرسة العلمية لأهل البيت عليهم السلام

عاصر الإمام الباقر عليه السلام مرحلة حاسمة وخطيرة في تاريخ الأمة الإسلامية ومسيرتها، خلال ذروة الصراع على السلطة في العهد الأموي بشقيه السفياني والمرواني. وقد تميزَت تلك الحقبة بحملة منهجية شاملة لتبني الرأي العام الإسلامي ضد أهل البيت عليهم السلام، مستخدمة

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥، ص ١٧.

٢ - راجع: فخر الدين الطريحي: مجمع البحرين، ج ١، ص ١٧٧؛ الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ج ١، ص ٢٦.

٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٩٢.

وسائل الدعاية والإغراء المادي والمعنوي؛ حيث أصبح إظهار العداء لنهج أهل البيت عليهم السلام شرطاً لتجنُّب الاضطهاد والظلم والقمع، والذي كان مصيره في كثير من الأحيان الإعدام.

ومع كل هذه الأجواء القمعية، فإنَّه قد تيسَّر هامش من الحرية النسبيَّة نتيجة انشغال النظام الأموي بصراعاته الداخلية على السلطة، فضلاً عن الثورات المتلاحقة التي اندلعت بعد واقعة كربلاء وأسهمت في إضعاف السلطة الأمويَّة.

استمر الإمام الباقر عليه السلام هذه الظروف المتاحة، وحدَّ لنفسه مساراً واضحاً يستند إلى نهج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إبلاغ الرسالة الإسلاميَّة. فقام ببيان أحكام الشريعة، ومعالجة الانحرافات العلميَّة والفكريَّة التي تسلَّلت إلى الدين الإسلامي في ذلك العصر، ووضع الأسس للمنهج العلمي السليم لفهم الإسلام. وتمثل دوره المحوري في عدَّة محاور رئيسة هي:

أولاً: الإمام الباقر عليه السلام.. مرجعية علميَّة رائدة:

لقد وصف (ابن حجر) الإمام محمد الباقر عليه السلام في ترجمته له قائلاً: “لُقِّب بـ“الباقر” لأنَّه بقر العلم بمعنى شَقَّه وأظهر خبایاه وأسراره، فكما يشقَّ المحراث الأرض ليُخرج كنوزها، فقد كشفَ عليه السلام عن كنوز

المعارف وحقائق الأحكام واللطائف الشرعية التي لا يدركها إلا ذو بصيرة النافذة والنبيّة الصافية. وقد اشتهر عليهما بأنّه باقر العلم وجامعه، وناشره، ورافع رايته^(١).

وتدلّ على سعة علومه أنّه رغم استفادة العلماء الواسعة من معارفه، كان يشعر بضيق وحزن بسبب كثرة العلوم التي يمتلكها ولم يجد فرصة لنشرها، فكان يقول: ”لو وجدت من يحمل علمي الذي منحني إياه الله عزّ وجلّ، لنشرت التوحيد والإسلام والدين والشرع... ولكن كيف لي بذلك، ولم يجد جديّ أمير المؤمنين عليهما من يحمل علمه حتى كان يتنفس الصعداء ويقول: ”لو وجدت حملة لعلمي الذي آتاني الله عزّ وجلّ، لنشرت التوحيد والإسلام والدين والشرع...“ وكيف لي بذلك، ولم يجد جديّ أمير المؤمنين عليهما حملة لعلمه حتى كان يتنفس الصعداء ويقول على المنبر: سلوني قبل أن تفقدوني فإنّ بين الجوانح علمًا جمّاً...“^(٢).

وكان عليهما محظّ أنظار العلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامي، ولم يزر أحد المدينة إلا وتوجه إلى بيت الإمام محمد باقر عليهما لأخذ العلم

١ - ابن حجر العسقلاني: الصواعق المحرقة، ص ٢٠١.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٢٥.

منه. وقد توافد عليه أئمَّةُ الفقه وكتاب العلماء؛ حيث حظي بشهرة علميَّةً واسعة في عصره، فكان مجلسه يجج دائمًا بالوافدين من مختلف أطراف العالم الإسلامي^(١). وكانت مكانته العلميَّة تجذب كثيرين للاستفادة منه في حل المعضلات العلميَّة والفقهيَّة التي تواجههم. وقد أُعجب به أهل العراق خاصَّةً، وكان الوافدون عليه يظهرون احترامًا وتقديرًا كبيرين لشخصيَّته العلميَّة، حتى أنَّ عبد الله بن عطاء المكيَّ قال: «ما رأيتُ العلماء أبدًا يظهرون التواضع عند أحد كما يظهرونه عند أبي جعفر». لقد رأيت الحكم بن عيينة مع مكانته الكبيرة بين الناس يكون أمامه كالصبي أمام معلمٍ»^(٢). وقد أخذ عنه الفقهاء أحكام الحلال والحرام الظاهريَّة^(٣). وكان الليلة واسع العلم غزير الحلم^(٤)، حتى أنَّ هشام بن عبد الملك) وصفه بأنَّ «نبي الكوفة» عندما سأله (الأبرش الكلبي): «من هذا الذي احتشد حوله أهل العراق يسألونه؟ فأجاب: هذا نبي الكوفة، يزعم أنَّه ابن رسول الله عليه السلام وباقر العلم ومفسِّر القرآن»^(٥).

١ - محمد أبو زهرة: الإمام الصادق (حياته وعصره، آراؤه وفقهه)، ص ٢٢.

٢ - الشیخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ص. ص ٢٨٢-٢٨٠.

٣ - باقر شریف القرشی: حیاة الإمام الباقر، ج ١، ص ١٣٩.

٤ - جمال الحسینی (ابن عتبة): عملة الطالب في أنساب آل أبي طالب، ص ١٩٥.

٥ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٥٠.

ثانيًا: التركيز على الجانب الخلقي والتربوي:

وضع الإمام عليه السلام الأسس المتينة للنظام الخلقي الشامل، الذي ينظم حياة الفرد والمجتمع. وفي ما يأتي إشارة موجزة إلى بعض جوانبه:

١. الحث على الصفات الحميدة: فقد شجع عليه السلام على التدريب

في مسالك الأخلاق الفاضلة، وضرورة اتصفاف النفس

بالخصال الحسنة؛ حيث قال: «عليكم بالورع والاجتهاد،

وصدق الحديث، وأداء الأمانة إلى من ائتمنكم عليها برًا كان

أو فاجرًا؛ فلو أن قاتل علي بن أبي طالب عليه السلام ائتمني على

أمانة لأديتها»^(١).

٢. فضل حسن الخلق: وغرس في النفوس محبة الرفق وحسن

المعاملة، مؤكّداً أنَّ: «من أُعطي الخلق والرفق فقد أُعطي

الخير كلَّه، والراحة، وحسن حاله في دنياه وأخرته. ومن حُرم

الرفق والخلق كان ذلك له سبِيلًا إلى كل شر وبلية إلا من

عصيمه الله تعالى»^(٢).

٣. ربط العلاقات بالله تعالى: وحثَ عليه السلام على أن تقوم الروابط

والعلاقات بين الناس على أساس القرب من الله أو البعد

١ - الحسن بن علي بن شعبة الحراني: تحف العقول عن آل الرسول، ص ٢٩٩.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٨٦.

الفصل السابع - المبحث الخامس ١٩٩

عنه، مستشهاداً بأحاديث لرسول الله ﷺ تؤكد هذا المبدأ، منها قوله: «وَدُّ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ فِي اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ شَعْبِ الْإِيمَانِ، وَمَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَأَعْطَى فِي اللَّهِ، وَمَنْعَ فِي اللَّهِ، فَهُوَ مِنْ أَصْفَيَا اللَّهِ»^(١).

٤. ذم إكراه الفاسق: ونقل عليه عن رسول الله ﷺ تحذيره من إكراه أهل الشر خشية أذاهם، فقال: «أَلَا إِنَّ شَرَارَ أُمَّتِي الَّذِينَ يُكَرِّمُونَ مِخَافَةَ شَرِّهِمْ، أَلَا وَإِنَّ مِنْ أَكْرَمِهِ النَّاسَ اتَّقاءَ شَرِّهِ فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢).

٥. الحضن على الأدب: حيث حث أتباعه على التمسك بحسن الأدب والسيرية الطيبة، قائلاً: «مَا اسْتَوَى رِجْلَانِ فِي حَسْبِ وَدِينِ قَطْ إِلَّا كَانَ أَفْضَلُهُمَا عِنْدَ اللَّهِ آدْبَهُمَا»^(٣).

٦. أهمية الزهد: وروى عليه عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام قوله الذي يبين فضل الزهد: «إِنَّ مِنْ أَعْوَنِ الْأَخْلَاقِ عَلَى الدِّينِ الزَّهْدُ فِي الدِّينِ»^(٤). فقد حث الإمام (عليه السلام

١ - محمد بن الحسن (الحرّ العاملي): وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٦٦.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٧٢.

٣ - محمد بن الحسن (الحرّ العاملي): وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢٢١.

٤ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٢، ص ١٢٨.

أتبعه على التحلّي بالأخلاق الفاضلة، موضحاً أنَّ أساسها العبادة واللجوء إلى الله طلباً للمعونة، فقال: «ما من عبادة أفضل من عفة بطن وفرج، وما من شيء أحبُّ إلى الله من أن يُسأل، وما يدفع القضاء إلَّا الدعاء، وإن أسرع الخير ثواباً البر...»^(١).

٧. الصلة الوثيقة بالله تعالى: بين الإمام عليه السلام أنَّ الصلة الدائمة بالله والانقياد له والعزم على طاعته تُنقّي القلوب وتتركي النفوس، مؤكداً أن: «من يعص الله لا يعرف حقَّ المعرفة». فالمعرفة الحقيقية تولَّد المحبة، والمحبة الصادقة تمنع المرء من معصية من يحبُّ. قال عليه السلام: «ما عرف الله من عصاه»^(٢).

٨. الاعتراف بالخطأ والعودة إلى الله: يهدف منهج أهل البيت عليهم السلام إلى معالجة النفوس وإيقاظ جوانب الخير فيها، ومحاربة دوافع الشرّ والضعف والغفلة. وقال الإمام عليه السلام: «والله لا ينجو من الذنب إلَّا من أفرَّ به». ^(٣) فالنوبة تمحُّ الآثام وتمكّن الإنسان من العودة إلى طريق الاستقامة من

١ - ابن الصباغ: الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، ج ٢، ص ٨٨٥.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٧٤.

٣ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٤٢٦.

الفصل السابع - المبحث الخامس ٢٠١

جديد، وقال في ذلك: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، ومن يصرّ على الذنب وهو يستغفر منه كالمستهزيء»^(١).

٩. تعميق الشعور بالحياة: أكد الإمام عليه السلام على ضرورة أن يتسلح الإنسان بضابط داخلي يردعه عن فعل القبيح، وهو الحياء، الذي يمثل حصانة قوية تمنع الأهواء والشهوات من الانطلاق بلا قيود. فقال عليه السلام: «الحياء والإيمان مقرونان في قرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه»^(٢).

ثالثاً: العلم والتعلم .. ركيزان رئستان:
شجع الإمام عليه السلام على السعي لطلب العلم، ولا سيما علم الفقه، معتبراً أنَّ «غاية الكمال تكمن في التفقه في الدين، والصبر على المصائب، وحسن تدبير المعيشة»^(٣).

واهتم عليه السلام بنشر العلم وتعليمه للناس، قائلاً: «من علم الناس طريق هدى فله مثل أجر كل من عمل به، دون أن ينقص من أجورهم

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦، ص ٤١.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٢، ص ١٠٦.

٣ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٢.

شيء»^(١)، وجعل للعلم زكاة يؤدّيها العالم فقال: «زكاة العلم أن تعلّمه عباد الله»^(٢).

رابعاً: إعداد الفقهاء والمحدثين:

لم يكتف الإمام الليث بحفظ الدين بما فيه من تفسير وتفصيل في الأحاديث ووضع القواعد المساعدة على الفهم، بل نجده اهتمّ بتربيّة ثلاثة من الأصحاب وحملة الحديث جعلهم يتفرّغون لذلك، ومن بينهم (إبراهيم بن نعيم العبداني)، و(الحسن بن علي الأحرمي الكوفي)، و(إبراهيم بن معرض الكوفي)، و(حمد بن بشير الطنافسي الكوفي)، و(إبراهيم بن عمر الصناعي اليماني)، و(إسماعيل بن جابر الخثعمي الكوفي بشير)، و(أبو عبد الصمد بن بشير الكوفي)، وبكير بن أعين بن سنسن الشيباني)، وغيرهم كثير^(٣).

وعهد إلى ابنه الإمام الصادق الليث أن يتولّ القيام بنفقاتهم حتى تخرّجت على يديه كوكبة من عيون الفقهاء والعلماء. ويُذكرهم الإمام الصادق الليث بقوله: «كان أصحابُ أبي والله خيراً منكم، كان أصحابُ

١ - محمد بن الحسن (الحر العاملي): وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٧٣.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي ج ١، ص ٤١.

٣ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ١٢٧.

أبِي ورقاء لا شوك فيه^(١). وقد ذكرت كتب التراجم ترجمة أربعينَةَ واثنين وثمانين شخصاً من تلامذته وأصحابه، منهم العظامُاءُ أمثالَ (أبان بن تغلب) الذي قال له الإمام عليه السلام: "اجلس في مسجد المدينة، وأفت الناس فإنني أحب أن يرى في شيعتي مثلك"^(٢).

خامساً: القرآن الكريم.. دستور العقيدة والمنهج الهايدي:
حضر الإمام الباقي عليه السلام المؤمنين على المداومة على تلاوة كتاب الله العزيز؛ إذ يعد المصدر الأساس والدستور الخالد الذي يهدي الناس إلى الصراط المستقيم. وقد روى (أبو بصير) أنه قال للإمام عليه السلام: عندما أرفع صوتي بتلاوة القرآن، يأتيني الشيطان ويوسوس لي بأنّ فعلي هذا رباءً لأهلي والناس، فرد عليه الإمام عليه السلام قائلاً: "يا أبا محمد اقرأ قراءة ما بين القراءتين تسمع أهلك، ورجع بالقرآن صوتك فإن الله يحب الصوت الحسن يرجع فيه ترجيحاً"^(٣).

كما أبدى الإمام عليه السلام رفضه القاطع للمنهج التفسيري القائم على

١ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الكشي (اختيار معرفة الرجال)، ج ٢، ص ٦٣٩.

٢ - محمد بن الحسن (الحر العاملي): وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٣١٧.

٣ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٦١٦.

الآراء الشخصية والهوى، فحين دخل عليه الفقيه المشهور (قتادة)، سأله الإمام عليه السلام: «أنت فقيه أهل البصرة؟» فأجاب (قتادة): «نعم، هكذا يزعمون»، فقال الإمام عليه السلام: «بلغني أنك تفسر القرآن»، فأكَّدَ (قتادة) ذلك، فأنكر الإمام عليه منهجه قائلاً: «يا قتادة إن كُنْتَ قد فسَّرتَ القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وإن كُنْتَ قد فسَّرْتَه من الرجال فقد هلكت وأهلكت، يا قتادة، ويحك، إنما يعرف القرآن من خطوب به»^(١).

سادساً: موقع السنة الشريفة وأهميتها في فهم الدين:
أولى الإمام الباقي عليه السلام الحديث النبوي اهتماماً بالغاً، حتى إنْ (جابر بن يزيد الجعفي) قد روى عنه ما يزيد عن سبعين ألف حديث. كما نقل عنه مجموعة كبيرة من تلاميذه وأصحابه، مثل (أبان بن تغلب)، قدرًا ضخماً من هذا التراث الثمين^(٢).

ولم يقتصر دور الإمام عليه السلام على مجرد نقل الحديث ونشره، بل حثّ على التعمق في فهمه وإدراك مراميه، حتى جعل معيار تفاضل الرواية

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٨، ص ٣١١.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ١٤٠.

وقيمة هو مدى فهمه للحديث وإحاطته بمعانيه ودقائقه. وقد ورد عنه قوله: «اعرف منازل الشيعة على قدر روایتهم ومعرفتهم، فإنّ المعرفة هي الدرأة للرواية، وبالدرأة للرواية يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان»^(١).

سابعاً: نقية العقيدة وتصححها:

تناول الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام في عدد من دروسه وحواراته المسائل العقدية والمعقدة، وأجاب عن أعو奇妙 الأسئلة وأدفأها في علم الكلام. وقد سأله رجل قائلاً: أخبرني عن ربّك متى كان؟ فردَ عليه الإمام عليه السلام قائلاً: «ويلك! إنما يقال لشيء لم يكن متى كان؟ إنَّ ربَّي تبارك وتعالى كان ولم يزل حيًّا بلا كيف، ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كون. كيف! ولا كان له أين، ولا كان في شيء، ولا كان على شيء، ولا ابتدع لمكانه مكاناً، ولا قوي بعدهما كون الأشياء، ولا كان ضعيفاً قبل أن يكون شيئاً...»^(٢).

١ - القرشى: حياة الإمام محمد الباقر، ص.ص. ١٤٠-١٤١.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص.ص. ٨٨-٨٩.

الفصل الثامن:

الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام

مع الإمام الصادق عليه السلام تدخل مدرسة أهل البيت طور الازدهار المؤسس: انكسار الدولة الأموية، وارتفاع قبضة المراقبة، وصراع شرعيات يتنازع موضع «النطق باسم الدين». في هذا الفراغ تشكلّ جامعة حيّة للعلم: حلقاتُ حديث وفقه وكلامٌ وتفسير، تلتقي فيها العقول من المذاهب والأفاق، ويُعاد فيها بناءً المنهج من الداخل: مرجعية النصّ، ونقدُ القياس، وتقعيدُ الأصول، وتمرينُ الذهن على حلّ التعارض وضبط الاستدلال.

لا يقدم الإمام الصادق عليه السلام معرفةً بلا عبادة، ولا عبادةً بلا أخلاق. يعلم خشوعه حدودَ القول في حضرة الحقّ، ويُشيد حلمه أخلاقَ الاختلاف، ويربط سخاؤه العلم بمقاصده. ومن موقع المرجعية المتجاوزة للانتماءات الضيقّة، تخاض معاركُ التصحيح الهدائى: ليس استعراضَ غلبةً في مناظرة، بل ترميمًا لبنيّة الفهم، وتحريراً للفتيا من رطانة الظنّ، وتوسيعاً لدوائر التعلّم إلى حيث تصبح المدينةُ منبراً مفتوحاً، وبيتُ الإمام مختبراً دائمًا لإنتاج العلم.

يرصد هذا الفصل هذا التحول: من «نصٌّ يُسمع» إلى «منهجٍ يُدرَّس»، ومن «تلقي الرواية» إلى «درأة الرواية».

المبحث الأول: سيرة ذاتية مضيئة

أولاً: لمحة موجزة عن حياته المباركة عليه السلام:

ولد الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في المدينة المنورة في السابع عشر من ربيع الأول سنة ٨٣ للهجرة، الموافق لـ ١٤٧ هـ. وقد حظيت ولادته ببركة خاصة إذ وافقت تاريخ مولد جده رسول الله عليه السلام. أبوه هو الإمام محمد الباقر عليه السلام، وأمه السيدة (فاطمة بنت القاسم)، والتي كانت تُكنى بـ (أم فروة). وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله عنها: «كانت أمي من آمنت واتقنت وأحسنت، والله يحب المحسنين»^(١)، حتى أنه كان يُعرف بين الناس بـ «ابن المكرمة»^(٢).

تولى الإمامة بعد استشهاد والده الإمام الباقر عليه السلام بناءً على وصيته، وامتدَّت فترة إمامته لنحو ٣٤ عاماً، من سنة ١١٤ هـ حتى سنة ١٤٨ هـ. وُعرف الإمام عليه السلام بعدة ألقاب لقب بها، منها: الصابر، والفضل، والطاهر، وأشهرها جميعاً هو «الصادق». كما كان له كنيتان هما: أبو

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٩٣.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٦٧.

عبد الله وأبو إسماعيل، وأشهرهما أبو عبد الله. ورُزق الإمام الصادق عليهما عشرة أولاد بين ذكور وإناث، وهم: الإمام موسى الكاظم عليهما (وأمها أم ولد)، وإسماعيل)، و(عبد الله)، و(أم فروة) (وأمهم فاطمة بنت الحسين الأثير)، و(إسحاق)، و(محمد)، و(العباس)، و(علي)، و(أسماء)، و(فاطمة) وأمهاتهم أم ولد^(١). وقيل استشهاده، أوصى بالإمامية من بعده لابنه الإمام موسى الكاظم عليهما^(٢). ووفقاً للروايات التاريخية، لقي الإمام عليهما حتفه مسموماً في شهر شوال سنة ١٤٨ هـ بأمر من الخليفة العباسي (المنصور)، عن عمر ناهز الخامسة والستين عاماً. ودفن عليهما في مقبرة البقع في المدينة المنورة، إلى جوار آبائه الطاهرين عليهما.

ثانيًا: تديّنه وفضائل أخلاقه ومحاسنها:

تميز الإمام الصادق عليهما بعلو أخلاقه ونبليها، حتى فاقت مناقبه حد الإحساء، وأعجزت الوصف. ومن أبرز مواقفه في العفو ما نُقل عن رجل جاء إليه فقال: إن ابنَ عمكَ فلاناً قد ذكرك بسوء، ولم يترك قبيحاً

١ - راجع: الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ج ٢، ص ٢٠٩؛ الفضل بن الحسن الطبرسي، تاج الموليد، ص ٤٥.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٠٧.

من الشتم والانتقاد إلا ونطق به في حقه. فما كان من الإمام عليه السلام إلا أن طلب من جاريته ماء للوضوء، ثم توضأ ودخل مصلاه. ظنّ الراوي أنه سيدعو على ذلك الشخص، لكنه صلى ركعتين ثم قال: «اللهم إله قد أساء إلي، وأنا قد وهبت حقّي له، وأنت أجود مني وأكرم، فاعف عنه ولا تؤاخذه بما قال في». ثم أخذ في الدعاء حتى تعجب الحاضر من شأنه^(١).

أما عن شدّة عبادته وتقواه، فقد رُوي أنّه كان يسبّح الله وهو في حالة الركوع ستين تسبيحة. فقد روى (أبان بن تغلب) أنّه دخل على الإمام أبي عبد الله عليه السلام أثناء صلاته، فعدّ له في الركوع والسجود ستين تسبيحة^(٢).

ولم يكن هذا الأمر خافياً على معاصريه، حتى إنّ (مالك بن أنس) -إمام المذهب المالكي- قال عنه: «ما رأيت جعفر بن محمد إلا على إحدى ثلاث حالات: إما صائمًا، وإما قائمًا يصلي، وإما يذكر الله. وكان من أعبد الناس وأورعهم، يهابه المرء لمخافته الله عزّ وجلّ. وكان كثير الحديث، طيب الصحبة، كثير العلم، فإذا قال: قال رسول

١ - الفضل بن الحسن الطبرسي: مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، ص ٣٨٠.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٢٩.

الله، تغيّر لونه حتى يصفر أحياناً ويحضر أحياناً، فلا يعرفه من يعرفه“.
ويضيف (مالك بن أنس) في شهادة أخرى: ”صحبته في حجّة، فلما
أراد أن يهيل بالتلبية ويدأ مناسك الحجّ، كلما همّ أن يقول ’لبّيَك اللهم
لبّيَك‘، انقطع الصوت في حلقه وكاد يسقط من على دابّته من شدة
الخشية. فقلت له: يا ابن رسول الله، لا بدّ لك من التلبية. فأجابني
اللهُمَّ: (كيف أجرؤ على قول لبّيَك، وأخشي أن يقول الله لي: لا لبّيَك
ولا سعديك“^(١).

ثالثاً: نفحات من عطائه العلمي:

تكشف الشهادات التاريخية عن المكانة العلمية الرفيعة التي تمت بها الإمام جعفر الصادق عليهما بين معاصريه. فقد وصفه (كمال الدين محمد بن طلحة) بقوله: "كان من أعظم شخصيات أهل البيت عليهم السلام، جمع علوماً واسعة، وواظب على العبادة، وأدام تلاوة القرآن، وتفكر في معانيه، واستخرج كنوزه، واكتشف أسراره، ونظم أوقاته لأنواع الطاعات حتى كان يحاسب نفسه عليها. منظره يذكر بالآخرة، وكلامه يزهد في الدنيا، واتباع منهجه يوصل إلى الجنة. نور محياه يشهد بنسبه النبوى،

١ - محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): الخصال، ص ١٦٧.

وطهارة سلوكه تدل على انتسابه للرسالة“.

وقد تلمند على يديه عدد كبير من علماء المذاهب المختلفة، ومن أبرزهم: (يحيى بن سعيد الأنصاري)، و(ابن جريح)، و(مالك بنأنس)، و(السفويانيين) -الثوري وابن عبيدة-، و(أبو حنيفة النعمان)، و(أبي السختياني)، وغيرهم. وكان هؤلاء العلماء يعتبرون الأخذ عنه شرفاً عظيمًا وفضيلة كبرى^(١).

كما برع من بين تلامذته عدد من كبار علماء الإمامية، مثل: (أبان بن تغلب)، و(إسحاق بن عمار)، و(بريد بن معاوية العجلي)، و(حريز بن عبد الله السجستاني)، و(حرمان بن أعين الشيباني)، و(زراة بن أعين)، و(صفوان بن مهران)، وغيرهم كثير^(٢).

وتتجدر الإشارة إلى أنَّ علماء الفرق الإسلامية أجمعوا على اعتراضهم بسعة علم الإمام الصادق عليه السلام وتفوُّقه العلمي. ومن الشواهد على ذلك ما رُوي عن (أبي حنيفة) عندما استدعاه الخليفة المنصور لاختبار الإمام الصادق عليه السلام؛ حيث قال: ”هيأت له أربعين مسألة عويصة، فلما دخلت عليه هبته أكثر مما هبَّ المنصور نفسه. ثم بدأت ألقى عليه

١ - أبو الحسن الأربيلي: كشف الغمة في معروفة الأئمة، ج ٢، ص ٣٦٨.

٢ - راجع: محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ١٥٥.

الأسئلة، فكان يجيب عن كل مسألة بقوله: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا... حتى أتيت على الأربعين مسألة فأجاب عنها جميعاً». ثم علق (أبو حنيفة) بعد هذه الواقعة قائلاً: «أليس أعلم الناس أعلمهم باختلاف العلماء؟!»^(١).

لقد نقل الرواة عن الإمام الصادق عليه السلام من العلوم ما ملأ الآفاق، وانتشر ذكره في كل الأقطار، ولم ينقل عن أي أحد من أهل بيته من العلوم ما نقل عنه^(٢).

المبحث الثاني: السياق التارخي لعصر الإمام الصادق عليه السلام

يُمثل العصرُ الذي عاش فيه الإمام جعفر الصادق عليه السلام مرحلةً افتتاحٍ فكريٍّ واستثنائيٍّ لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، خاصةً إذا قورن بالمراحل السابقة التي مرَّت بها مسيرة الأمة الإسلامية.. وقد أسهمت عوامل متعددة في تحقيق هذا الانفتاح، يأتي في مقدمتها:

١ - راجع: محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٢١٧؛ أسد حيدر: الإمام الصادق، ج ٤، ص ٣٣٥.

٢ - الشیخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ص ٢٧٠.

١. الضعف التدريجي والانهيار النهائي للدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ.
٢. المرحلة الانتقالية الهشة التي مررت بها الدولة العباسية في بداياتها.

هذه الظروف السياسية المضطربة شغلت الحكام الجدد عن ملاحقة شخصيات أهل البيت عليهما السلام، ما أتاح للإمام الصادق عليهما مسامحةً من الحرية النسبية، فابتعد عن المواجهات السياسية المباشرة، وكرس جهوده للنشاط العلمي والثقافي. لذلك أطلق على هذه الفترة "عصر انتشار علوم آل محمد عليهما السلام".

كان لهذا المناخ الإيجابي تأثير مباشر على أتباع مدرسة أهل البيت بالذات؛ حيث تمت شيعة ذلك العصر وأعلامهم بأمان غير مسبوق، وظهر ولاؤهم لخط مدرسة أهل البيت عليهما بشكل علني، وعرفوا به بين الناس. كما أن عدم وجود منافسة قوية على نشر الأحكام الشرعية سمح للإمام عليهما بتكرис جهوده التعليمية دون عوائق.

حضر كثير من الناس والعلماء من الشيعة ومن غيرهم، مجالس الإمام عليهما العامة والخاصة^(١)، واغترفوا من علمه الغزير، ما أدى إلى

١ - محسن بن علي (آغا بزرگ) الطهراني: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج ٢، ص ١٣٢.

ذروة الازدهار العلمي والفكري في عصره. وتحوّلت المدينة المنورة إلى مركز إشعاع علمي، يقصدها طلاب المعرفة من مختلف الأقطار الإسلامية، وتعدّدت فيها حلقات الدرس، وكان بيت الإمام الصادق عليه السلام تحول لما يشبه الجامعة الإسلامية الكبرى التي تضمّ كثيراً من علماء الحديث ورواته من مختلف المدارس والمشارب والمستويات، يتعلّمون في ظله، وينهلون من معين علمه الذي لا ينضب.

وقد تناقل الرواة عن الإمام الصادق عليه السلام من العلوم والمعارف ما جعل شهرته تنتشر في كل الأفاق والأماكن والأقطار، وتجاوزت صيته حدود الزمان والمكان^(١).

المبحث الثالث: منهجية الإمام الصادق عليه السلام في الإصلاح العلمي

سعى الإمام جعفر الصادق عليه السلام إلى معالجة الواقع العلمي السائد، وخاصة في المجال الفقهي، معالجة علمية رصينة وشاملة. وتمثلت خطّة الإصلاحية في مجموعة من الإجراءات المتسلسلة، كان من أبرزها:

١ - ابن حجر العسقلاني: الصواعق المحرقة، ص ١٩٩.

أولاً: نقد منهج الاجتهاد القائم

تصدى الإمام الصادق عليه السلام لتصحيح المنهج الفقهـي السائد الذي اعتمد على القياس، معتبراً إياه منحرفاً عن جادة الصواب. وقد ورد عنه قوله: ” أصحاب المقاييس طلبو العلم بالمقاييس، فلم تزدهم المقاييس من الحق إلا بعـدا، وإن دين الله لا يُصـاب بالمقاييس“^(١)، مؤكـداً أنـ الحقائق الدينـية لا تـدرك بمثل هذه الأدوات العقلـية المـحضـة.

ثانياً: تأسيـس منهـجـةـ التـعاملـ معـ الشـرـيعـةـ

عمل الإمام الصادق عليه السلام على وضع أسـسـ منهـجـةـ واضـحةـ لاستـنبـاطـ الأـحكـامـ الفـقـهـيـةـ منـ مـصـادـرـهاـ الأـصـلـيـةـ.ـ وقدـ تـجـسـدـ هـذـاـ المـنـهـجـ فيـ المـؤـلـفـاتـ التيـ دـوـنـهـاـ تـلـامـذـتـهـ فيـ مـجاـلـاتـ أـصـوـلـ الفـقـهـ وـالـفـقـهـ وـالـحـدـيـثـ،ـ والـيـ اـتـسـمـتـ باـلـاسـتـنـادـ إـلـىـ مـدـرـسـةـ أـهـلـ الـبـيـتـ عليـهـ الـكـلـامــ وـرـفـضـ التـعـوـيلـ عـلـىـ الرـأـيـ الشـخـصـيـ أوـ الـاسـتـحـسانـ.ـ وـيمـكـنـ تـفـصـيلـ هـذـاـ المـنـهـجـ فيـ النـقـاطـ الآـتـيـةـ:

١. إـرـسـاءـ مـرـجـعـيـةـ النـصـ:ـ حـصـرـ الإـمامـ عليـهـ الـكـلـامــ الـحجـجـيـةـ فيـ النـصـوصـ الصـادـرـةـ عـنـ النـبـيـ صلـلـهـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـهــ وـالـمـعـصـومـينـ

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٥٦، ح ٧.

من أهل بيته عليهما السلام. وروي عنه أنه قال: ”حدىشي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث حديث رسول الله عليهما السلام“^(١). وحديث رسول الله قول الله عز وجل“^(٢).

٢. تحديد مصادر الفتيا: نفى الإمام عليهما السلام أن تكون فتاواه نابعة

من آرائه الشخصية، رغم مكانته العلمية السامية، وقال: ”إنا لو كنا نفتى الناس برأينا وهوانا لكننا من الهالكين ولكننا نفتيم بآثار من رسول الله عليهما السلام وأصول علم عندنا توارثها كابرًا عن كابر، نكتنزها كما يكتنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم“^(٣).

٣. وضع أطر التفقيه: علم الإمام طلابه آلية استنباط الأحكام من مصادرها وكيفية التعامل مع الروايات التي تبدو متعارضة. وتمثلت مكونات هذه الآلية في:

أ. معيارية القرآن: أوجب عليهما السلام رفض أي روایة تعارض القرآن الكريم، واصفًا إياها بالزخرف، وقال: ”ما لم

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٥٣-٥٨.

٢ - محمد بن الحسن الصفار: بصائر الدرجات، ص ٣٠٠.

يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف^(١). وقال أيضًا: ”إنَّ علىَ كُلَّ حَقٍّ حَقِيقَةً، وَعَلَى كُلَّ صَوَابٍ نُورًا فَمَا وَافَقَ كِتَابَ اللهِ فَخَذَوْهُ وَمَا خَالَفَ كِتَابَ اللهِ فَدَعَوْهُ“^(٢).

ب. آلَّيَّة حل التعارض: في حال تعارض الروايات، وجَّهَ الْبَلَاغُ نحو عرضها على الكتاب والسنَّة، فما وافقهما قُبْلُ، وإلا فالحكم للروايات الأكثر قوَّةً وموثوقية.. يقول الْبَلَاغُ: ”إِذَا وَرَدَ عَلَيْكُمْ حَدِيثٌ فَوَجَدْتُمْ لَهُ شَاهِدًا مِّنْ كِتَابِ اللهِ أَوْ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِنَّمَا فَالَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ أَوْلَى بِهِ“^(٣).

ج. التفريع على الأصول: أوكل الإمام الْبَلَاغُ إلى تلامذته مهمَّةَ البناء على القواعد الكلية التي يزودُهم بها، فقال: ”إِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نُلْقِي إِلَيْكُمُ الْأَصْوَلَ وَعَلَيْكُمُ التَّفَرِيعُ“^(٤).

د. تأسيس القواعد الكلية: أَسَّسَ الإمام الْبَلَاغُ جملةً من القواعد الفقهية والأصولية الشاملة التي شَكَّلت لاحقًا

١ - محمد بن الحسن (الحر العاملي): وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٧٨.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٦٩.

٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٢٦٢.

٤ - محمد بن إدريس الحلبي: السرائر، ج ٣، ص ٥٧٥.

نواة لعلم أصول الفقه وأدوات الاجتهاد في عصر الغيبة. جاء عن (موسى بن بكر)، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام، الرجل يُغمى عليه يوماً أو يومين أو ثلاثة أو الأربعة أو أكثر من ذلك، كم يقضى من صلاته؟ قال: «ألا أخبرك بما يجمع لك هذه الأشياء كلّها؟ كلّما غالب الله عليه من أمر فالله أعتذر لعبده»^(١).

٥. تشجيع الإفتاء: حثّ الإمام عليه السلام فقهاء أصحابه على القيام بمَهمَّة الإفتاء، كما هو واضح في قوله لـ (أبان بن تغلب): «اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس، فإنني أحب أن يُرى في شيعتي مثلك»^(٢).

المبحث الرابع: العناية بالتدوين

تميَّزت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام بالحثّ على كتابة العلم وتدوينه، وكان عليه السلام يوصي تلامذته بالاحتفاظ بكتبهم قائلاً: «احتفظوا بكتبكم

١ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): الخصال، ج ٢، ص ٤٦، أبواب ما بعد الألف، ح ٢٤.

٢ - محمد بن علي الأردبيلي: جامع الرواية، ج ١، ص ٩.

فإنكم سوف تحتاجون إليها^(١)، ما أسمهم في حفظ تراث أهل البيت للنبي.

أولاً: إعادة التأكيد على مرجعية الكتاب والسنّة

أكّد الإمام علي عليه السلام على أنّ القرآن والسّنّة هما المصدران الشاملاًن لكلّ ما تحتاجه الأمة. جاء عن (مُرازم) عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْزَلَ فِي الْقُرْآنِ تَبْيَانَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّىٰ وَاللَّهُ مَا تَرَكَ اللَّهُ شَيْئًا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ، حَتَّىٰ لَا يُسْتَطِعُ عَبْدُ أَنْ يَقُولَ: لَوْ كَانَ هَذَا أَنْزَلَ فِي الْقُرْآنِ، إِلَّا وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ»^(٢). وعن (المعلى بن خنيس) قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْتَلِفُ فِيهِ اثْنَانٌ، إِلَّا وَلَهُ أَصْلٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَلَكِنْ لَا تَبْلُغُهُ عِقُولُ الرِّجَالِ»^(٣).

ثانياً: رحابة الصدر واتساع الجامعة العلمية

واجه الإمام الصادق عليه التيارات الفكرية المختلفة في عصره وأثبت تفوّق الفكر الإسلامي الأصيل. ولم تنحصر حلقة علمه بشيعة

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٥٢.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٥٩، كتاب فضل العلم، الباب ٢٠، باب الرد إلى الكتاب، ح ١.

٣ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٦٠، ح ٦.

الفصل الثامن - المبحث الرابع ٢٣٠

أهل البيت فحسب، بل ضمّت علماء من مختلف المذاهب، وكان أئمّةً بعضها - كـ(أبي حنيفة) - من المستعينين بشكل مباشر أو غير مباشر من علمه، حيث لازمه (أبو حنيفة) عامين، واعتبرهما مصدر علمه، وكان يقول: «لولا السستان لهلكَ النعمان»^(١).

وقد تواجد طلبة العلم إليه من أقطار العالم الإسلامي كافة (الكوفة، والبصرة، والنجاشي...) ومن قبائل عدّة^(٢).. وبلغ عدد الرواية عنه في مسجد الكوفة وحدها - كما يروي (الحسن الوشاء) - تسعمئة شيخ^(٣). وكان الإمام عليه السلام يشجّع كلّ تلميذ على التخصص في المجال الذي يدعّيه (الحديث، تفسير، كلام...). بل وكان يحيل العلماء القدامين للمناظرة إلى تلامذته المتخصصين، كما في قصة الرجل الشامي، حيث أوكله إلى (حرمان) في القرآن، وأبان بن تغلب في النحو، و(زراة) في الفقه، و(مؤمن الطاق) في الكلام، و(هشام بن الحكم) في الإمامة، فغلبوه جميعاً، ما أظهر سعة علم مدرسته وفرح الإمام عليه السلام بذلك^(٤).

١ - أسد حيدر: الإمام الصادق، ج ١، ص ٧٠، كان اسم أبي حنيفة النعمان بن ثابت.

٢ - أسد حيدر: الإمام الصادق، ج ١، ص ٣٨.

٣ - أحمد بن علي النجاشي: فهرست مصنفي الشيعة، ص. ٣٩ - ٤٠.

٤ - محمد بن الحسن الطوسي: اختيار معرفة الرجال، ج ٢، ص ٥٥٥.

المبحث الخامس: موقف الإمام الصادق (عليه السلام) من حُكم (المنصور)

أثارت المكانة العلمية والشيعية للإمام الصادق (عليه السلام) قلق الخليفة العباسي (أبو جعفر المنصور)، فكان يستدعيه بين الحين والأخر إلى العراق تحت حجج مختلفة، مُضمراً النية لاغتياله، لكن الإمام (عليه السلام) كان يتجنّب المخاطر بأسلوب حكيم^(١).

وراقب (المنصور) أنشطة الشيعة في المدينة عن كثب عبر جواسيسه^(٢)، وكان يصدر أوامره بقتل من يثبت تشييعه. وفي هذا الجو، منع الإمام (عليه السلام) أصحابه من التعاون مع النظام الحاكم بأي صورة، ورد على من سأله عن العمل في مشاريع الدولة بقوله: ”ما أحب أن أعقد لهم عقدة... إنّ أعونَ الظُّلْمَةَ يوْمَ الْقِيَامَةِ فِي سِرَادِقِ نَارٍ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ الْعِبَادِ“^(٣).

وحذر (عليه السلام) العلماء من الارتباط بالسلطة، قائلاً: ”الفقهاء أمناء

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٧، ٢١٢-١٦٢، ص ٤٧، وقد عقد محمد باقر المجلسي فصلاً خاصاً للمواجهات التي كانت بين الإمام والمنصور.

٢ - محمد بن الحسن الطوسي: اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، ص ٢٨٢.

٣ - محمد بن الحسن (الحر العاملي): وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٢٩.

الفصل الثامن - المبحث الخامس ٢٢٥

الرسُل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبا إلى السَّلاطين فاتهموهم^(١). وعندما كتب إليه (المنصور) محاولاً استمالته: "لولا تغشانا كما يغشانا سائر الناس"، ردَّ عليه الإمام عليه السلام ردَّاً حكيماً مفعماً بالزَّهد في دنياهم والبراءة من سلوکهم: "ما عندنا من الدنيا ما نخافك عليه، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له... فلم نغشاك؟!"، وعندما حاول (المنصور) مرَّة أخرى طلب النصح، أجابه: "من أراد الدنيا فلا ينصحك، ومن أراد الآخرة فلا يصحبك"^(٢).

١ - أسد حيدر: الإمام الصادق، ج ٣، ص ٢١، نقلًا عن حلية الأولياء.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٨٤.

الفصل التاسع:

الإمام موسى بن جعفر الكاظم (عليه السلام)

إذا كان الإمام الباقر والصادق عليهما قد شيدا معمار المدرسة، فإن الإمام الكاظم عليه يحفظ استمراريتها تحت سقف القمع العباسي: معرفة تُصان في السر، وشبكاتُ تواصلٍ تتشكل بين جدران السجون، وسياسة رفضٍ خُلُقِيٍّ تُعرِّي شرعية الحكم وهي تُجنب الجماعة حروب الاستنزاف. هنا يغدو «الكاظم» استراتيجية نجاة ورسالة قوَّةً: رد الإساءة بالإحسان ليس ترفاً روحيًا، بل بناءً لصورةٍ عامَّةٍ تغلبُ سطوةَ البلاط، وتبينَ لقيادة لا تحتاج مقعدَ السلطان لتوجُّه الوجود.

يتقدّم الفصل عبر ثلاثة محاور: سياقُ تاريخيٍّ تتكتَّف فيه الوشایات والصراع على الشرعية، ومشروعٌ صيانيٌ علميٌ يمدّ جسوراً بين جيلٍ التأسيس والتعقيد، وعملٌ سياسيٌ هادئٌ يزاوج بين كشفِ الطغيان والتأثير من داخل مؤسّاته من غير أن يمنحها براءةً ذمةً.

المبحث الأول: سيرة الإمام موسى الكاظم عليهما

أولاً: لمحة تاريخية مضيئة

وُلد الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه في السابع من صفر سنة ١٢٨ هـ في منطقة «الأبواء» الواقعة بين مكة والمدينة. وكان أبوه الإمام جعفر الصادق عليه، وأمه السيّدة حميدة عليهما التي وُصفت بالإمام

الباقر عليهما السلام بقوله: ”حَمِيدَةٌ فِي الدُّنْيَا، مَحْمُودَةٌ فِي الْآخِرَةِ“^(١). تميّزت علاقة الإمام الصادق عليهما السلام بابنه الكاظم عليهما السلام بمحبةٍ فائقة، حتى إنَّه أجاب حين سُئل عن درجة حبه له: ”وَدَدْتُ أَنْ لَيْسَ لِي وَلَدٌ غَيْرُهُ حَتَّى لَا يُشْرِكُهُ فِي حُبِّي لِهِ أَحَدٌ“^(٢). ومن أبرز ألقابه عليهما السلام: (العبد الصالح)، (الصابر)، (الأمين)، وباب الحوائج). لكن لقب ”الكاظم“ هو أشهرها على الإطلاق، وذلك لعظيم صبره وكمّ ظلمه للغيبظ، وإحسانه إلى من أساء إليه، مع ما تعرض له من أذى كبير^(٣).

وكانت كنيته الأشهر ”أبو الحسن“: تولى الإمامة بعد استشهاد أبيه الإمام الصادق عليهما السلام سنة ١٤٨ هـ، واستمرَّت إمامته ٣٥ عاماً حتى سنة ١٨٣ هـ.

رُزق الإمام الكاظم عليهما السلام بسبعة وثلاثين ولداً، من بينهم الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام، وإبراهيم، وعباس، والقاسم، وإسماعيل، وجعفر، وهارون، والحسين، وفاطمة الكبرى، وفاطمة

١ - راجع: محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ٤٧٦؛ سعيد بن هبة الله الروايني: الجرائم والجرائم، ج ١، ص ٢٨٦.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٠٩.

٣ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ١٦٤.

الصغرى)، و(رقية)، و(حكيمة).^(١)

قبل استشهاده، أوصى عليه السلام بالإمامية لابنه الإمام الرضا عليه السلام.^(٢) وقد لقي ربه شهيداً مسموماً في سجن (السنجي بن شاهك) ببغداد، في الخامس والعشرين من رجب سنة ١٨٣ هـ، عن عمر يناهز ٥٤ عاماً، ودُفِن في مقابر قريش المعروفة اليوم بالكافلية المقدسة.

ثانياً: العبادة والتقرّب إلى الله:

تميّز الإمام الكاظم عليه السلام بأنّه كان أكثر أهل عصره عبادة واجتهاً في الطاعة. وتشير الروايات إلى أنّه كان يحيي لياليه بالتهجد والصلاحة حتى مطلع الفجر، فيؤدي صلاة الصبح ثم يلتزم بالتعقّب إلى أن تشرق الشمس، ويظل ساجداً لله - تعالى - حتى اقتراب وقت الظهيرة.

وكان من دعائه المتكرّر: "اللهم إني أسألك الراحة عند الموت والعفو عند الحساب"^(٣)، مع الإلحاح في تكرار هذا المناجاة. كما كان يردد أيضاً: "عظم الذنب من عبدك فليحسن العفو من عندك".

وكان عليه السلام يكثر من البكاء خشية من الله، حتى كانت دموعه تتدفق

١ - الشیخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ج ٢، ص ٢٤٤.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣١.

٣ - محمد بن يعقوب الكليني: ج ٣، ص ٣٢٣.

على لحيته الشريفة^(١). وقد جاء في زيارته المأثورة وصفٌ دقيقٌ لحالة العبودية الخاشعة التي عاشها؛ حيث وُصف بأنه: ”الذِي يحيي الليل بالسهر إلى السحر، بالمواظبة على الاستغفار، رفيق السجدة الطويلة، والدموع الغزيرة، والمناجاة الكثيرة، والابتهالات المتواصلة الجميلة“^(٢).

وفي إحدى الليالي، دخل مسجد رسول الله ﷺ، وسجد سجدة عند بداية الليل، وسمع وهو يردد في خشوع: ”عظم الذنب عندي فليحسن العفو عنك، يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة“، وظل يكرر هذا الدعاء الخاشع حتى طلع الفجر^(٣).

ثالثاً: سجاياه الخلقية الحميّدة:

تميز الإمام الكاظم عليه السلام بمكانته الرفيعة، وغزاره تقواه وعبادته لله عز وجل. فكان دائم المواظبة على الطاعات، مشهوراً بآياته الخارقة، يقضى ليه راكعاً وساجداً، ويقضى نهاره صائماً ومتصدقًا. ونظرًا لشدة حلمه وصفحه عمن أساء إليه، لقب به

١ - عباس القمي: منتهى الآمال في تاريخ النبي والآل، ج ٢، ص ٢٩١.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٩، ص ١٧.

٣ - أحمد بن علي (الخطيب البغدادي): تاريخ بغداد، ج ١٣، ص ٢٩.

الفصل التاسع – المبحث الأول ٢٣٣

”الكافر“ . كان الله يرد الإساءة بالإحسان، ويقابل الجرم بالعفو والغفران.

ولفروط ما كان عليه من عبادة، أطلق عليه ”العبد الصالح“، وُعرف في العراق بـ ”باب قضاء الحوائج عند الله“ نظرًا لِإجابة دعاء من يتوسل به إلى الله تعالى . كان أعلم أهل زمانه وأجودهم وأكرمهم^(١).

كما عُرف بكثرة صلة أرحامه وإحسانه إلى فقراء المدينة بشكلٍ لافت، حتى إنَّه كان يحمل إليهم ليلاً الطعام والمال من ذهبٍ وفضة دون أن يعرفوه . ومن مظاهر كرمه أن اعتق ألف عبدٍ من الرق^(٢).

واشتهر الله بالجود والعطاء، فإذا بلغه أنَّ أحداً يؤذيه، كان يبعث إليه بهدية من المال قدرها ألف دينار . وكان يعمد إلى تجهيز حقب من النقود، يحوي بعضها ثلاثة دينار، وبعضها أربعين، ومترين، ليوزعُها على أهل المدينة . وكانت هذه الصرة تكفي من يأخذها ويغنيه عن سؤال الناس^(٣).

١ - محمد بن طلحة الشافعي: مطالب المسؤول في مناقب آل الرسول، ص ٤٤٧.

٢ - الشيخ عباس القمي: متنه الآمال في تواريخ النبي والآل، ج ٢، ص ٢٩١.

٣ - الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ١٣، ص ٢٩.

المبحث الثاني: الإطار التاريخي والسياق العام

تعرّض أبناء الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام وشيعتهم لمضايقات كثيرة، ولكثير من الملاحقات التي استمرّت بقوتها وظلمها وشدّتها في عهد الحكام العباسيين الذين طاردوهم في شتّي أرجاء العالم الإسلامي، وسعوا محاولين استئصال شأفتهم خشية من ثوراتهم المحتملة، ومكانتهم الروحية، ونفوذهم الكبير في وجдан العامة. وقد سُجّل عددٌ كبيرٌ من الشهداء الذين قُتلوا منذ تولي (أبي العباس السفّاح) الحكم وحتى استشهاد الإمام موسى بن جعفر عليهم السلام، بمن فيهم الشهيد (الحسين بن علي بن الحسن)، قائد ثورة فخ الذي استشهد عام ١٦٩ هـ، وانتهاءً باستشهاد الإمام الكاظم عليهم السلام نفسه في سجن (هارون الرشيد) عام ١٨٣ هـ، بعد سنواتٍ عجافٍ أمضاها في غياهٍ سجون هذا الطاغية.

أما على الصعيد الفكري والعلمي، فقد انتشرت الشبهات بين الناس، وظهرت عدد من الفرق والمذاهب والتيارات المنحرفة، بل ووصل بعضها إلى درجة إنكار وجود الله (الإلحاد)^(١).

١ - محمد باقر القرشي: حياة الإمام الرضا، ص ١٩٣.

المبحث الثالث: الحفاظ على الاستمرارية الفكرية والعلمية

أسس الإمامان الباقي والصادق عليهما السلام للمعارف والعلوم الإسلامية الأصيلة، ووضعوا الأطر والمناهج والمبادئ الأساسية في مدرسة أهل البيت عليهم السلام. وقد اضطلع الإمام الكاظم عليهما السلام بمهمة الحفاظ على هذه المسيرة العلمية المشرقة، فواصل الدور الذي بدأه والده الإمام الصادق عليهما السلام في إعداد وتخریج جيل من العلماء والطلاب الحاملين لواء الإسلام الأصيل، ما ضمن استمرار ازدهار هذه المدرسة ونمائها وتقدمها. كما سعى إلى نشر هذا العلم ومد نطاق تأثيره ليشمل مختلف العلماء والشخصيات البارزة في ذلك العصر. وحث الإمام عليهما السلام على أهمية تسجيل العلم وتدوينه، فكان العلماء يحضرون في مجلسه ومعدات الكتابة بحوزتهم، فإذا ما نطق بهم بأحكمة أو أفتى في مسألة، بادروا إلى تدوين ما سمعوه منه مباشرة^(١). وقد نقل العلماء والفقهاء كثيراً من أحاديثه عليهما السلام وقاموا بتسجيلها في مؤلفاتهم ومصادرهم، في مختلف حقول المعرفة التي تلقواها عنه، رغم تباين مشاربهم واختلاف اتجاهاتهم، من فلسفة وتفسير وفقه وحديث، حتى انتشر وذاع صيت آرائه شرقاً وغرباً، وقطعت الإبل

١ - علي ابن طاووس: المجتنى من دعاء المجتبى، ص ٢٧

لأجله المسافات لتلقّي حديثه، والارتقاء من نمير علومه. فكانت حلقته العلمية امتداداً طبيعياً لمدرسة والده الإمام الصادق عليه السلام، ليصبح عليه السلام بعد رحيل أبيه القائد والرائد للحركة العلمية والنهضية الثقافية في زمانه.

وكان من أبرز تلامذته الذين تلمندوا على يديه: (إبراهيم بن عمر اليماني)، وأحمد بن محمد بن أبي نصر البيزنطي)، و(النصر بن سويد)، و(حماد بن عيسى الكوفي)، و(أبو عبد الله عبد الرحمن بن الحجاج البجلي الكوفي)، و(عبد الله بن جنوب البجلي)، و(عبد الله بن يحيى الكوفي)، و(علي بن يقطين)، و(المفضل بن عمر)، و(هشام بن الحكم)، و(يونس بن عبد الرحمن)؛ حيث كان هؤلاء جميعاً من كبار علماء الحديث والرواية في عصرهم^(١).

المبحث الرابع: النشاط السياسي

انطلق الإمام الكاظم عليه السلام في مسارٍ جديدٍ تمثّل في المواجهة السياسية، متّخذًا خطوات عملية عدّة في هذا المجال. أمّا الخيار

١ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ٣٣١.

ال العسكري المباشر (الجهاد المسلح) فلم يكن خياراً متاحاً؛ لأنَّ الأُمَّةَ لم تكن مستعدةً له آنذاك، وهو ما تُظهره كلماته لـ (الحسين بن علي) (شهيد فخر) عندما رأه مصمِّماً على الثورة: «إِنَّكَ مقتولٌ فَأَجْدُ الضَّرَابَ، فَإِنَّ الْقَوْمَ فَسَاقَ يَظْهَرُونَ إِيمَانًا وَيَضْمِرُونَ نُفَاً وَشَرِّكًا فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ وَعِنَّ اللَّهِ أَحْتَسِبُكُمْ مِنْ عَصَبَةٍ»^(١).

وتمثَّلت مظاهر هذا العمل السياسي السلمي في عدة أمور:

أولاً: إثبات أحقيَّة الإمام عليه السلام بالخلافة:

حيث انتقل هذا المبدأ من كونه قضيَّة عقدية إلى شكل من أشكال التحدُّي السياسي وبناء الرأي العام. ومن الروايات الشهيرة في هذا السياق ما حدث عندما زار الخليفة (هارون الرشيد) قبر النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه في حضور وجوه الدولة وأشرافها. وبعد أن وجَّه (هارون) تحيَّته للنبي قائلاً: ”السلام عليك يا بن العم“؛ بهدف الافتخار بقرباته منه ودعم شرعية خلافته، بادر الإمام الكاظم عليه السلام الذي كان حاضراً بالموقف، فسلَّمَ قائلاً: ”السلام عليك يا أباً“ . غضبَ (هارون) غضباً شديداً وقال: ”لَمَّا قلت إنك أقرب إلى رسول الله منا؟“ . فردَّ عليه الإمام عليه السلام

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٦٦.

بحكمه: ”لَوْ بُعْثَرَ رَسُولُ اللَّهِ حَيَاً وَخَطَبَ مِنْكُمْ كَرِيمَتَكُمْ هَلْ كُنْتُ تَجِيَهُ إِلَى ذَلِكَ؟“ فَأَجَابَ (هارون) مُنْفَعِلًا: ”سَبِّحَانَ اللَّهِ! وَإِنِّي لَا فَتَحْرُ بِذَلِكَ عَلَى الْعَرَبِ وَالْعَجمِ.“.

فَأَوْضَحَ الْإِمَامُ الْعَلِيُّ الْفَرْقَ قَائِلًا: ”وَلَكُنَّهُ لَا يَخْطُبُ مِنِّي، وَلَا أَزْوَّجُهُ؛ لَأَنَّهُ وَالدُّنْيَا لَا وَالدَّكْمَ، فَلَذِكَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ“^(١).

ثانيًا: النفوذ إلى السلطة والتأثير من الداخل:

تمكّن الإمام العلیٰ من توظيف بعض أتباعه المخلصين للتغلغل داخل دوائر صنع القرار، مؤسّساً بذلك شبكةً من الأعين داخل أروقة الحكم، تقوم بمهمة نقل التوجهات والخطط لتحذير أتباعه منها من ناحية، والسعى للتأثير في صياغة تلك القرارات لصالحهم من ناحية أخرى، أو على أقلّ تقدير، العمل على خدمة المؤمنين وتحفيض المظالم عنهم بقدر المستطاع.

وكان (علي بن يقطين) -الذي شغل منصب وزير في بلاط (هارون الرشيد)- أحد أبرز هذه الشخصيات. وقد خاطبه الإمام الكاظم العلیٰ: «يَا عَلِيٌّ إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى أُولَيَاءَ الظُّلْمَةِ لِيَدْفَعُ بِهِمْ عَنْ أُولَيَائِهِ»

١ - محمد باقر القرشي: حياة الإمام الرضا، ج ١، ص ٧٨

وأنت منهم يا عليٌ»^(١).

وحرص الإمام عليه السلام شديداً على سلامه (علي بن يقطين) وأمنه، وحمايته من أن ينكشف أمره لدى (هارون) وأعوانه. وذات مرّة، أهدى الخليفة (الرشيد) إلى (ابن يقطين) هدية ثمينة تضمنت دراعة فاخرة، فبادر الأخير بإهدائها فوراً إلى الإمام عليه السلام، لكنَّ الإمام ردّها إليه وكتب إليه يحذره: «احتفظ بها ولا تخرجها عن يدك فسيكون لك بها شأن تحتاج إليها معه»^(٢).

وبعد فترة، جاء وشاء إلى (هارون الرشيد) يخبره بأنَّ (علي بن يقطين) يعتقد بإماماة موسى الكاظم عليه السلام، وأنَّه قد أرسل إليه تلك الدراعة السوداء التي كان قد أكرمه بها الخليفة. فاستدعى (هارون) الوزيرَ وسألَه: «ماذا فعلت بالدراعة السوداء التي خصصتك بها من بين سائر مقربي؟».. فقال ابن يقطين: «هي عندي يا أمير المؤمنين، في سفط من طِيبِ مختومٍ عليها، فطلب إحضارها، فأرسل من يحضرها من مكانها. وعندما رآها هارون قال: ردّها إلى مكانها وخذها وانصرف راشداً فلن نصدق بعدها عليك ساعياً»^(٣).

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٤٩.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٣٧.

٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٣٨.

ثالثاً: مجابهة الحكم وكشف طغيانه:

كان الإمام عليه السلام يصر على إظهار الطبيعة غير الشرعية لهذا النظام الحاكم. ومن الروايات التي تنقل موقفاً بهذا الصدد، ما جرى عندما سأله (هارون الرشيد) عند استدعائه إليه: «ما هذه الدار؟» (في إشارة إلى دار الخلافة أو السلطة).. فأجابه الإمام عليه السلام بكل وضوح: «هذه دار الفاسقين».. فسألته (هارون) مستفزاً: «فلمن تكون الدار إذن؟» (أي من هو صاحب الحق الشرعي فيها).

فرد الإمام عليه السلام: «هي لشيئتنا اختبار وامتحان، ولغيرهم وسيلة للضلال والانحراف».

فقال (هارون): «فلماذا لا يستعيدها صاحبها الحق؟» (في تلميح إلى عدم قيام الإمام بمطالبته بالخلافة).

فأجابه الإمام عليه السلام: «لقد سُلبت منه وهي عامرة مزدهرة، ولن يسترجعها إلا عندما تعود عامرة كما أخذت». (مشيراً إلى أن الحق لا يُسترد بالخراب).

فحاول (هارون) التهكم قائلاً: «فأين أتباعك وشيعتك؟» (متسائلاً عن قوتهم التي ستمكّنه من ذلك).. فاستشهد الإمام عليه السلام بردّه بالأية الكريمة: ﴿لَمْ يَكُنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُسْرِكِينَ مُنَفَّكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيهِمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البيت: ١]، فانبىء هارون غاضباً:

«أفحن إذن كُفَّارٍ؟!»

فأجابه الإمام عليه السلام بحكمة: «لا، بل أنت مصدق للذين: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَار﴾ [ابراهيم: ٢٨]. مبيناً أنهم جحدوا نعمة الحكم والحق، واستبدلوا الشكر بالجحود، ما قاد الأمة إلى الدمار.. فاستشاط هارون غضباً من هذا الرد الحاسم والواضح، واشتد في معاملته للإمام الكاظم عليه السلام^(١).

المبحث الخامس: الدوافع وراء سجن الإمام عليه السلام

أولاً: حسد (هارون) وحقده على الشخصيات البارزة: لم يكن (هارون) يطيق وجود أي شخصية تمت بمكانة مرموقة بين الناس؛ حيث كان يشعر بالتهديد من أي نفوذ قد ينافس سلطته. ويتجلى ذلك بوضوح في ما فعله بوزراء البرامكة الذين كانوا من أقرب مساعديه؛ حيث أبادهم وأزال وجودهم بعد أن ذاع صيتهم وازدادت هيبتهم بين الرعية.

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٥٦.

ثانيًا: كراهيته للعلويين

تميّز (هارون) بحدّ عميق على آل البيت (العلويين)، وكان يبدع في أساليب قهرهم واضطهادهم وإيذائهم والاستمرار في حرمانهم وظلمهم معنوياً ومادياً، والتعدي على ممتلكاتهم. لذلك لم يكن ليسمح لزعيمهم الإمام موسى الكاظم عليه السلام أن يعيش في هدوء وطمأنينة واستقرار حقيقي.

ثالثاً: الوشاية ضده عليه السلام:

ويعتبر هذا السبب المحوري وراء سجنه؛ حيث قام بعض المتملقين بتقديم تقارير كاذبة إلى هارون ضدّ الإمام الكاظم عليه السلام، تضمنّت اتهامات متعددة، من أبرزها:

١. جمْعُ الأموال: بينما كان (هارون) يفرض حصاراً اقتصادياً على العلوّيين ليجوعهم ويفقرهم، وصلته معلومات تفيد بأنَّ الأموال تتدفق على الإمام عليه السلام من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وأنَّه اشتري عقاراً باسم "البسرية" بمبلغ ثلاثة ألف دينار.

٢. المطالبة بالخلافة: يذكر المؤرخون أنَّ (علي بن إسماعيل بن جعفر) كان من بين الوشاة، وهو الذي ذهب إلى بغداد

الفصل التاسع - المبحث الخامس ٤٣

والتقى بـ (الرشيد) قائلاً: «لم أكن أتصور وجود خليفتين في الأرض، حتى رأيت عمّي موسى بن جعفر يُسلّم عليه بالخلافة». فأثار هذا الكلام غضب (هارون)، وجنّ جنونه. ومن الحوادث التي أغاظت (هارون) أيضاً، أنه كان يعرض على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قائلاً: «خذ فدكاً وساردّها إليك»، لكن الإمام كان يرفض باستمرار حتى ألح (هارون) عليه. فرد الإمام عليه السلام: «لن أقبلها إلا بحدودها الأصلية»! سأل هارون: «وما هي حدودها؟». فأجاب الإمام عليه السلام: «إذا حددتها لن تردها». قال (هارون): «وحقّ جدك إلا فعلت».

فبدأ الإمام عليه السلام بالحدود: «أولاًً عدن»، فاصفر وجه (هارون) وقال: «هيء»..!

تابع الإمام عليه السلام: «ثانياً سمرقند»، فاشتدّ غضب (هارون). وأضاف الإمام عليه السلام: «ثالثاً أفريقيا»، فاسود وجه (هارون). ثم قال الإمام عليه السلام: «ورابعاً مناطق ساحل البحر بما فيها الجزر وأرمينية».

فصاح (الرشيد): «لم يبق لنا شيء! اجلس في مكاني»..! فرد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «قد أخبرتك أنك إن عرفتها لن

تردّها». عندها عزم (هارون) على قتلها^(١).

وهكذا، جرى اعتقال الإمام علي عليه السلام في شهر شوال من سنة ١٧٩ هـ وانتقل بين السجون، حيث عانى أنواع المشقات والعذابات، إلى أن دسّ له (هارون) السمّ في رطب وأمر (السندى) بتقديمه إليه وإجباره على تناوله، فاستشهاد الإمام علي عليه السلام سنة ١٨٣ هـ.

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ٢٠١

الفصل العاشر:

الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام)

يحضر الإمام الرضا عليه في التاريخ الإمامي بوصفه لحظة فارقة تختبر فيها الإمامة على تماّس مباشر مع جهاز الدولة؛ فولالية العهد التي عُرضت عليه ليست مجرد واقعة سياسية، وإنما مسرح لامتحان عقديّ دقيق: كيف يصون الإمام جوهر الإمامة—العلم والقدوة والحجّة—داخل بنية سلطةٍ تريد تحويله إلى غطاءٍ شرعيّ؟ لهذا يقرأ هذا الفصل سيرة الرضا عليه ضمن ثلات دوائر متشابكة:

أولاً: العلم والحجّة

تُظهر مناظراته العابرة للملل والاتجاهات أنَّ «عالم آل محمد» ليس لقباً تكريميّاً، بل وظيفةٌ معرفيةٌ كاسفة: ضبطُ أصول النظر، وتحويلُ الاختلاف إلى اختبارٍ لسلامة البرهان لا إلى ضوضاء مذهبية. هنا يصبح مجلس المأمون—على ما فيه من قصدٍ سياسي—منبراً ليبيان معيارَيْه العقل المؤيد بالنصّ؛ حيث يقدم الإمام عليه نموذجاً للجدل الملائم بأدب العلم وحدوده.

ثانياً: السياسة وحدود المشاركة

قبول ولاية العهد تحت الإكراه مع اشتراط «لا أمرٌ ولا أنهى...» ليس تنازلاً بل ترسيمَ حدٍ خُلقيٍ يُبطل وظيفة التسييس: يميز

بين الوجود الرزمي للإمام في وعي الأمة، وبين محاولة دمجه في ماكينة القرار العباسية. بذلك حول الإمام خطوة الاحتواء إلى تعطيلٍ ناعمٍ لمقاصدتها، وفتح في المقابل فضاءً عاماً لنشر فضائل أهل البيتٍ وحقوقهم، وحقنِ الدماء، وتوسيع هامش الدعوة والتعليم.

ثالثاً: إدارة الشرط التاريخي

من خلال شبكة التلامذة والرواة وتكثيف الحضور التعليمي، هندس الإمام عليهما انتقالاً آمناً للمرجعية من تحت ضغط الدولة، وراكم رأسماًً رمزياًً جعل آلة الإعلام الرسمية—سلك النقود، الدعاء على المنابر—تعمل بخلاف نيتها: تعلن فضلاً يتجاوز السلطة. بهذا المعنى، يتقدّم الإمام الرضا عليهما بصفته صانع بنية صمود معرفية-اجتماعية تمهدّ لما بعده.

على هذا الأساس، لا تُقرأ ولاية العهد بوصفها حادثةً معزولةً بل منعطفاً بلور ثلات رسائل: مركبة العقل الملزَم بأدب الوحي، و«فقهُ المشاركة بغير التورّط»، وبناءً مؤسسيَّة هادئة للعلم والهداية تحفظ الإمامة من الاستهلاك السياسي وتمنع الأمة معياراً تميّز به بين الشرعية والشرعنة.

المبحث الأول: سيرة مضيئة

أولاً: نبذة تاريخية:

ولد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في الحادي عشر من شهر ذي القعدة عام ١٤٨ هـ في المدينة المنورة. والده هو الإمام موسى الكاظم عليه السلام، وأمه كانت من أمّهات الأولاد وتُعرف بعَدَة أسماء، منها: تُكتَم وسمانة. وقد كانت تكتم من أفضل النساء عقلاً وقوياً وإجلالاً لمولاتها حميدة المصفاة، حيث لم تجلس أمامها منذ أصبحت تحت رعايتها تقديرًا واحترامًا لها. وبعد أن أنجبت الإمام الرضا عليه السلام، أطلق عليها الإمام الكاظم عليه السلام اسم "الطاهرة"^(١).

وكان جده الإمام الصادق عليه السلام يتوّق إلى رؤيته، كما رُوي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام قوله: «سمعت أبي جعفر بن محمد عليه السلام يقول لي مراراً: «إنَّ عالَمَ آلِ مُحَمَّدٍ لَفِي صَلْبِكَ وَلَيَتَنِي أَدْرَكْتَهُ، فَإِنَّهُ سَمِّيَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ عليه السلام»^(٢).

ومن أبرز ألقابه: (الرضا)، و(الصابر)، و(الفاضل)، و(الرضي)،

١ - الشیخ محمد بن علی بن بابویه (الشیخ الصدوق): عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ١٤.

٢ - الفضل بن الحسن الطبرسي: إعلام الورى، ص ٣١٥.

و(الوفي)، و(قرة أعين المؤمنين)، و(غَيْظُ الْمُلْحِدِينَ). أما كنيته فكانت (أبا الحسن الثاني).

ورُزق الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام بابنه الوحيد الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام^(١).

تولى الإمامة بعد استشهاد أبيه الكاظم عليه السلام عام ١٨٣ هـ، واستمرّت إمامته نحو عشرين عاماً حتى عام ٢٠٣ هـ. وأوصى قبل شهادته إلى ابنه الإمام محمد الجواد عليه السلام^(٢). استشهد عليه السلام مسموماً في شهر صفر من سنة ٢٠٣ هـ يوم الجمعة، وكان عمره خمساً وخمسين سنة. ودُفِن في مدينة طوس.

ثانيًا: سمو أخلاقه وعبادته:

تميّز الإمام الرضا عليه السلام بسمو أخلاقه وتواضعه العظيم حتى أصبح حديث الناس، وأقرَّ بذلك كل من عرفه وخالطه. وقد قدم (إبراهيم بن العباس) وصفاً رائعاً يجمع مكارم أخلاقه وفضائله، فقال: ”ما شاهدت أبا الحسن الرضا عليه السلام أساء إلى أحد بقولٍ فقط، ولا مقطعاً حديث أحد“

١ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٢٧١.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٢٠.

حتى ينهي كلامه، ولا مدّ رجليه أمام جليسه أبداً، ولا اتّكأ بحضوره من يجالسه، ولا شتم أحداً من خدمه أو عبيده، ولا رأيته يبصق، ولا ضحك ضحكاً عالياً، بل كان ضحكه ابتسامة هادئة.

وكان عند انفرادهم ووضع المائدة، يدعوا جميع خدمه ومواليه - بما فيهم الحارس وسائس الخيل - ليشاركونه الطعام. وكان الرضا عليهما ينام قليلاً بالليل، ويبقى مستيقظاً طويلاً؛ حيث كان يُحيي معظم لياليه من أولها حتى مطلع الفجر صلاةً وعبادةً.. وكان مواظباً على الصيام، فلا يفوت صيام ثلاثة أيام من كل شهر، قائلًا: ذلك كصيام الدهر. وكان عليهما كثير البر والإحسان في الخفاء، وكان معظم صدقاته في الليالي المظلمة. فمن أدعى وجود من يساويه في فضله فلا تصدق قوله^(١).

ومن مظاهر عبادته وتقرّبه إلى الله عزّ وجلّ، أنَّه كان دائم الذكر في جميع أحواله، شديد الخشية من الله تعالى. وكان يجلس في مصلاه ليلاً يسبّح الله ويذكره ويهلّله ويصلّي على النبي عليهما السلام حتى شروق الشمس. وكان من أدعيته في قنوطه: «اللهم صلّ على محمد وأل محمد، اللهم اهدنا مع من هديت، وعافنا مع من عافت، وتولّنا مع

١ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٩٧.

من تولّيت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا شرّ ما قضيت، فإنّك تقضي ولا يُقضى عليك، إِنَّه لَا يذلّ مَنْ وَالَّتْ، وَلَا يعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تباركت رِبّنا وَتَعَالَيْتَ»^(١).

ثالثاً: مكانته العلمية وما ثرّه:

تميّز الإمام الرضا عليه السلام في عصره بغزاره علمه وتنوع معارفه واتساعها، حتى لُقب بشبيه جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام. وقد تواترت الشهادات بعلو منزلته العلمية؛ حيث نقل والده الإمام الكاظم عليهما السلام عن أبيه الإمام الصادق عليهما السلام قوله؛ إذ كان يوصي أبناءه قائلاً: «هذا أخوكم علي بن موسى الرضا، هو عالم آل محمد، فاستفتوه في أمور دينكم واحفظوا ما يرشدكم إليه، فقد سمعت أبي جعفر بن محمد عليهما السلام يؤكّد لي مراراً: «إن عالم آل محمد لفي صلبك، ولتيتني أدركته، فإنه سميّي أمير المؤمنين عليهما السلام»^(٢).

وقد وثّق الإمام الرضا عليه بنفسه كيف كان العلماء يغدون إليه ويستقون العلم من معينه، فقال: «كنت أجلس في الروضة والعلماء

١ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٩٥.

٢ - الفضل بن الحسن الطبرسي: إعلام الورى، ج ٢، ص ٦٤.

الفصل العاشر - المبحث الأول ٥٣٠

بالمدينة متوافرون، فإذا أعيا الواحد منهم عن مسألة أشاروا إلى
بأجمعهم، وبعثوا إلى المسائل، فأجبت عنها»^(١).

ولم يقتصر الاعتراف بفضلـه وعلمه على شيعته فحسبـ، بل شهدـ له بذلك معاصرـوه من مختلفـ المشارـبـ، حتى قال (أبو الصـلتـ الـهـرـويـ): «ما صـادـفـتـ أعلمـ منـ عـلـيـ بنـ مـوـسـىـ الرـضاـ عـلـيـهـ الـحـلـلـ، وـمـاـ التـقـىـ بـهـ أـيـ عـالـمـ إـلـاـ وـأـقـرـ لـهـ بـمـاـ أـقـرـتـ بـهـ. وـقـدـ جـمـعـ الـخـلـيـفـةـ الـمـأـمـونـ فـيـ عـدـةـ مـجـالـسـ عـلـمـاءـ الـأـدـيـانـ وـفـقـهـاءـ الشـرـيـعـةـ وـفـلـاسـفـةـ الـكـلـامـ، فـمـاـ كـانـ مـنـهـ إـلـاـ أـنـ اـنـهـزـمـواـ وـاحـدـاـ تـلـوـ الـآـخـرـ أـمـامـ حـجـّـهـ، حـتـىـ اـعـتـرـفـواـ جـمـيـعـاـ بـفـضـلـهـ وـعـلـوـ كـعـبـهـ وـقـصـورـ أـنـفـسـهـمـ أـمـامـ عـلـمـهـ»^(٢).

وتربـيـ علىـ يـدـ الإـمامـ الرـضاـ عـلـيـهـ الـحـلـلـ عـدـدـ كـبـيرـ منـ الفـقـهـاءـ وـالـعـلـمـاءـ الـبـارـزـينـ، وـكـانـ مـنـ بـيـنـ تـلـامـذـتـهـ وـرـوـاـدـ مـدـرـسـتـهـ: (أـحـمـدـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ عـيـسـىـ الـأـشـعـرـيـ الـقـمـيـ)، وـ(إـبـرـاهـيمـ بـنـ سـلـامـ الـنـيـشـابـوريـ)، وـ(الـحـسـنـ بـنـ عـيـسـىـ الـأـشـعـرـيـ الـقـمـيـ)، وـ(إـبـرـاهـيمـ بـنـ عـلـيـ الـخـازـارـ)، وـ(الـحـسـنـ بـنـ عـلـيـ بـنـ يـقـطـيـنـ)، وـ(داـوـودـ بـنـ سـلـيمـانـ)، وـ(ريـانـ بـنـ الـصـلتـ)، وـ(صـفـوانـ بـنـ يـحـيـيـ الـبـجـلـيـ)، وـ(عـلـيـ بـنـ إـسـمـاعـيلـ الـمـيـشـمـيـ)^(٣).

١ - عـلـيـ بـنـ عـيـسـىـ الـإـرـيـليـ: كـشـفـ الـغـمـةـ، جـ٣ـ، صـ١١١ـ.

٢ - الـفـضـلـ بـنـ الـحـسـنـ الطـبـرـيـ: إـعـلـامـ الـورـىـ، جـ٢ـ، صـ٦٤ـ.

٣ - مـحـمـدـ بـنـ الـحـسـنـ الطـوـسـيـ: رـجـالـ الـطـوـسـيـ، صـ٣٦٢ـ.

وَحُكِيَ أَنَّ (المأمون) قَالَ لِلشَّاعِرِ (أَبِي نُوَاسَ) ذَاتَ مَرَّةَ: "يَا أَبَا نُوَاسَ، أَنْتَ تَعْرِفُ مَكَانَةَ عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى الرَّضَا عَنِّي وَكُرمِي لَهُ، فَلِمَادَا تَأْخَرْتَ عَنْ مَدْحُهِ وَأَنْتَ شَاعِرُ هَذَا الْعَصْرِ وَفَرِيدُ زَمَانِكَ؟" فَأَنْشَأَ أَبِيَا تَأْمِنَةَ قَالَ فِيهَا:

قِيلَ لِي أَنْتَ أَوْحَدُ النَّاسِ طَرًا * فِي فَنُونِ الْكَلَامِ النَّبِيِّ
 لِكَ مِنْ جَوْهِرِ الْكَلَامِ بَدِيعُ * يَثْمِرُ الدَّرَّ فِي يَدِي مَجْتِنِي
 فَعَلَى مَا تَرَكْتَ مَدْحَابَنِ مُوسَى * وَالْخَصَالِ الَّتِي تَجْمَعَنِ فِيهِ
 قَلْتَ لَا أَهَتَدِي لِمَدْحِ إِمَامٍ * كَانَ جَبْرِيلُ خَادِمًا لِأَبِيهِ
 فَأَنْشَى عَلَيْهِ الْمَأْمُونُ وَقَالَ "أَحْسَنْتَ"، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْعَطَاءِ مَا يَعْدَلُ مَا
 أَعْطَاهُ لِجَمِيعِ الشُّعُرَاءِ مَجَمِعِينَ، بَلْ وَفْضَلَهُ عَلَيْهِمْ^(١).

المبحث الثاني: الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام

أولاً: عصر هارون الرشيد:

بعد استشهاد الإمام الكاظم عليه السلام عام ١٨٣ هـ، وتقلد الإمام الرضا عليه السلام منصب الإمامة، واجه صنوفاً وأشكالاً شتّى من ظلم (هارون) وقسوطه واضطهاده، ولم يُسجّل له أي مشاركة فاعلة في المجالس أو

١ - محمد بن الحسن الطوسي: عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٥٥.

المناسبات العامة. ويرجع ذلك إلى جملة أسباب، أبرزها التوصية التي أوصى بها الإمام الكاظم عليه السلام، والتي نصّت على أنَّ إعلان إمامته ابنه يجب أن يتأنَّرْ أربع سنوات بعد استشهاده، أي في عام ١٨٧ هـ، وذلك لإدراكه العميق للظروف العصيبة التي كانت ستمرُّ بها الأمة.

وبحلول العام ١٨٧ هـ، أعلن الإمام عليه السلام عن إمامته علنًا. وقد سأله (محمد بن سنان) مستغربًا: «لقد أعلنت هذا الأمر - الإمامة - وجلست مكان أبيك بينما سيف هارون لا يزال يقطر دمًا!» فردَّ عليه الإمام عليه السلام: «إنَّ ما منحني الجرأة على هذا الفعل هو قول الرسول صلوات الله عليه وسلم: لو استطاع أبو جهل أن يتقص شعرة من رأسِي؛ فاشهدوا بأنِّي لست نِيَّا، وأنا أقول: لو استطاع هارون أن ينقص شعرة من رأسِي فاشهدوا بأنِّي لست إمامًا»^(١). وقد تُوفيَ هارون عام ١٩٣ هـ ودفن في طوس، دون أن يتمكَّن من إلحاق الأذى بالإمام الرضا عليه السلام.

ثانيًا: عصر (الأمين):

تصف بعض المصادر التاريخية شخصيَّة (الأمين) بأنَّها كانت شخصيَّة متهاوية؛ حيث تشير بعض الكتابات إلى أنَّه «كان سيءًّا

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٨، ص ٢٥٧.

السيرة، ضعيف الرأي، مسفكًا للدماء، يتبع هواه، ويهمل شؤون الدولة، ويُفوضُ أمرها المصيرية لآخرين»^(١).

وقد تفاقم الصراع بينه وبين أخيه (المأمون)، ما أدى في نهايته إلى الإطاحة بحكم (الأمين) وقتله. واستغل الإمام الرضا عليه هذه الأجواء المضطربة، فكرّس جهوده في بناء الجماعة الصالحة ونشر التعاليم الإسلامية الأصيلة في مجتمع كان يعاني من الفساد والمجون والانحراف الفكري.

ثالثاً: عصر (المأمون):

سعى (المأمون) إلى إظهار براعته وحنكته السياسية من خلال تنصيب الإمام علي الرضا عليهما السلام ولينا للعهد.. لكن الطرف المقابل (الذي هو الإمام) تمكّن بذكاء من تحويل خطط (المأمون) الماكرة إلى إجراءات عديمة الجدوى والفاعليّة. كما سيتضح لاحقاً أثناء الحديث عن مسألة ولادة العهد بشيء من التفصيل.

وهناك عدّة أدلة على مكر (المأمون) وشدة دهائه.. ففي عهده كان يجري تشجيع العلم والمعرفة ظاهريّاً؛ حيث كان يدعو العلماء

١ - أبو الحسن المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٣٠٢

إلى بلاطه، وينعم عليهم بالهبات والجوائز لتشجيعهم وحثّهم على العلم والمعرفة والترجمة، وذلك تمهيداً لكسب ولائهم. علاوة على ذلك، حاول استمالة شيعة الإمام علي عليهما السلام وأتباعه من خلال القيام ببعض الإجراءات، مثل:

١. الإقرار بأنَّ الإمام علي عليهما السلام كان الأحق بالخلافة بعد النبي ﷺ.
 ٢. جعل سب (معاوية) ولعنه سياسة رسمية للدولة.
 ٣. إعادة أملاك فدك إلى العلوين، والتي كانت قد اغتصبت من السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام.
- وفي الختام، كان (المأمون) يبذل قصارى جهده لكسب رضا العامة، لتشييت حكمه وتأمين مرکزه على عرش الخلافة.

المبحث الثالث: الإمام الرضا عليهما السلام وولاية العهد

أولاً: دوافع تنصيب الإمام الرضا عليهما السلام ولیاً للعهد:
بعد مقتل (الأمين)، تولى أخيه (المأمون) الحكم عام ١٩٨ هـ، ثم أُعلن عن تعيين الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام ولیاً لعهده عام ١٢٠ هـ. وكانت هناك عدة غaiيات وأغراض من وراء إصدار (المأمون) لهذا القرار، منها:

١- تهدئة الأوضاع الداخلية:

بعد عام واحد فقط من توليّ (المأمون) الخلافة (عام ١٩٩ هـ)، اندلعت انتفاضات كبرى وحركات تمرّد واسعة النطاق قادها أبناء البيت العلوي. فقد ثار (أبو السرايا السري بن منصور الشيباني) في العراق مدعوماً من (محمد بن إبراهيم بن إسماعيل الحسني)؛ حيث ضرب نقوداً في الكوفة تخالف سكّة العباسين، وأرسل قوّاته إلى البصرة. وقد انتشرت الثورة على عدّة جبهات:

أ. جبهة البصرة تحت قيادة (العبّاس بن محمد بن عيسى الجعفري).

ب. جبهة مكّة تحت قيادة (الحسين بن الحسن الأفطس).

ج. جبهة اليمن تحت قيادة (إبراهيم بن موسى بن جعفر).

د. جبهة فارس تحت قيادة (إسماعيل بن موسى بن جعفر).

ه. جبهة الأهواز تحت قيادة (زيد بن موسى).

و. جبهة المدائن تحت قيادة (محمد بن سليمان)^(١).

ولذلك كان الهدف الأساس من استدعاء الإمام للخلافة إلى خراسان هو تحويل ساحة الصدام الدامي والمتوتّر إلى مواجهة سياسية سلمية.

١ - لجنة التاريخ في المنظمة العالمية للحووزات العلمية: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص. ١٦١-١٦٠.

٢- تجريدُ الثورة من صفتِي القداسة والمظلومية:

لم يعرف الشيعة الكلل أو الملل في النضال، ولم تكن ثورتهم لتعرف حدوداً. وقد اتَّسمت هذه المواجهات بخصائصتين أساسين:

■ صفةُ المظلومية.

■ القداسة^(١).

فالمظلومية: تجلَّت في انتزاع الحق الشرعي في الخلافة وقيادة الدولة، وما تعرَّض له أئمَّةُ أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم من اضطهاد وتضييق وإعدامات.

أمَّا القداسة: فتمثلَت في شخص الإمام المعصوم الذي حافظَ على مسافةٍ بينه وبين أجهزة الحكم القائم الجائر؛ حيث قادَ الأمة وفقَ المنهج الإسلامي الأصيل.

حاول (المأمون العبَّاسي) من خلال منصب ولاية العهد أن يتزعزع هاتين الصفتين (القداسة والمظلومية) اللتين تشكِّلان مصدر قوَّة دافعة للحركة الثورية في المجتمع الإسلامي. فبحسب تقديره، إنَّ انضمام الإمام عليه السلام إلى هيكل الحكم بصفته ولِيًّا للعهد سيجعله جزءاً من النظام الحاكم ومنفذاً لأوامر الخليفة، وبذلك يفقدُ صفةَ المظلومية وينزع عنه حالة القداسة.

١ - علي الخامنئي: الدروس العظيمة من سيرة أهل البيت عليهم السلام، ص. ١٩٠-١٩١. (بتصرف).

٣- منح الشرعية للخلافة العباسية:

إنَّ قبول الإمام الرضا عليه السلام بمبایعه (المأمون) لولاية العهد يعني منح الخليفة اعترافاً علنياً من أعلى المراتب العلوية بمشروعية حكم الدولة العباسية. وقد أفصح (المأمون) نفسه عن هذا الهدف بقوله: «فأردنَا أَن نجعله ولِيَّ عهْدَنَا، لِيَكُون دُعَاوَهُ لَنَا، وَلِيَعْرَفُ بِالْمُلْكِ وَالخِلَافَةِ لَنَا»^(١). فبالنسبة إلى (المأمون)، كانت هذه البيعة تعني إقراراً من الإمام عليه السلام بأنَّ الحقَّ في الخلافة ليس حكراً عليه شخصياً، ولا على آل البيت وحدهم. وبالتالي، فإنَّ حصول (المأمون) على هذا الاعتراف - خاصَّةً من الإمام عليه السلام - يُعدُّ ضربةً للعلويين أخطر من الأساليب القمعية التي استخدموها الحكام السابقون من أمويين و Abbasians، والتي تمثلَت في القتل والتشريد ومصادرة الممتلكات^(٢).

وقد ذكرت المصادر التاريخية أهدافاً أخرى للبيعة، مثل رغبة (المأمون) في اكتساب سمعة طيبة وصيت بالتقوى والحكمة، وتحويل الإمام عليه السلام إلى داعم ومرشد للنظام الحاكم، وغير ذلك من الأهداف

١ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٨١.

٢ - جعفر مرتضى العاملی: الحياة السياسية للإمام الرضا(ع)، ص.ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

التي سيجري التطرق إليها لاحقاً. ولكن يبقى السؤال الجوهرى هنا: ما هي الإجراءات التي اتخذها الإمام عليه السلام لمواجهة هذه الخطوة السياسية المحفوفة بالمخاطر؟

ثانياً: الإجبار على القبول بالبيعة:

إنَّ أولَ إجراء قام به الإمام عليه السلام هو رفض عرض ولادة العهد. وقد انتشر خبر هذا الرفض على نطاق واسع، حتى أنَّ (الفضل بن سهل) ذكره صراحة في أحد اجتماعات القصر. ومن جهة أخرى، كان الإمام عليه السلام يوضح في كل فرصة تسع له أنَّه مضطُرٌ ومُكْرَهٌ على قبول هذا المنصب، وهو بذاته إجراء مواجهة لخطبة (المأمون).

وفي هذا الصدد، يروي (الريان بن الصلت) قائلاً: «دخلتُ على عليَّ بن موسى الرضا عليه السلام، فقلت له: يا بن رسول الله، الناس يتساءلون: كيف قبلت ولادة العهد مع ما يُعرف عنك من الزهد في الدنيا؟ فأجابني عليه السلام: إنَّ الله يعلم كراحتي لذلك، ولكن عندما وُضعت أمام خيارين لا ثالث لهما؛ القبول أو الموت، اخترت القبول على القتل. ألا يعلم هؤلاء أنَّ النبي يوسف عليه السلام عندما اضطرته الظروف إلى تولي منصب في بِلَاط العزيز قال: اجعلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِظْتُ عَلَيْمٌ؟ لقد اضطررت أنا أيضاً للقبول تحت الإكراه والإجبار، وأنا على حافة

الهلاك، مع علمي أنَّ دخولي في هذا الأمر سيكون دخولاً مؤقتاً سأخرج منه، فإلى الله أشتكي وهو المستعان»^(١).

وبالطبع، فإنَّ قَبُولَ الإمام عليه السلام بالبيعة تحت التهديد بالقتل لا يعني أنَّه لم يفكِّر في العواقب والنتائج المترتبة على هذه الخطوة. ومن النصوص التي أظهرت تهديد المأمون له بوضوح، قوله: «إِنَّ عمرَ بن الخطابَ جعلَ الشَّوْرَى فِي سَتَّةِ أَحَدِهِمْ جَدَّكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ، وَاشْتَرَطَ أَنْ يُضْرِبَ عَنْقَ أَيِّ مُعْتَرِضٍ مِّنْهُمْ. وَلَا بَدَّ لَكَ مِنْ قَبُولِ مَا أَرِيدُهُ مِنْكَ، فَإِنِّي لَا أَجِدُ مُفْرَّغاً مِّنْ ذَلِكَ»^(٢).

ثالثاً: الإجراءات التي اتخذها الإمام عليه السلام عند قبوله ولادة العهد:

١- إصدار بيان تهديدي:

سبق التطرق إلى هذا الإجراء، وقد أسلَمَ تقصير أعون السلطة وافتقارهم إلى الحنكة السياسية في تسريب هذا الخبر ونشره.

٢- عدم التورط في الشؤون السياسية:

على الرغم من جميع الضغوط والتهديدات التي تعرض لها الإمام

١ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٣٩.

٢ - الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ص ٢٩٠.

الفصل العاشر - المبحث الثالث ٦٣

لِلْبَلَى، فقد وافق على قَبُول ولادة العهد مشترطاً الموافقة على عدم تدخله في أي شأن من شؤون الدولة، سواء في ما يتعلق بإعلان الحرب أو إبرام السلام، أم تعين المسؤولين وعزلهم وغير ذلك.

وقد صرَّح لِلْبَلَى رَدًّا على تهديدات (المأمون) له قائلاً: «فَإِنِّي أَجِبُكَ إِلَى مَا تَرِيدُ مِنْ وِلَادَةِ الْعَهْدِ عَلَى أَنَّنِي لَا أَمْرُ وَلَا أَنْهِي، وَلَا أَقْتِي وَلَا أَقْضِي، وَلَا أُولِي وَلَا أَعْزِلُ، وَلَا أَغْيِرُ شَيْئًا مَمَّا هُوَ قَائِمٌ»، فقبل (المأمون) منه ذلك كله^(١).

إلى جانب إجراءات أخرى اتّخذها الإمام الرضا لِلْبَلَى لِمواجهة هذه السياسة التي كان ينتهجها (المأمون).

رابعاً: نتائج ولادة العهد للإمام الرضا لِلْبَلَى:

شكَّلت السنة التي تولَّ فيها الإمام الرضا لِلْبَلَى ولادة العهد منعطَفاً تاريخياً بالغ الأهمية للقضية الشيعية؛ حيث أعطت نضال العلوين وكفاحهم دفعاً جديداً وروحًا متجددة، وذلك بفضل حكمة الإمام الثامن لِلْبَلَى وتدبيره^(٢). وفيما يأتي أبرز نتائج هذه الولاية:

١ - الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ص ٢٦٠.

٢ - علي خامنئي: الدروس العظيمة، ص ١٩٠.

١- اعترافُ المأمون بحقوقِ أهلِ البيتِ

تتجلى هذه التبيّنة في الخطابين اللذين ألقيا خالل مراسم التعيين. فقد صرّح الإمام عليهما موجهاً كلامه إلى الناس: «... إِنَّ لَنَا عَلَيْكُمْ حَقًا بِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا حَقًا بِهِ، فَإِذَا أَدِيمْتُ إِلَيْنَا ذَلِكَ وَجَبَ لَكُمْ عَلَيْنَا الْحُكْمُ وَالسَّلَامُ»^(١). ثم أتبع (المأمون) ذلك خطابه قائلاً: «... جاءتكم بيعة علي بن موسى بن جعفر... والله لو قرأت هذه الأسماء على الصم البكم لبرئوا بإذن الله عزّ وجلّ»^(٢).. ما يشكّل اعترافاً صريحاً بمكانة أهل البيت.

٢- توظيفُ الإعلام لصالحِ الإمامِ

استُخدمت آلَةُ الدُّولَةِ الإِلَاعَمِيَّةِ لِنشرِ فضْلِ الإمامِ وَمَكَانَتِهِ عبر خطوطِ عملية، منها:

- الدُّعَاءُ لِلإِمَامِ الرَّضِيِّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ عَلَى الْمَنَابِرِ فِي خُطُوبِ الْجَمَعَةِ وَجَمِيعِ الْمَنَاسِبِ.
- سُكُّ النقود باسمه في جميع أرجاء الدولة العباسية.

١ - ابن الصباغ المالكي: الفصول المهمة، ص ٢٥٥-٢٥٦.

٢ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٤٧.

الفصل العاشر - المبحث الثالث ٦٥

■ انتشار الخطب والأشعار التي تمدح الإمام وأهل بيته عليهما السلام، حتى أنَّ (المؤمنون) نفسه قال أبياتاً منها:

لا تُقبل التوبة من تائب *** إلا بحب ابن أبي طالب
أخي رسول الله حلف الهدى^(١) *** والأخ فوق الخلق والصاحب^(٢)

٣- حرية الإمام عليهما السلام في إجراء المنازرات:

أتاحت ولاية العهد للإمام عليهما السلام فرصة كبيرة لإجراء المنازرات العلنية مع علماء جميع المذاهب والأديان، حتى لُقب بـ "غيظ الملحدين" لقدرته على مواجهتهم وإفحامهم.. فقد جمع (المؤمنون) له كبار علماء المسيحية واليهودية والصابئة والمجوس والزرادشتية والروم، فناذر لهم جميعاً وغلبهم بالحجج والبرهان؛ لأنَّه امتلك المنطق الصحيح، والحجج والعلم وقوَّة المعرفة، فخضعوا لمعرفته وبيته وبراهينه.

٤- حقن دماء المسلمين:

كان من الآثار المباشرة والمُهمَّة لهذه الولاية تحقيق السلام

١ - محمد باقر القرشي: حياة الإمام الرضا عليهما السلام، ج ٢، ص ٢٤٩.

٢ - محسن الأمين العاملی: أعيان الشيعة، ج ٢، ص ١٦.

للمعارضين؛ حيث أصدر (المأمون) عفوًّا عامًّا عن قادة الثورات العلوية مثل (زيد) وإبراهيم) - أخي الإمام - و(محمد بن جعفر)، ما حفظ دماء كثرين.

٥-نشر فضائل أهل البيت عليهم السلام ومقاماتهم:

استغلَ الإمام علي موقعه لنشر مناقب وكرامات الإمام علي عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام.. ويعدَ أمر المأمون في سنة ٢١١ هـ بمنع مدح (معاوية) والإعلان بأنَّ «أفضل الخلق بعد رسول الله عليه السلام هو علي بن أبي طالب»^(١).. وهذا بحد ذاته دليل واضح على نجاح الإمام علي في إظهار هذه الفضائل والشمائل العظيمة، فكراً وعملاً.

١ - عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين السيوطي): تاريخ الخلفاء، ص ٢٤٧.

الفصل الحادي عشر:

الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام

يحضر الإمام محمد الجواد عليه السلام في التاريخ الإمامي بوصفه حلقةً مفصلية تربط بين إرث الأئمة السابقين وظروف القرن الثالث الهجري المتحولّة. ولأنَّ تفرد سيرته في صغر سنّه وتجلّيات علمه المبكرة، فإنَّ أهميّته لا تقتصر على معجزات الكفاءة المعرفية فحسب بل تتجلّى في كيفية أداء الإمامة بوصفها وظيفة روحية-اجتماعية داخل جهاز سلطة متغطّرٍ. يتطلّب فهم حقبة الإمام الجواد عليه السلام قراءة مركبة تربط بين ثلاثة محاور: أوَّلاً، استمرار الخط العقدي للمعصومية في ظرفٍ سياسيٍ مضطرب؛ ثانياً، آليّات الاحتكاك والتفاعل مع دواوين الحكم العباسي (منظور المأمون إلى الموقف الإمامي)؛ وثالثاً، بناء المرجعية العلميَّة ونقلها عبر شبكة الوكالء والرواة في زمن غياب الحرية.

المبحث الأول: سيرةُ حياةِ مضيئه

أوَّلاً: نظرُهُ تاريخيَّةً

ولد الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام في المدينة المنورة في العاشر من شهر رمضان المبارك، أو في التاسع عشر منه، عام ١٩٥ هجري. وهو ابن الإمام علي الرضا عليه السلام، وأمه جارية تُدعى (سبيكة)، وقد أطلق عليها الإمام الرضا عليه السلام اسم (خيزران). تسمى إلى أرض النوبة، من

قبيلة السيدة (مارية القبطية) أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وقد كانت من أفضل نساء عصرها فضلاً وتقوى، وقد أشير إلى ذلك في روایة عن النبي ﷺ حيث قال: «أبأي ابن خيرة الإمام التوبية الطيبة الفم»^(١). وكان للإمام عدّة ألقاب، منها: (المختار)، و(المنتجب)، و(المرتضى)، و(القانع)، و(العالم)، و(التقي)، و(الجoward)، وهذا الأخيران هما أشهرها. وكنيته (أبو جعفر الثاني)، للتمييز بينه وبين جده الإمام محمد الباقر ع.

تولى منصب الإمامة بعد استشهاد أبيه الرضا ع عام ٢٠٣ هجري، واستمرت إمامته سبعة عشر عاماً حتى عام ٢٢٠ هجري. وقبل استشهاده، عهد بالإمامية لابنه الإمام علي الهادي ع^(٢).

رُزق الإمام الجoward ع بأربعة أبناء هم: الإمام علي الهادي ع، وأبو أحمد موسى المبرقع)، وأبو أحمد الحسين)، وأبو موسى عمران). وله عدّة بنات هنّ: (فاطمة)، و(خديجة)، و(أم كلثوم)، و(حكيمة)، و(أمامة). وأم أولاده كانت أمّة تُدعى (سمانة). ولم ينجب من زوجته (أم الفضل)^(٣).

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٢٣.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٢٣.

٣ - راجع: الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ج ٢، ص ٢٩٥؛ الفضل بن الحسن الطبرسي: تاج المواليد، ص ٥٤.

استُشهد عليه السلام في نهاية شهر ذي القعدة عام ٢٢٠ هجري، بعد أن دسّت له زوجته (أم الفضل بنت المأمون) السمّ، بتشجيع من عمّها الخليفة (المعتصم). دُفن في بغداد في مقبرة قريش، إلى جوار قبر جده الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام.

ثانياً: علمه وسموّ أخلاقه:

حظي الإمام الجواد عليه السلام بمكانة علمية رفيعة في الأوساط الإسلامية، وكان محطّ تقدير العلماء والجمهور على حد سواء. وكان أتباعه وشيعته يقصدونه لسؤاله عن أحكام الحلال والحرام، رغم صعوبة السفر ومشاقّ الطريق. وكان عليه السلام يكرس وقته للردّ على استفسارات الناس وإشكالاتهم، فكان يقيم جلسات مخصّصة لذلك، حتى آنَّه أجاب في إحدى الجلسات عن مئات المسائل، ما أثار إعجاب الحاضرين بعمق علمه وفضائله الكبيرة^(١).

وهذه المنزلة العلمية الرفيعة هي ما دعت (المأمون) إلى التقرّب منه وإكرامه، بل والمبالغة في إجلاله وتعظيمه، حتى آنَّه عزم على تزويجه من ابنته (أم الفضل). وقد أثبت الإمام عليه السلام جدارته بهذه المكانة وهو

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٦، ص ٤٩٦.

لا يزال في ريعان الصبا؛ حيث تولى الإمامة وعمره لم يتجاوز السبع أو الثمانى سنوات^(١).

وتتلذذ على يديه عدد كبير من الرواة والعلماء، منهم: (إسحاق بن إبراهيم الحضيني)، وأبيوبن نوح بن دراج)، و(الحسن بن راشد)، و(صالح بن أبي حماد)، و(علي بن يحيى) -المُكْنَى بأبي الحسين، و(محمد بن أبي زيد الرازي)، و(نوح بن شعيب البغدادي)، و(أحمد بن الحسن بن علي بن فضال)، و(حمدان بن سليمان بن عميرة)، و(داود بن أبي زيد)، و(رجاء العبرتائي بن يحيى)، وغيرهم كثير من الفقهاء والمحدثين^(٢).

وعلى الرغم من إقامته في عاصمة الخلافة (بغداد)، كان الإمام متصفًا بالزهد الشديد في الدنيا. يروي (الحسين المكاري) قائلاً: «دخلت على أبي جعفر عليه السلام في بغداد وهو في حاله تلك، فقلت في نفسي: هذا الرجل لن يعود إلى وطنه أبداً (يقصد المدينة) وأنا أعرف مستوى عيشه الفاخر، فأطرق برأسه ثم رفعه وكان لونه قد اصفر، فقال: يا حسين، خبز شعير وملح جريش في حرم جدي رسول الله عليه السلام».

١ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٢٨١.

٢ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ٣٨٧.

أحبُّ إلَيْيِّ ممَّا تراني فيه»^(١).

كما كانَ اللَّهُمَّ حريصًا على توجيه أصحابه وإرشادهم، فورَّدَ أَنَّ رجلاً جاءَه طالبًا الوصيَّةَ، فقالَ لَهُ الإمامُ اللَّهُمَّ: «هلْ تقبلُ؟» قالَ: نعم. فقالَ اللَّهُمَّ: «توسِّد الصبرَ، واعتنق الفقرَ، وارفض الشهواتَ، وخالِفَ الهوىَ، واعلمَ أَنَّكَ لَنْ تخلوَ مِنْ عَيْنِ اللهِ، فانظِرْ كَيْفَ تَكُونُ»^(٢).

المبحث الثاني : السياق السياسي للسائل

كانَ أَتَبَاعُ مَدْرَسَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ يَتَرَقَّبُونَ بِلَهْفَةٍ شَدِيدَةٍ مِيلَادَ الْإِمامِ الْجَوَادِ مِنْ وَالدِّهِ الْإِمامِ الرَّضاَ اللَّهُمَّ؛ إِذْ كَانُوا عَلَى عِلْمٍ مُسْبِقٍ بِذَلِكَ. لَكِنَّ الْإِمامِ الرَّضاَ اللَّهُمَّ قَدْ تَجاوزَ عُمْرَهُ الْأَرْبَعِينَ عَامًا دُونَ أَنْ يُرْزَقَ ذُرِيَّةً، وَعِنْدَمَا كَانَ يُسَأَلُ عَنْ ذَلِكَ، كَانَ يَرِدُ قَائِلًا: «إِنَّ اللَّهَ سُوفَ يَرْزُقُنِي وَلَدًا يَكُونُ الْوَارِثُ لِي وَالْإِمَامِ مِنْ بَعْدِي»^(٣).

وَأَخِيرًا، وُلِدَ الْإِمامُ الْجَوَادُ عَامَ ١٩٥ هـ. وَقَدْ قَالَ الْإِمامُ الرَّضاُ اللَّهُمَّ لَدِيْ ولادَتِهِ: «لَقَدْ وُلِدَ لِي مِنْ يَشْبَهُ مُوسَى بْنَ عُمَرَانَ فَاتَّحْ الْبَحَارَ،

١ - سعيد بن هبة الله الرواundi: الخرائج والجرائح، ج ١، ص ٣٨٣.

٢ - ابن شعبة الحراني: تحف العقول، ص ٤٥٥.

٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ١٥.

ويشبه عيسى بن مريم. ظهرت أم ولادته، فقد خلقت طاهرة مُطهّرة». ثم أضاف عليه السلام: «يُقتل غصباً فيكي له وعليه أهل السماء ويغضب الله على عدوه وظالمه، فلا يلبث إلّا يسيراً حتّى يُعجل الله به إلى عذابه»^(١). وشكّلت ولادة الإمام عليه السلام محطةً مزفّت غيمة القلق التي كانت تخيم على قلوب الشيعة الذين كانوا يخشون إلّا يكون للإمام الرضا عليه السلام خليفة من بعده.

إنَّ النقطة الأبرز التي تستدعي التأمل هي تسلُّم الإمام عليه السلام لمنصب الإمامة وهو في السابعة أو الثامنة من عمره، ما شكَّل سابقة في الفكر الإمامي. لكنَّ هذا الأمر لا يُعد غريباً في سير الأولياء والصالحين، التي حفلت بعدد من المعجزات والخوارق التي تتحطّى القوانين الطبيعية المألوفة.

وتميزَت الفترة التي عاشها الإمام الجواد عليه السلام بوجود شخصيَّة فريدة على رأس السلطة، تمتَّعت بدهاءٍ غير عادي وعلمٍ واسع، وأسلوب عمل متميِّز عن غيره من الحَكَّام الذين تعاقبوا على مواجهة الأئمَّة عليهم السلام، إلَّا وهو (المأمون) الذي شهد له التاريخ بأنَّه كان أذكى حَكَّاماً بني العباس، كما كان (معاوية) أذكى بني أميَّة.

في خلاف من سبقوه في الحكم، الذين واجهوا الأئمة العليين وأتباعهم مواجهة مباشرة باستخدام القوة والعنف، فإن (المأمون) – الذي رأى بعينه كيف كان والده هارون الرشيد يتعامل مع الشيعة بقسوة بالغة – أدرك أن هذا النهج لن يزيد them إلا تمسكاً بمبادئهم ورسوخاً في خطهم، بل قد يهدد استقرار حكم بنى العباس نفسه^(١) ، كما حدث مع حكم بنى أمية من قبل، حيث انهار من جذوره.

المبحث الثالث: استراتيجية المأمون

انتهج المأمون منهجاً مغايراً في تعامله مع الشيعة، يرتكز على محاولة إضعاف الفكر الشيعي وهزيمته من داخله، بما يحدث شرخاً في قناعاتهم وعقائدهم ما يقضي عليهم نهائياً. ولإدراكه أنَّ مسألة الإمامة تمثل حجر الزاوية في هذا الفكر، سعى لتحقيق هدفه عبر محاور عدَّة:

- ١ . محاولة تقويض عقيدة عصمة الإمام العليين من خلال إحضاره إلى بَلَاط الخلافة ليعيش في رغد وترف القصور، آملاً أن يسقطه ذلك من أعين ناسه وأتباعه.

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٣١.

٢. محاولة النيل من مكانته العلمية عبر إقامة مناظرات بينه وبين أبرز علماء عصره بحضور النخبة والوجاهاء، على أمل أن يعجز أو يتزدّد، فيحقق (المأمون) مراده.
 ٣. في حال فشل خطّته في تحطيم فكرة الإمامية، فإنّ وجود الإمام عليه السلام إلى جانبه سيحوله إلى تابع للسلطة، ما يحوّل أتباعه من معارضين إلى مؤيّدين لحكم بنى العباس.
- مضافاً إلى ذلك، شكلَت ممارسة الشيعة للتقيّة والعمل السري مشكلةً للدولة، وقرب الإمام عليه السلام من (المأمون) ومراقبته طوال الوقت يُمكّنه من رصد جميع تحركاته واتصالاته، وبالتالي كشف قادة الشيعة وتنظيماتهم.
- وقد طبق المأمون هذه الاستراتيجية نفسها مع الإمام الرضا عليه السلام، لكنّها باهت بالفشل الذريع، ولم يتمكّن من تسجيل أي نقطة ضعف ضدّ الإمام عليه السلام يستغلّها، حتى أيقن أنّ الأمور تسير إلى غير صالحه، وأنّ شهرة الإمام الرضا عليه السلام وحبّ الناس له تتعاظم بسبب تلك المناظرات، ويزداد أتباعه يوماً بعد يوم. فلم يبق أمامه إلا الحلّ الوحيد: التخلّص منه بالسمّ.
- في هذا المناخ انتقلت مواجهة (المأمون) إلى الإمام الجواد عليه السلام، الذي كان في الثامنة من عمره تقريباً. هنا، أبصر (المأمون) بصيص أمل جديد في تحقيق مخطّطه بالطريقة ذاتها، فالشخص الذي يواجهه الآن

ليس الإمام الرضا عليه السلام بل فتىً لم يبلغ الحلم بعد، ومنْ في مثل سنّه - في الظاهر - لن يستطيع مجابهة كبار العلماء أو يقاوم مغريات القصور السلطانية. لذا، بادر باستدعاء الإمام الجواد عليه السلام إلى بغداد.

المبحث الرابع: رد الإمام الجواد عليه السلام

واجه الإمام الجواد عليه السلام هذه السياسة منذ وطأت قدماه بغداد، وأفشلها واحدة تلو الأخرى:

١- على الصعيد العلمي:

هيأً (المؤمن) مناظرات علنية بين الإمام عليه وقاضي القضاة (يحيى بن أكثم)، بحضور أعيان الدولة ووجهائها. وصرّح (المؤمن) بغايته منها عندما قال لـ يحيى: «اطرح على أبي جعفر محمد بن الرضا عليه مسألة صعبة تعجزه عنها». لكن سير المناظرات كان دوماً إلى صالح الإمام عليه؟، حيث كان خصميه يقف حائراً منبهراً من سعة علمه وإحاطته.

ومثال على ذلك: عندما سأله يحيى: ما قولك في مُحرِّم قتل صيداً؟ فردَ الإمام عليه بسؤال مضاد: «أقتله في الحل أم الحرم؟ أكان عالماً أم جاهلاً؟ أقتله عمداً أم خطأ؟ أكان حُرّاً أم عبداً؟ صغيراً أم كبيراً؟

لأوَّلِ مرَّة يُقتل أم معيَّداً؟ أكان الصَّيد من الطَّيور أم غيرها؟ من صغار الصَّيد أم كباره؟ أكان مصراً على فعلته أم نادماً؟ أقتلَه ليلاً أم نهاراً؟ أكان محروماً بعمره حين قتله أم بحج؟».. فتحير (يحيى بن أكثم) وبذا العجز على محياه، وتلعم حتى أدرك الحاضرون انقطاعه.

ثمَّ شرع الإمام البهجه في تفصيل أحكام كلّ حالة، قائلاً: «إِنَّ الْمُحْرَمَ إِذَا قُتِلَ صَيْدًا فِي الْحَلَّ وَكَانَ الصَّيدُ مِنْ ذُوَاتِ الطَّيْرِ، وَكَانَ مِنْ كَبَارِهَا، فَعَلَيْهِ شَاةٌ، فَإِنْ أَصَابَهُ فِي الْحَرَمِ فَعَلَيْهِ الْجَزَاءُ مُضَاعِفًا، وَإِذَا قُتِلَ فَرَخًا فِي الْحَلَّ فَعَلَيْهِ حَمَلٌ قَدْ فُطِمَ مِنَ الْلَّبَنِ، وَإِذَا قُتِلَ فِي الْحَرَمِ فَعَلَيْهِ الْحَمَلُ وَقِيمَةُ الْفَرَخِ، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْوَحْشِ وَكَانَ حَمَارًا وَحْشًا فَعَلَيْهِ بَقْرَةٌ، وَإِنْ كَانَ نَعَامَةً فَعَلَيْهِ بَدْنَةٌ، وَإِنْ كَانَ ظَبَّاً فَعَلَيْهِ شَاةٌ، وَإِنْ كَانَ قُتِلَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فِي الْحَرَمِ فَعَلَيْهِ الْجَزَاءُ مُضَاعِفًا هَدِيًّا بَالغُ الْكَعْبَةَ. وَإِذَا أَصَابَ الْمُحْرَمَ مَا يُجْبِي عَلَيْهِ الْهَدِيَ فِيهِ، وَكَانَ إِحْرَامَهُ بِالْحَجَّ نَحْرَهُ بِمَنِي، وَإِنْ كَانَ إِحْرَامَهُ بِالْعُمَرَةِ نَحْرَهُ بِمَكَّةَ، وَجَزَاءُ الصَّيدِ عَلَى الْعَالَمِ وَالْجَاهِلِ سَوَاءً وَفِي الْعَمَدِ عَلَيْهِ الْمَأْثُمُ وَهُوَ مَوْضِعُ عَنْهُ فِي الْخَطْأِ، وَالْكَفَّارَةُ عَلَى الْحَرَّ فِي نَفْسِهِ، وَعَلَى السَّيِّدِ فِي عَبْدِهِ، وَالصَّغِيرُ لَا كَفَّارَةً عَلَيْهِ، وَهِيَ عَلَى الْكَبِيرِ واجِبَةٌ وَالنَّادِمُ يَسْقُطُ نَدْمَهُ عَنْهُ عَقَابُ الْآخِرَةِ، وَالْمَصْرُ يُجْبِي عَلَيْهِ الْعَقَابَ فِي الْآخِرَةِ»^(١).

وكان من نتائج هذه المناظرات أن انتشر الفكر الشيعي وظهرت مтанته وعلوّه، فانقلبت خطة (المأمون) عليه.

٢- الحفاظ على هيبة أهل البيت (عليهم السلام):

سعى (المأمون) جاهدًا لتسجيل أي هفوة على الإمام (عليه السلام) للنيل من مكانته وقدسيته، واستخدم كل الوسائل. ففي رواية لـ (محمد بن الريان): احتال المأمون على أبي جعفر (عليه السلام) بكل حيلة فلم يقدر عليه. فلما أراد تزويجه ابنته، أرسل إليه مئة جارية من أجملهن، كلّ تحمل طبقاً من جواهر، ليقابلنه حين جلوسه في مكان الختان، فلم يلتفت إليهن إطلاقاً. وكان هناك رجل يُدعى مخارق، صاحب صوت وعود، طويل اللحية، فقال للمأمون: «دعني أكفيك أمره إن كان من أمور الدنيا». فجلس يعزف أمام الإمام (عليه السلام) الذي لم يلتفت إليه. ثمَّ رفع الإمام (عليه السلام) رأسه وقال: «اتقِ الله يا ذا العشون»^(١) قال: «فسقط المضراب من يده والعود فلم ينتفع بيده إلى أن مات»^(٢).
كان (المأمون) يستغلّ وجود الإمام (عليه السلام) في القصر إعلامياً لعكس

١ - اللحية الطويلة.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٤٩٥.

صورة سلبية في الوسط الشيعي. لكنه فشل في تحويل الشيعة إلى أتباع للمشروع العباسي؛ حيث استفاد الإمام علياً من هذه السياسة في تقوية المشروع الإسلامي الأصيل. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينٍ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كُلَّهُ وَلَوْ كَرِهُ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبه: ٣٣].

واستمرّ (المأمون) في سياساته يجني الفشل تلو الآخر حتى توفي، فخلفه أخوه (المعتصم) الذي سار على النهج نفسه لفترة، ثم سرعان ما أدرك فشل هذه الاستراتيجية التي لم تزد مشروعه إلا ضعفاً وأتباعاً أهل البيت علاوة إلا قوّة وثباتاً. فأحبطه الفشل وتخلى عن سياساته، ولجا إلى القوّة والعنف ككل ضعيف يعجز عن مواجهة الفكر والكلمة، فدسّ السم للإمام علياً الذي استشهد عن عمر لم يتجاوز الخامسة والعشرين.

الفصل الثاني عشر:

الإمام علي بن محمد الهادي (عليه السلام)

يمثل الإمام الهادي عليه محفظة تلازم فيها المباشرة العقدية مع تحديات السلطنة العباسية المتدهورة: طفولة إمامية تلازمها اختبارات شرعية وسياسية، وبيئة ثقافية تخطبها ترجمات و المعارف جديدة و ظهور معايير سلطوية متبدلة. هدف هذا الفصل أن يقدم الإمام الهادي عليه لا بوصفه مثالاً فردياً فحسب، بل نموذجاً لعمل إمامي مؤسسي: كيف تنظم شبكة الإمامة في زمن يكون فيه الوجود العلوي معرضاً للاختزال والإفقار؟ وكيف يستمر الفعل التربوي والمعرفي في مواجهة ضيق المساحة العامة؟ سنعيد قراءة سلوك الإمام الهادي عليه من خلال تراكيب ثلاثة: أخلاق الحضور (تواضع، عبادات، خطابات تربوية)، والإدارة التنظيمية (نظام الوكالة وأهمية الوكلاء في هندسة التواصل)، والامتداد التاريخي (كيف تهياً الحقل الشيعي لمرحلة ما بعد الإمام الهادي). ربما الأهم، أن نفهمه صانعاً للمقومات التي ستتحمل غياب الإمام الحاضر لاحقاً؛ أي: تهيئة الذخيرة العقدية والرسائل العملية للأجيال القادمة.

المبحث الأول: حياة مضيئة

أولاً: نبذة تاريخية:
ولد الإمام علي بن محمد الهادي عليه في الخامس عشر من ذي

الحجـة سـنة ٢١٢ هـ جـريـة بالقـرب مـن المـديـنـة المـنـورـة فـي مـكـان يـعـرـفـ بـ(صـرـياـ). أـبـوه هـو الإـمـام مـحـمـد الجـوـاد (عـلـيـهـ الـبـلـىـ)، وـأـمـهـ السـيـدة سـمـانـةـ المـغـرـبـيـةـ، الـتـي عـرـفـتـ بـالـتـقـوـيـ والـصـلـاحـ، وـكـانـتـ دـائـمـةـ الصـيـامـ وـلـاـ نـظـيرـ لـهـاـ فـيـ زـهـدـهـاـ، وـتـكـنـيـ بـ(أـمـ الفـضـلـ). وـقـدـ وـرـدـ عـنـ الإـمـامـ (عـلـيـهـ الـبـلـىـ)ـ فـيـ حـقـهـاـ قـولـهـ: «أـمـيـ عـارـفـةـ بـحـقـيـ وـهـيـ مـنـ أـهـلـ الـجـنـةـ لـاـ يـقـرـبـهـاـ شـيـطـانـ مـارـدـ، وـلـاـ يـنـالـهـاـ كـيدـ جـبـارـ عـنـيـدـ، وـهـيـ مـحـفـوظـةـ بـعـينـ اللـهـ التـيـ لـاـ تـنـامـ، وـلـاـ تـخـتـلـفـ عـنـ أـمـهـاتـ الصـدـيقـيـنـ وـالـصـالـحـيـنـ»^(١).

ومن ألقابه **الملائكة**: (النجيب)، و(المرتضى)، و(الهادى)، و(النفى)، و(العالم)، و(الفقيه)، و(الأمين)، و(المؤمن)، و(الطيب)، و(المتوكل). وأشهرها لقبا «الهادى» و«النفى».

أما كنيته فهي: أبو الحسن الثالث، للتمييز بينه وبين الإمام الكاظم والإمام الرضا عليهما السلام. ورُزق الإمام عليهما السلام بخمسة أولاد هم: الإمام الحسن العسكري عليهما السلام، و(الحسين)، و(محمد)، و(جعفر) -المشهور بجعفر الكذاب لادعائه الإمامة زوراً-، وانته عائشة^(٢).

وقبل استشهاده، أوصى الإمام الله بالإمام لابنه الإمام الحسن

١- يوسف بن حاتم الشامي: الدرُّ النظيم في مناقب الأئمة الـلهـامـيـمـ، ص ٧٢١.

^٢ - الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ج ٢، ص ٣١٢.

ال العسكري (ع)^(١). واستشهاده في الثالث من شهر رجب سنة ٢٥٤ هجرية، مسموماً في عهد الخليفة (المعتز)، ودفن في سامراء.

ثانياً: مكارم أخلاقه وفضائله:

كان الإمام الهادي عليه أذب الناس طلعة، وأصدقهم حدثاً، وأبهجهم مظهراً عن قرب، وأكملهم هيئةً عن بعد؛ إذا سكت غمرته هيبة الوقار، وإذا نطق أشرق بهاءً ونوراً^(٢). وكان الناس إذا دخل عليهم تواضعوا له إجلالاً وإكباراً. وهنا يروي (أبو هاشم الجعفري) أن بعض الحاضرين في مجلس ينتظرون قدوم الإمام الهادي عليه قالوا: «لم نتواضع لهذا الغلام؟ فهو ليس بأشرفنا ولا أكبرنا سنّا ولا أعلمنا! والله لن نفعل». فقال لهم (أبو هاشم): «والله لتقومن إلينه خاضعين عندما ترونـه». وما إن أقبل الإمام عليه حتى رأوه فقام الجميع له إجلالاً.. فقال لهم (أبو هاشم): «ألم تزعموا أنكم لن تقوموا؟» فرددوا: «والله ما ملـكـنا أنفسـنا حتى قـمنـا»^(٣).

وكان عليه كثير العبادة لله تعالى، منصرفًا إليها بكلّيه، لا يكلّ ولا

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٢٥.

٢ - ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٣، ص ٥٠٥.

٣ - ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٣، ص ٥١١.

يملّ، دائم الابتسام، و دائم الذكر لله عزّ و جلّ^(١). ومن أذكاره الدائمة قوله: «سبحان من هو دائم لا يسهو، سبحان من هو قائم لا يلهو، سبحان من هو غني لا يفتقر، سبحان الله وبحمده»^(٢). وكان متجرّداً من الدنيا، يلبس جبة من الصوف، ويسلام على حصير بسيط^(٣).

ومن حكمه ومواعظه للناس ما روي عن (أبي هاشم الجعفري) قال: «أصحابي ضيق وشدة، فذهبت إلى أبي الحسن علي بن محمد عليهما السلام، فأذن لي. فلما جلست قال: يا أبا هاشم، أي نعم الله تعالى عليك تريد أن تؤدي شكرها؟ قال أبو هاشم: فدهشت ولم أدر ما أرد عليه»^(٤)

فابتداه الإمام عليهما السلام قائلاً: «رزقك الإيمان فحرّم بدنك على النار، ورزقك العافية فأعانتك على الطاعة، ورزقك القنوع فصانك عن التبدل، يا أبا هاشم إنما ابتداك بهذا لأنني ظنت أنك تريد أن تشكو لي من فعل بك هذا، وقد أمرت لك بمئة دينار فخذها»^(٥).

١ - سعيد بن هبة الله الرواوندي: الخرائج والجرائم، ج ٢، ص ٩٠١.

٢ - سعيد بن هبة الله الرواوندي: الدعوات، ص ٩٤.

٣ - سعيد بن هبة الله الرواوندي: الخرائج والجرائم، ج ٢، ص ٩٠١.

٤ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): الأمالى، ص ٤٩٨.

ثالثاً: إطلالةُ على عطائه عليهما العلمي:

يُجمع كُتاب السيرة والمؤرخون على اعتبار الإمام الهادي عليهما أحد أبرز الشخصيات العلمية في زمانه؛ حيث تلمنذ على يديه وروى عنه ما يزيد عن مئة وخمسة وثمانين طالباً وراوياً. وقد حفظت لنا المصادر التراثية في مجالات الحديث والفقه والتفسير والمناظرات وغيرها ثروة علمية نُقلت عنه واستُفید منها.

ومن بين أبرز تلامذته ورواة حدثه: (أحمد بن حمزة بن اليسع)، (داود بن القاسم الجعفري)، (عبد العظيم الحسني)، (أحمد بن إسحاق الأشعري)، (الحسين بن سعيد الأهوازي)، (داود النيشابوري)، (علي بن مهزيار الأهوازي)، (الفضل بن شاذان النيشابوري)، (عمان بن سعيد العمري) - وكيل الإمام المهدي عليهما السلام وسفيره^(١).

وللإمام عليهما أيضًا رسائل في مجالات متعددة، تشمل رسالة في نقد نظرية الجبر والتفويض، وأخرى في إثبات العدل الإلهي، وثالثة في بيان مفهوم "المنزلة بين المنزلتين"، وغيرها من القضايا.

١ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ٣٨٣.

المبحث الثاني: استلام الإمام الهادي عليه السلام لمنصب الإمامة

تولى الإمام الهادي عليه مهام الإمامة بعد استشهاد والده الإمام الجواد عليه عام ٢٢٠ هـ، وكان عمره آنذاك ثمانية سنوات فقط. وبذلك، تُعد إمامته النموذج الثاني لتولي منصب الإمامة في سن مبكرة ضمن الفكر الشيعي، تماماً كما حدث مع الإمام الجواد عليه من قبله؛ حيث كان هناك استعداد وتوطئة من الإمام الرضا عليه لإمامته ابنه من بعده.

وقد استدعت هذه المرحلة المبكرة تركيز النصوص والروايات على تشبيت فكرة إمامته في أذهان الناس. كما أنَّ تسلمه لهذا المنصب الإلهي في مثل هذا السن الصغير جعل الكرامات تظهر على يديه، ما يؤكّد صلته بعالم الغيب. ولذلك، كان لا بدَّ من التأكيد على إمكانية نيل مرتبة الإمامة في الصغر، وقد وردت في ذلك روايات عدَّة.

وبعض هذه الروايات يشير صراحةً إلى أنَّ الإمام الهادي هو الخليفة الشرعي بعد أبيه، وأخرى تؤكّد على ضرورة الانقياد لأمره وتبيين أنَّ الإمام من بعده هو ابنه الحسن عليهما السلام، ثمَّ الإمام القائم عليهما السلام. ومن تلك الروايات ما نقله (إسماعيل بن مهران) عن الإمام الجواد عليه عندما

سأله عن الإمام من بعده أثناء خروجه إلى بغداد، فأجابه ضاحكاً بأنَّ الخطر لم يحن بعد، ولكن عند استدعائه للمرة الثانية، بكى الإمام عليهما السلام وأخبره بأنَّ الإمام من بعده هو ابنه علي (أي الإمام الهادي). وفي رواية أخرى عن الصقر بن أبي دلف، قال الإمام الجواد عليهما السلام: «الإمام بعدي ابني علي، أمره أمري، قوله قولي، وطاعته طاعتي، والإمام بعده ابني الحسن، أمره أمر أبيه، قوله قول أبيه، وطاعته طاعة أبيه»^(١). وعندما سُئل عن الإمام بعد الحسن، بكى بشدة ثم قال: «إن بعد الحسن ابنه القائم بالحق المنتظر»^(٢).

المبحث الثالث: السياق التاريخي لعصر الإمام الهادي عليهما السلام

أولاً: الأوضاع السياسية السائدة في عصره عليهما السلام:
تولى الإمام الهادي عليهما السلام مسؤولياته الإمامية في عهد الخليفة العباسي (المعتصم) عام ٢٢٠ هـ، واستمرَّ إمامته حتى استشهاده في خلافة

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٢٦٠.

٢ - علي بن يونس العاملي النباطي البياضي: الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم، ص ٢٣.

المعترض عام ٢٥٤ هـ. وخلال هذه الفترة التي امتدت لأربعة وثلاثين عاماً، عاصر الإمام ستة من خلفاء بنى العباس.

ويعدّ عهد الخليفة المتوكل بدأية ما يُعرف بالعصر العباسى الثانى، الذى تميّز بهيمنة النفوذ التركى (من عام ٢٣٢ إلى ٣٣٤ هـ). يرى عدد من المؤرّخين أنَّ هذه الحقبة كانت بمثابة الشرارة الأولى لمرحلة التدهور والتفكك التى دخلتها الدولة العباسية، والتي انتهت لاحقاً بانهيارها على يد المغول (التتار) سنة ٦٥٦ هـ.

وساهمت السياسات التى انتهجها المٌتوكل وأسلافه في تمرّد بعض الأقاليم واستقلالها التدريجي عن السلطة المركزية في بغداد، ما أدى إلى ظهور كيانات ودول مستقلة ومتنافسة مثل السامانية والبوهيمية والحمدانية، والتي أعقبتها لاحقاً دول العزنويين والسلاجقة^(١).

ويعتبر (المعتصم) أول خليفة عباسى يفتح الباب على مصراعيه للعنصر التركى؛ حيث اعتمد عليهم بشكل كبير في الجيش والإدارة ومنحهم المناصب القيادية والأراضي الواسعة^(٢).

أما (المٌتوكل)، فقد اشتهر باتباعه سياسة قمعية وعنيفة تجاه

١ - حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٣، ص ١ .

٢ - حسن حسن: تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٣، ص ٢ .

العلويين وأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام^(١). بلغت ذروة هذه السياسة العدائية عندما أمر بهدم ضريح الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، ومنع الناس من زيارته، وهدد كل من يخالف هذا المنع بالسجن. أثارت هذه الإجراءات الاستفزازية سخط المسلمين عامّة، وأهالي بغداد خاصة، الذين ردوا على إهاناته للعلويين بشتمه علناً في الشوارع والمساجد^(٢).

بعد (المتوكل)، خلفه ابنه (المتصّر) الذي انتهج سياسة معاكسة لسياسة أبيه، فعامل العلوّيين معاملة حسنة، وأزال عنهم أجواء الخوف والرعب، وألغى الحظر على زيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام. لكنّ حكمه كان قصيراً؛ حيث دبر له القادة الأتراك مؤامرة انتهت بقتله على يد طبيبه الخاصّ (طيفور) سنة ٢٤٨ هـ^(٣).

تولى الخلافة بعد مقتل (المتصّر) (المستعين بالله) سنة ٢٤٨ هـ، وأعاد العاصمة إلى بغداد. لكنّ مصيره أيضاً كان مأساوياً، حيث قُتل غدرًا^(٤)، ليتولى الخلافة من بعده (المعتمر) بقيادة وتدبیر من الأتراك^(٥).

١ - محمد بن جرير الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ١١، ص ٤٤.

٢ - حسن حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٣، ص ٥.

٣ - محمد بن جرير الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٦، ص ٤٣٧.

٤ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٥٠ وما بعدها.

٥ - أبو الحسن المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٤٠٧-٤٠٨.

ولم يسلم (المعتز) نفسه من بطش وتعسّف قادة الدولة الأتراك؛ حيث قُتل قتلةً بشعة على أيديهم سنة ٢٥٥ هـ، وهو نفسه الذي دبر مؤامرة لقتل الإمام الهادي عليه السلام في عهده.

ويشير التحليل التاريخي إلى أن ضعف الشخصية الذي ميز معظم خلفاء تلك الحقبة كان أحد العوامل الرئيسة وراء حالة التفكك والانهيار التي أصابت الدولة. وقد اقترن هذا الضعف بنفوذ كبير لزوجاتهم وأمهاتهم في شؤون الحكم، مضافاً إلى سيطرة القادة الأتراك الذين استقدموا أصلاً للحد من نفوذ الفرس والعرب. كما كان لظلم الولاة والوزراء وفسادهم دور محوري في تقويض ثقة الرعية بالحكومة، وإشعال نيران الفتنة والاضطرابات في أرجاء العالم الإسلامي.

ثانياً: المشهد الثقافي:

أسهمت الحركة الواسعة لترجمة الأعمال من اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية في تشكيل ملامح الثقافة في تلك الفترة. وقد بدأت هذه الظاهرة في عهد الخليفة (المأمون)، وأسهمت من ناحية في إثراء الثقافة الإسلامية، ومن ناحية أخرى في فتح آفاق للتواصل مع الحضارات الأخرى، وما تحمله من تيارات فكرية قد تلتقي أو تختلف مع ما أنتجته الحضارة الإسلامية.

كما أدى تنقل المسلمين وترحالهم عبر أرجاء العالم المعروف إلى تعزيز التبادل الثقافي بين شرق العالم الإسلامي وغرقه، ما ولد حراكاً فكريّاً ونشاطاً ثقافياً متميّزاً. وقد حظي الشعراء والأدباء برعاية خاصة من قبل الحكام والأمراء، ما أسهم في ازدهار الحركة الأدبية بشكل ملحوظ خلال هذه الحقبة.

ثالثاً: الأوضاع الاقتصادية:

أثرت الأضطرابات السياسية والصراعات على السلطة وبداية انفصال بعض الأقاليم عن الدولة العباسية سلباً على الاقتصاد، ما أدى إلى تدهوره. وساهمت الطبقية الاجتماعية الواضحة في تسريع الانهيار الاقتصادي، إلى جانب انتشار المجموعات وارتفاع الأسعار، ما كان له تأثير كبير في تفشيّ انعدام الأمن وفقدان الدولة لقدرتها على السيطرة. وقد انعكس هذا الضعف الاقتصادي السياسي على قصر المدة الزمنية لفترات حكم الخلفاء، كما تجلّى في انتقال السيطرة الفعلية على إدارة الدولة إلى القادة الأتراك بدلاً من الخلفاء أنفسهم، وهو ما يعدّ دليلاً واضحاً على ضعف نفوذهم وفقدان هيبتهم أمام قادة الجيش وزرائهم وكتّاب الدواوين^(١).

١ - راجع: محمد بن جرير الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٧، ص ٦٧٦، وما بعدها.. أحداث السنوات ٢٤٧-٢٥٤ للهجرة.

رابعاً: العلاقة بين العباسين والإمام الهادي (عليه السلام):

تطورت سياسة الحكام العباسين في مواجهة أهل البيت (عليهم السلام) بعد أن أدركوا مكانتهم الدينية والاجتماعية المتميزة، وأنهم لم يكونوا مستعدّين للمساومة على مبادئهم وقيمهם من أجل السلطة والملك. فاتّبع (السفّاح) و(المنصور) و(الرشيد) سياسة المراقبة المشدّدة والتضييق مع السماح بهامش محدود للحركة، إلى جانب خلق بدائل علمية لمنع انفراد أهل البيت (عليهم السلام) بالمرجعية العلمية والدينية في المجتمع، وذلك من خلال دعم أئمّة المذاهب الأخرى وتبني بعضها والدعوة إليها. لكنّ هذه الأساليب كلّها لم تنجح في تحويل الأنظار عن أهل البيت (عليهم السلام)، ما دفع بـ(المأمون) إلى اتّباع أسلوب جديد هو سياسة الاحتواء التي طبّقها مع الإمام الرضا (عليه السلام).

أمّا الإمام الهادي (عليه السلام) فقد بقي تحت الرقابة المشدّدة للخلفاء العباسين لأكثر من عشرين عاماً، وهي مدةً طويلة جدّاً مقارنة بفترة ولادة العهد للإمام الرضا (عليه السلام) أو فترة وجود الإمام الجواد (عليه السلام) في بغداد في عهد (المعتصم)، ما يشير إلى وضوح السياسة الحقيقية للعباسيين تجاه أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) ومدى تخوّفهم من نفوذهم وتأثيرهم.

خامسًا: اضطهاد أتباع أهل البيت (عليهم السلام):

باستثناء الفترة القصيرة التي لم تتجاوز ستة أشهر خلال حكم (المتصris) التي اتسمت سياساته فيها باللين تجاه العلوين وشيعة أهل البيت (عليهم السلام)، نجد أنَّ السياسة العامة للدولة العباسية كانت معادية لأهل البيت (عليهم السلام) وأتباعهم، ومارست ضدهم سياسة قمعية عنيفة، على الرغم من الانتشار الواسع للتshiُّع بعد أن ظهر (المأمون) بإظهار الاحترام للإمام الرضا (عليه السلام).

ويعود حرمان أهل البيت (عليهم السلام) وشيعتهم من المستوى المعيشي اللائق إلى تخوّف السلطة العباسية من استخدام الأموال في الإطاحة بحكمهم. لذا، اتّخذت سياسة التقير والإفقار تجاههم منهجاً عاماً سار عليه معظم حكام بني العباس الذين كانوا يدركون جيداً المكانة الاجتماعية الرفيعة لأهل البيت (عليهم السلام) في قلوب المؤمنين.

وقد امتدَّ هذا الحرمان إلى فصلهم من الوظائف الحكومية إذا ما اكتُشف أنَّ مواليًّا لأهل البيت (عليهم السلام) يشغل أحد المناصب، بل وتجاوز ذلك إلى مصادرة أملاكهم وتقييد عدد خدمتهم، حتى أصبح الفقر والحرمان سمةً ظاهرة عند كثير من العلوين في تلك الحقبة.

سادساً: انتفاضات العلوّين:

بلغ اضطهاد (المتوكل) للعلويّين ومنعهم حقوقهم الشرعية درجةً عالية من القسوة، أوشكوا معها على الهلاك نتيجة العوز وشدة الفقر. بل تمادى في ظلمه إلى درجة تقديم دعوى غير العلوي على دعوى العلوي إذا تحاكما إلى القضاء. ولم نرَ من العباسين بشكل عام إلا العداء والكره لأهل البيت عليهم السلام، لأسباب متعددة، أبرزها: اختصاص أهل البيت عليهم السلام بالنصّ عليهم من قبل جدهم الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه، وتميزهم بالزعامه الروحية والعلمية، وتأثيرهم الكبير في قلوب المسلمين ومشاعرهم، واهتمامهم بشؤونهم، وإثارهم الدين على الدنيا، والاستعداد للموت في سبيل الله على حياة الذل والهوان في معصيته.

لقد اتجهت مشاعر المسلمين وقلوبهم نحو أبناء الرسول عليهم السلام وشيعتهم المقتدين بهم، وأخذ هذا الاتجاه في النمو والبروز على الساحة الإسلامية، وهو ما أفلق حكام بنى العباس وعملاهم الذين تنعموا بثروات بيت مال المسلمين في مادب باذخة. ومن هنا، لم تخل الساحة الإسلامية من الثورات التي قادها زعماء علوّيون بشكل متواصل بعد ثورة الحسين عليهم السلام.

واستمرت هذه الثورات حتى عصر العَيَّة، وتوجهت لاحقاً بتأسيس دوبيلات وإمارات حكمها زعماء علوّيون أو علماء يحملون فكر أهل

البيت للهلاك وساروا على نهجهم، ساعين لتجسيد قيمهم وسيرتهم في الواقع الإسلامي.

ولم تكن اغتيالات الخلفاء لأئمة أهل البيت للهلاك إلا بسبب دعمهم وتأييدهم -من قريب أو بعيد- لهذه الثورات المسلحة ضدّ الظلم. وقد ثار على حكام تلك الفترة مجموعة من العلوّيين، مثلوا امتداداً طبيعياً للخط الشوري المناهض للظلم والظالمين.

المبحث الرابع: الجانب التنظيمي (نظام الوكالة)

استلزم مفهوم الإمامة، الذي يقوم على قيادة الأمة نحو الخير والصلاح في الدنيا والآخرة، أن يضطلع الإمام للهلاك بتنظيم شؤون المجتمع لحماية المؤمنين وإمامتهم من مكائد السلطة التي كانت تتربّص بهم. فاعتمد أسلوب نظام الوكالة للتواصل مع أتباعه وشيعته المنتشرين في أرجاء العالم. فكيف كان هذا النظام؟

تمثّل مهام الوكالء في تنظيم عملية الاتصال بين الإمام للهلاك وشيعته، خاصة في الجوانب الآتية: استلام أموال الخمس من الشيعة وإيصالها إلى الإمام للهلاك، والردد على الاستفسارات الفقهية والعقدية، والتعريف بالإمام وتهيئة الأرضية المناسبة له.

وكان من بين وكلائه (علي بن جعفر). وقام الإمام عليه السلام بتنظيم العلاقات بين الوكلاء أنفسهم، بحيث يلتزم كلّ وكيل ضمن نطاق عمله المحدد دون التدخل في شؤون الآخرين. وقد وجّه كتاباً إلى (أبيوبن نوح) - أحد وكلائه - يأمره فيه بعدم الإكثار من التواصل المباشر مع الوكيل الآخر (أبي علي)، وأن يلتزم كلّ منهما بالمهام الموكلة إليه في منطقته. كما أوصى (أبا علي) بمثل ما أوصى به (أبيوباً)، وطلب منها أن يتولّي كلّ منهما الشؤون المالية للشيعة في ناحيته دون قبول أموال من شيعة المناطق الأخرى.

كما نظم الإمام عليه السلام العلاقة بين الوكيل وشيعته في ناحيته؛ حيث جعل طاعة الوكيل بمثابة طاعة له شخصياً، فقال في كتاب له عن (أبي علي بن راشد): «فقد أوجبت في طاعته طاعتي، والخروج إلى عصيانه الخروج إلى عصياني، فالزموا الطريق يأجركم الله ويزدكم من فضله»^(١). وأكّد على ضرورة تسهيل مَهْمَةِ الوكيل وتمهيد الطريق أمامه، قائلاً: «فعليك بالطاعة له والتسليم إليه جميع الحقّ قبلك، وأن تحضّ موالي على ذلك، وتعرّفهم من ذلك ما يصير سبباً إلى عونه وكفایته، فذلك توفير علينا ومحبوب لدينا، ولنك به جزاء من الله وأجر»^(٢).

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٢٣.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٢٣.

الفصل الثالث عشر:

الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام

يفتح هذا الفصل قراءةً مركبةً عن الإمام العسكري عليه السلام بصفته قائداً معمونياً في عصرٍ أمنيٍّ خانق: سجن، ومراقبة، وإيكال مسؤولياتٍ كبيرةٍ في ظلٍّ دولة لا تقبل التنافس الفكري. هنا، لا ندرس «سيرةً» بالمعنى التقليدي فقط، بل نضع الوجود الإمامي العسكري عليه السلام في سياق عمليتين متلازمتين: الأولى، تقنين الإمامية في زمن الاستضعفاف عبر أدوات اجتماعية-شرعية (النواب، والوكلاء، والشبكات). والثانية، المقاربة العقدية للتأسيس للغيبة التي بعدها؛ أي العمل على ثبيت مفهوم الانتظار والوصيّة في وعي الجماعة. من هذا المنظار تكون رسالة الإمام العسكري عليه السلام أعمق من دوره الزمني؛ هي تأسيس لوجودٍ غير ظاهري لكنه مستمر، وبناء قدرة عقدية تؤمن صمود الأمة. سنعالج في المباحث كيف تلاقي التأصيل النظري مع إدراك الملالات العملية، وكيف تحوّلت أشكال الحضور (الرسائل، والتوقعات، والوكلاء) إلى استراتيجية بقاء معرفية-تاريخية.

المبحث الأول: حياة مضيئة ومشرقية

أولاً: نظرة تاريخية:
ولد الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام في المدينة المنورة في

اليوم الثامن من شهر ربيع الآخر عام ٢٣٢ هجري. والده هو الإمام علي الهادي عليهما السلام، وكان يُطلق عليه وعلى أبيه وجده عليهما السلام لقب (ابن الرضا). أما والدته فكانت تسمى (حديث) أو (سليل)، وقد عُرفت بصلاحها وتقوتها بالغين، وكانت في مكانتها بين قومها بمقام الملكات. ويكتفي دلالة على فضلها أنَّها أصبحت ملادًا ومرجعًا للشيعة بعد استشهاد الإمام العسكري عليهما السلام^(١).

ومن الألقاب التي اشتهر بها: (التقى)، و(المرضى)، و(النبي)، و(الرفيق)، و(الزكي)، و(الصامت)، و(الهادي)، و(السراج)، و(العسكري)، و(الخالص). وكنيته هي (أبو محمد)^(٢).

وكان للإمام الحسن العسكري (عليه السلام) ولدٌ وحيد هو الإمام محمد المهدي المتظر عليهما السلام^(٣).

تولَّ منصب الإمامة بعد استشهاد والده الإمام الهادي عليهما السلام عام ٢٥٤

١ - عباس القمي: متنبي الآمال، ج ٢، ص ٦٤٩.

٢ - يروي محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق) أنه سمع مشايخه يقولون: «إنَّ المنطقة التي سكنها الإمامان علي بن محمد الهادي والحسن بن علي العسكري (عليهما السلام) في سامراء، كانت تُعرف باسم العسكر، ولهذا السبب أُطلق على كلٍّ منهم لقب (العسكري). (راجع: الصدوق: علل الشرائع، ج ١، ص ٢٣٠). ٢٣٠».

٣ - الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ج ٢، ص ٣٣٦.

الفصل الثالث عشر - المبحث الأول ٣٠٣

هجري، واستمرَّ إمامته ست سنوات حتى عام ٢٦٠ هجري. وقبل استشهاده، أوصى بالخلافة والإمامية لابنه الإمام المهدي عليه السلام. استُشهد عليه السلام يوم الجمعة في الثامن من ربيع الأول عام ٢٦٠ هجري عن عمر يناهز ٢٨ عاماً، ودُفن إلى جانب أبيه الإمام الهادي عليه السلام في سامرَاء.

ثانياً: سموّ أخلاقه وعبادته:

برز من حياة الإمام العسكري عليه السلام، رغم الرقابة المشددة والصارمة من قبل سلطات عصره، حرصه على خدمة الناس والاهتمام بهم. يروي (محمد بن القاسم أبو العيناء الهاشمي)، وهو مولى لـ (عبد الصمد بن علي)، قائلاً: «كنت أدخل على أبي محمد عليه السلام فأعطيش وأنا عنده، فأستحيي أن أطلب الماء، فيقول عليه السلام: يا غلام اسقه. وربما خطر بيالي القيام، فأنفَّكَ في ذلك، فيقول عليه السلام: يا غلام دابتَه»^(١).

كان الإمام عليه السلام كثير العبادة لله تعالى، يقيم الليل ويصوم النهار. وقد كان موضوعاً تحت مراقبة شديدة، لكنَّ شخصيَّته أثَّرت بعمق في كثيرين. يُروى أنَّ جماعة من العَبَّاسين زاروا (صالح بن وصيف)

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٥١٢.

عندما سجن أبا محمدَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قائلين له: «شَدَّدَ عَلَيْهِ وَلَا تَسْهَلْ». فرَدَ عَلَيْهِمْ (صَالِحٌ): «مَاذَا أَفْعَلْتُ بِهِ؟ لَقَدْ وَكَلْتُ بِهِ رَجُلَيْنَ مِنْ أَقْسَى مِنْ عَرَفْتُ، وَقَدْ أَصْبَحَا مِنْ شَدَّدَ الْعِبَادَةِ وَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ فِي حَالَةِ مَذْهَلَةٍ». ثُمَّ أَمْرَ بِإِحْضارِ الْحَارَسَيْنِ، فَقَالَ لَهُمَا: «وَيَحْكُمَا! مَا شَأْنَكُمَا مَعَ هَذَا الرَّجُلِ؟» فَأَجَابَا: «مَاذَا نَقُولُ فِي رَجُلٍ يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيلَ كُلَّهُ، لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَنْشُغَلُ بِشَيْءٍ سُوَى الْعِبَادَةِ؟ إِذَا نَظَرَ إِلَيْنَا ارْتَعَدَتْ فِرَائِصُنَا وَخَالَطَنَا شَعْرُنَا لَا نَقُويُ عَلَى التَّحْكُمِ فِيهِ». فَلَمَّا سَمِعَ الْعَبَاسَيْنُ ذَلِكَ، انْصَرُفُوا خَائِبِيْنَ^(١).

وكان الخليفة (المعتمد) يستفسر بشكل دائم عن أحوال الإمام عليه السلام عبر (علي بن جرين)، ويطلب أخباره، فكان الجواب الذي يصله دائماً: «إِنَّهُ يَصُومُ النَّهَارَ وَيَصْلِيُ اللَّيلَ»^(٢).

كان عليه السلام كثير الوعظ والتذكير بالله سبحانه، ومن حِكْمَه قوله: «أَوْرَعَ النَّاسَ مِنْ وَقْفِهِ عَنِ الشَّبَهَةِ؛ أَعْبَدَ النَّاسَ مِنْ أَقْامِهِ عَلَى الْفَرَائِضِ؛ أَزْهَدَ النَّاسَ مِنْ تَرْكِ الْحَرَامِ؛ أَشَدَّ النَّاسَ اجْتِهَادًا مِنْ تَرْكِ الذَّنَوبِ»^(٣).

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٥١٢.

٢ - علي بن موسى ابن طاووس: مهج الدعوات، ص ٢٧٥.

٣ - ابن شعبة الحرااني: تحف العقول، ص ٤٨٩.

ثالثاً: منزلة الإمام ومكانته العلمية:

رغم كل الضغوط والمضائقات السياسية والأمنية التي أحاطت بالإمام العسكري عليه السلام، فإنه استطاع أن يتحرّك في الساحة العلمية بين المسلمين عموماً والشيعة خصوصاً؛ حيث عمل الإمام عليه السلام في تلك الفترة على إعداد وتأهيل عدد كبير من العلماء؛ ليكونوا مرجعاً للناس -كما سيأتي لاحقاً- ومن ناحية أخرى، كان يردّ على جميع الشبهات الفكرية التي تواجه الإسلام والتي قد تؤثّر على معتقدات المسلمين، والتي لم يتمكّن أحد من حلّها إلا الإمام العسكري عليه السلام. فكان عليه السلام يجيب عن تلك الإشكالات بحكمة بالغة ويقدّم الحلول وفقاً لمنهج مدرسة أهل البيت عليه السلام، كما حدث مع (إسحاق الكندي)، فيلسوف العراق في ذلك الزمان، عندما ألف كتاباً عن ما زعمه من تناقض في القرآن الكريم، وانعزل لأجله في بيته. وبفضل علم الإمام عليه السلام وبصيرته النافذة، جرى تنفيذ جميع أسس حديث (الكندي)؛ حيث أرسل الإمام عليه السلام أحد تلامذة (الكندي) إليه حاملاً رسالة تقول: «قل له: إذا جاءك هذا المتكلّم بهذا القرآن، هل من الممكن أن يكون قصد بكلامه معاني غير تلك التي ظنت أنتَ فهمتها؟ فإنه سيعجبك بالإيجاب، لأنَّه رجل يفهم إذا سمع. فإذا اعترض بذلك، فقل له: ما الذي يؤكّد لك أنه ربما قصد معنى آخر غير الذي فهمته أنتَ؟ وبذلك تكون قد نسبت إليه

معاني غير مقصودة“.

فرد (الكندي) على الرجل قائلاً: “أَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ، أَخْبَرْنِي مِنْ أَينْ جَاءَكَ هَذَا الْكَلَامُ؟”

فأجاب الرجل: “لَقَدْ أَمْرَنِي بِهِ أَبُو مُحَمَّدُ الْإِمَامُ الْعَسْكَرِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ”.
فقال (الكندي): “الآن جئت بالحقيقة، فما كان لمثل هذا الفكر العميق إلا أن يصدر من ذلك البيت الظاهر. فهم وحدهم القادرون على كشف الحقائق وإيضاحها”. ثُمَّ أَمْرَ بِإِحْضارِ النَّارِ وَأَحْرَقَ جُمِيعَ مَا كَتَبَهُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ^(١).

المبحث الثاني: الأوضاع والتحولات السياسية في زمان الإمام العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ

تولَّ الإمام الحسن العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ مَهَامَ الإمامة خلفاً لوالده الإمام الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ. وخلال فترة إمامته القصيرة التي لم تتجاوز ست سنوات، عاصر حكم ثلاثة خلفاء عَبَّاسيين هم: (المعتز) و(المهتمي) و(المعتمد). واستمرَّت المعاناة من بطش الدولة العباسية؛ حيث شهد

١ - ابن شهر آشوب: المناقب، ج٤، ص٤٢٤.

عهد (المعتز) إعدام عدد من الأبرياء وسجن أكثر من سبعين شخصاً من آل جعفر وآل عقيل من العلوين.

وبعد (المعتز)، تسلّم (المهتمي) خلافة، فسجن الإمام للبيهـ بل اتّخذ قراراً بقتله، لكن الموت عاجله قبل أن ينفّذ مخططه.

ويروي (علي بن جعفر عن الحليـ): ”اجتمعنا في سامرـاء وانتظرنا خروج أبي محمد للبيهـ في يوم من أيام خروجه، فصدر توقيعه: “ألا لا يسلّمـ علىـ أحد، ولا يُشـرـ إلىـ بيـدـهـ، ولا يوـمـيـ، فإنـكـمـ لا تؤـمـنـونـ علىـ أنسـكـمـ”^(١).

ويكتب (أحمد بن محمد): ”كتبت إلى أبي محمد (الإمام العسكري) عندما شرع (المهتمي) في قتل الموالي: يا سيدـيـ، الحمدـ لـلـهـ الـذـيـ شـغـلـهـ عـنـاـ، فـقـدـ بـلـغـنـيـ أـنـ يـتـهـدـدـكـ وـيـقـولـ: وـالـلـهـ لـأـجـلـيـهـمـ عـنـ وـجـهـ الـأـرـضـ. فـكـتـبـ أـبـوـ مـحـمـدـ للـبـيـهـ بـخـطـهـ: ذـلـكـ أـقـصـرـ لـعـمـرـهـ، عـدـ مـنـ يـوـمـكـ هـذـاـ خـمـسـةـ أـيـامـ وـيـعـتـلـ فـيـ الـيـوـمـ السـادـسـ بـعـدـ هـوـانـ وـاسـتـخـافـ يـمـرـ بـهـ”， فـكـانـ كـمـاـ قـالـ للـبـيـهـ“^(٢)”.

وقد بلغت حدة الضغوط والمضائقات في عهد الإمام العسكري للبيهـ

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٦٩.

٢ - الشيخ محمد بن محمد المفید: الإرشاد، ص ٣٢٤.

درجة اضطرر معها إلى اعتماد أساليب سرية وأمنية في تعامله. ويعود سبب هذه المضايقات إلى عاملين رئисين:

١. تحول الشيعة في عصر الإمام العسكري (عليه السلام) إلى قوة كبيرة مؤثرة في العراق، معارضه للخلفاء والحكام؛ حيث كانوا لا يعترفون بشرعية أي من الخلفاء العباسيين ويعتقدون أن الإمامة محصورة في ذرية الإمام علي (عليه السلام). ومن الأدلة التاريخية على ذلك اعتراف (عبيد الله) وزير (المعتمد) بهذه الحقيقة، عندما جاءه جعفر الكذاب (أخو الإمام العسكري) بعد استشهاده طالباً أن يعطيه مكانة أخيه مقابل أن يدفع له عشرين ألف دينار سنوياً، فزجره الوزير قائلاً: "يا أحمق، إن السلطان قد استخدم السيف مع من ادعى إماماً أبيك وأخيك ليردّهم عن ذلك فلم يستطع، فإذا كنت إماماً عند شيعة أبيك وأخيك فلا حاجة بك إلى مرتب" (١).

٢. علم العباسيين وغيرهم -وفقاً للروايات المتواترة- أنَّ المهدي المنتظر الذي سينشر العدل والحرية في العالم ويسقط

١ - علي بن عيسى الإريلي: كشف الغمة، ج ٣، ص ١٩٧.

الحكومات الظالمة هو من أولاد الحسن العسكري عليه السلام. لذلك فرضوا رقابة صارمة على الإمام العسكري عليه السلام ووضعوه تحت المراقبة الدقيقة في كل تحركاته وتفاصيل حياته^(١). وبعد خلافة (المهتدي)، تسلّم (المعتمد) زمام السلطة، وفي عهده استشهد الإمام العسكري عليه السلام، وقتل مجموعة من العلوين في هذه الأحداث. وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أنَّ بعضهم قُتل بأبشع الطرق ومُثُلَّ بجثثهم بعد القتل^(٢).

المبحث الثالث: الإمام العسكري عليه السلام والإعداد لظهور الإمام المهدي عليه السلام

تميَّزت فترة إمامته عليه السلام بمَهْمَّة فريدة، وهي التهيئة لمرحلة ميلاد الإمام المهدي عليه السلام وما يتبعها من غَيَّة صغرى ثمَّ كبرى، وبناء صلة سليمة بين الأُمَّة وإمامها، وضرورة نقل المجتمع الشيعي من مرحلة الاتصال المباشر بالإمام المعصوم إلى مرحلة الاتصال غير المباشر.

١ - ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٤، ص ٤٣٤.

٢ - أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص. ٦٨٥-٦٩٠.

وَتُعْدَّ هَذِهِ الْمَرْجَلَةُ مِنْ أَدْقَ المَرَاحِلِ الَّتِي مَرَّ بِهَا الْفَكْرُ الشِّيعِيُّ مِنْذُ عَهْدِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَتَّى زَمْنِ الْإِمَامِ الْعُسْكَرِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ. لِذَلِكَ اضطَلَعَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَهْمَمَةِ مَكْثَفَةِ نُشُرِ الأَحَادِيثِ التَّوْجِيهِيَّةِ وَالْقِيَامِ بِإِجْرَاءَاتِ عَمَلِيَّةٍ لِلتَّمَهِيدِ لِمَرْجَلَةِ الْغَيْيَةِ، وَقَدْ عَمِلَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ مَحْوَرَيْنَ:

أوَّلًا: التَّمَهِيدُ الْفَكْرِيُّ وَالنَّظَريُّ:

وَيُمْكِنُ إِيْجَازُ دُورِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذَا الْمَجَالِ فِي النِّقَاطِ الْأَتَيَةِ:

١. الإعلان عن الإمام اللاحق والتعریف به بين أتباعه:

يروي (محمد بن عبد الجبار) قال: «قلت لسيدي الحسن بن علي علیه السلام: يا ابن رسول الله، أقديك بروحني، أود أن أعرف من هو الإمام وحججه الله على خلقه من بعدك. فأجاب علیه السلام: إنَّ الإمام من بعدي هو ابني، الذي تسمى باسم رسول الله علیه السلام وتكنى بكتنيه، وهو خاتم حجاج الله وأخر خلفائه». فسألته: من أي أم هو يا ابن رسول الله؟ فقال علیه السلام: «من ابنة قيسير ملك الروم، ألا وإنَّه سيولد ثم يغيب عن أعين الناس غيبة طويلة، ثم يظهر بعد ذلك»^(١).

١ - الفضل بن الحسن الطبرسي: النجم الثاقب في أحوال الإمام الحجة الغائب، ج ١، ص ١٣٦.

ويروي (يعقوب بن منقوش) قال: ”دخلت على أبي محمد الحسن بن علي عليه السلام وهو جالس على أريكة في الدار، وعن يمينه غرفة عليها ستار مسدول. فقلت: سيدِي، من صاحب هذا الأمر (من الإمام القادم)? فقال: ارفع الستر. فرفعته فخرج إلينا فتى في نحو الخامسة من عمره، يبدو أنه في العاشرة أو الثامنة أو ما حول ذلك، واصح الجبين، أبيض البشرة، واسع العينين، غليظ الكفين، مقوس الركبتين، وفي خده الأيمن شامة، وعلى رأسه خصلة شعر. فجلس على حجر أبي محمد عليه السلام، ثم قال لي الإمام: هذا هو صاحبكم من بعدي. ثم نهض الفتى فقال له الإمام: يا بني، ادخل الآن إلى وقتك المعلوم. فدخل الغرفة وأنا أنظر إليه. ثم قال لي الإمام عليه السلام: يا يعقوب، تأكّد بنفسك من داخـلـ الغرفة. فدخلت فلم أجـدـ أحدـاـ بـداـخلـهاـ“^(١).

٢. التشديد على فضل الصبر وانتظار الفرج:

يُعدّ انتظار فرج الإمام عليه السلام من العبادات الرفيعة، بل هو من أسمى الأعمال كما ورد في الروايات الشريفة. وإنَّ أولَ ما يجب على المؤمن التحليّ به هو الصبر على طول فترة الغيبة. ومن أبرز ما يؤكّد هذا

١ - الفضل بن الحسن الطبرسي: إعلام الورى، ص ٤١٣.

المعنى تلك الرسالة التي وجهها الإمام علي بن الحسين بن بابويه القمي)، والتي حثّ فيها قاتلاً: «عليك بالصبر وانتظار الفرج»^(١). وهذا الأمر نفسه كان رسول الله ﷺ يؤكّد في أحاديثه، منها ما روى عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من الله عز وجل»^(٢).

٣. التنبية من خطر الشك والتراجع:

حيث روي عن الإمام علي عليه السلام قوله: «إنَّ لصاحب هذا الأمر غيبة، المتمسّك فيها بدينه كالخارط لشوك القتاد بيده»^(٣)، في إشارة إلى شدة الصعوبات التي يواجهها المؤمنون في زمن الغيبة ومقدار الثبات الذي يتطلبه الأمر.

ثانيًا: التمهيد العملي لمرحلة الغيبة:

ويقصد به أن الإمام علي عليه السلام قام بتعيين وكلاء وسفراء من خواص أصحابه الموثوقين، لتقوم بدور نقل توجيهاته وأحكامه إلى مريديه وشيعته، وكان ذلك يجري بطريقة التوقيعات والمراسلات المكتوبة.

١ - ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٣، ص ٥٢٧ .

٢ - الصدق: كمال الدين وتمام النعمة، ص ٦٤٤ .

٣ - محمد بن ابراهيم النعماني: الغيبة، ص ١٢٢ .

وقد شَكَّلَ هذا الإجراء تمهيداً عملياً مباشراً لِمَا سيجري خلال مرحلة الغيبة الصغرى، حيث أصبح التواصل مع الإمام عليه السلام يجري عن طريق نوابه المعينين.

المبحث الرابع: النشاط والحضور العلمي والثقافي للإمام العسكري عليه السلام

تميَّزت الفترة الزمنية التي عاشها الإمام العسكري عليه السلام، وكذلك عصر الإمامين الهادي والرضا عليهم السلام قبله، بتوسُّع رقعة الانتشار الشيعي ووضوح معالم المدرسة الشيعية الفكرية. وقام الإمام العسكري عليه السلام بمارسة نشاطات مكثفة في المجالات السياسية والاجتماعية والعلمية بهدف الدفاع عن الإسلام ومواجهة التيارات الفكرية المنحرفة. ويمكن تصنيف جهود الإمام عليه السلام في المحاور الآتية:

أولاً: إقامة جسور التواصل مع أتباعه:

نتيجة للتوسُّع الجغرافي للوجود الشيعي في عهد الإمام العسكري عليه السلام، وانتشارهم في عدَّة دول، أصبح من الضروري إيجاد قنوات اتصال منظمة. هذه القنوات كانت تهدف إلى تأمين التواصل بين

الشيعة وإمامهم من ناحية، وإلى تعزيز الروابط بين الشيعة أنفسهم من ناحية أخرى. ومن خلال هذا النظام كان يجري توجيههم دينياً وسياسياً وتحفيزياً. فقام الإمام علي بن أبي طالب بتعيين أشخاص موثوقين في مناطق مختلفة ليكونوا وسطاء بينه وبين شيعته وبين الشيعة أنفسهم. ومن الأمثلة على ذلك تكليفه لـ (إبراهيم بن عبد الله)، حيث أرسل رسالة إلى (عبد الله بن حمدویہ البیهقی) جاء فيها: "لقد عینت لكم إبراهيم بن عبد الله ليتسلّم الحقوق الواجبة عليكم لي من أهل نواحیکم ومنطقتك، وجعلته موثوقي وأمیني لدى موالي‌نی هناك. فليتّقّوا الله ولیكونوا على حذر، ولیؤدّوا الحقوق، فلا عذر لهم في ترك ذلك أو تأخیره"^(١).

ثانيًا: توجيه الأمة وتوحدها وراء العلماء والفقهاء:

شجّع الإمام علي على الرجوع إلى الفقهاء العدول في الحالات التي يتعدّر فيها الوصول إلى الإمام المعصوم. وقد أجاز الإمام العسكري علي بن أبي طالب عدداً من المؤلفات الفقهية والأصولية التي ألفت في عصره أو قبله. وقد بلغ عدد أصحاب الإمام علي ورواية حدیثه ٢١٣ شخصاً، ومن أبرزهم:

١ - محمد بن الحسن الطوسي: اختيار معرفة الرجال، ص ٥٨٠.

الفصل الثالث عشر - المبحث الخامس ° ٣١٥

- ١ . (أحمد بن إسحاق الأشعري القمي): من المقربين للإمام الله عليه السلام، وكان يعتبر كبير علماء قم وكان ينقل مسائل وأسئلة أهل قم إليه السلام.
- ٢ . (أبو هاشم داود بن القاسم الجعفري): من أحفاد (جعفر الطيار)، وكان من أبرز شخصيات أسرته وأعيان بغداد، وكان يتمتع بمكانة سامية ومقام رفيع لدى الأئمة الله عليهم السلام.
- ٣ . (عبد الله بن جعفر الحميري): من أمع شخصيات قم المقدسة، وله مؤلف بعنوان (قرب الإسناد).
- ٤ . (أبو عمرو عثمان بن سعيد العمري): الذي أصبح النائب الأول للإمام المهدي القائم عليه السلام. وكان من كبار وكلاء الإمام الهاادي الله عليه السلام والإمام العسكري الله عليه السلام.^(١)

المبحث الخامس: استشهاد الإمام العسكري الله عليه السلام

يروي (أبو الأديان): ”كنت في خدمة الإمام الحسن بن علي الله عليه السلام وأنقل رسائله إلى مختلف البلدان. دخلت عليه أثناء مرضه

١ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ٣٩٧.

الذِي تَوَفَّى فِيهِ ﷺ، فَكَتَبَ مَعِي عَدَّةَ رَسائلٍ وَقَالَ: اذْهَبْ بِهَذِهِ إِلَى الْمَدَائِنِ، فَسِتَغِيبُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، وَسِتَدْخُلُ سَامِرَاءَ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ عَشَرَ، وَسِتَسْمِعُ النَّوَاحِ فِي دَارِيِّ، وَسِتَجِدُنِي عَلَى الْمُغْتَسِلِ». فَقَلَّتْ: يَا سَيِّدِي، إِذَا حَصَلَ ذَلِكَ فَمَنْ يَكُونُ الْخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِكَ؟ فَأَجَابَ: «مَنْ يَطَّالِبُكَ بِرَدَدِ رَسائِلِي هُوَ الْقَائمُ مِنْ بَعْدِي». فَقَلَّتْ: زَدْنِي مِنَ الْعِلْمِ، فَقَالَ: «مَنْ يَصْلِي عَلَيَّ هُوَ الْقَائمُ بَعْدِي». فَقَلَّتْ مَرَّةً أُخْرَى: زَدْنِي، فَقَالَ: «مَنْ يَخْبِرُكَ بِمَا فِي الْكَيْسِ (الْهَمِيَّانِ) فَهُوَ الْقَائمُ مِنْ بَعْدِي». ثُمَّ مَنَعَنِي الْهَمِيَّةُ وَالْإِجْلَالُ مِنْ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ مَحْتَوِيَاتِ الْكَيْسِ.

انْطَلَقَتْ بِالرَّسائلِ إِلَى الْمَدَائِنِ، وَاسْتَلْمَتِ الرَّدُودِ، وَدَخَلَتْ سَامِرَاءَ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ عَشَرَ كَمَا أَخْبَرَنِي ﷺ، فَإِذَا بِي أَسْمَعَ أَصْوَاتَ النَّوَاحِ فِي دَارِهِ، وَإِذَا بِهِ قَدْ وُضِعَ عَلَى الْمُغْتَسِلِ، وَإِذَا بِ(جَعْفَرِ بْنِ عَلِيٍّ) أَخِيهِ وَاقِفًا عَنْدَ بَابِ الدَّارِ وَمَحاطًا بِشَعْيَتِهِ يَعْزُونَهُ وَيَهْشُؤُنَهُ بِالْخَلَافَةِ. فَقَلَّتْ فِي نَفْسِي: إِذَا كَانَ هَذَا إِمَامًا، فَقَدْ انتَهَتِ الْإِمَامَةُ... تَقدَّمَ (جَعْفَر) لِيَصْلِي عَلَى أَخِيهِ، وَلَكِنْ حِينَ هُمَا بِالتَّكْبِيرِ، خَرَجَ غَلامٌ أَسْمَرَ الْوَجْهِ، مَفْلِجُ الْأَسْنَانِ، فَجَذَبَ رَدَاءَ (جَعْفَرِ بْنِ عَلِيٍّ) وَقَالَ: «تَأْخَرَ يَا عَمَّ، فَأَنَا أَحَقُّ بِالصَّلَاةِ عَلَى أَبِي». فَتَأْخَرَ (جَعْفَر) وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَاصْفَرَ وَجْهُهُ. فَتَقدَّمَ الْغَلامُ وَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ دُفِنَ إِلَى جَوَارِ قَبْرِ

الفصل الثالث عشر - المبحث الخامس ٣١٧°

أبيه. بعد ذلك قال لي الغلام: يا بصري، هات ردود الرسائل التي معك. فسلّمتها إليه. فقلت في نفسي: هذه علامتان من العلامات الثلاث... وهكذا^(١).

١ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، ج ٢، ص ٤٧٥.

الفصل الرابع عشر:

الإمام المهدى عليه السلام **(العقيدة المهدوية: المعتقد والغيبة)**

ينسجم هذا الفصل مع بؤرة مركزيّة في الوعي الإمامي: مفهوم الغيبة والظهور، وما يتفرّع عنه من أبعاد عقدية، واجتماعية، وسياسيّة. الإيمان بـ(المهدي) ليس مجرد ميثولوجيا استشرافية، وإنما إطارٌ أنطولوجي-عملي يعيد تشكيل علاقة الأمة بتاريخها ومستقبلها؛ فغيبة الإمام عليه السلام تقيم اختباراً لوفاء الجماعة وتنشئ واجبات جديدة على مستوى الفرد والمجتمع، بينما خطاب العلامات والرأيـات يربط بين الوعي النصي والواقع التاريخي. سنقرأ هنا الغيبة بوصفها آلية تشكيلية: تميّز للصادقين، وتحتبر جهود التنظيمية، وتدعو للعمل الإيجابي في إطار الانتصار. كما ستناقش الحكمة من إبقاء زمن الظهور مجهولاً، شروط الانتصار، وحكم رفع الرأيـات قبل الظهور، محاولةً بلوحة رؤية تجمع بين الصبر العملي والعمل الإصلاحي المنهجي، مع الالتزام الصارم بمنهج النص والمرجعية.

المبحث الأول: محطّاتٌ من سيرته العطرة

ولد الإمام المهدي عليه السلام في مدينة سامراء، في يوم الجمعة الموافق للنصف من شهر شعبان عام ٢٥٥ هجري. أبوه هو الإمام الحسن العسكري عليه السلام، وأمه أم ولد تُدعى (نرجس) أو (سوسن) حسب بعض الروايات. وعمره الشريف عند وفاة والده عليه السلام كان خمس سنوات. وقد سبق أن بشر

به جدّه رسول الله ﷺ، كما ورد في رواية (أبي سعيد الخدري) حيث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهدي مني، واضح الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً...»^(١).

ومن الأسماء والصفات التي عُرف بها: (بقيّة الله)، و(الحجّة)، و(الخلف الصالح)، و(القائم)، و(المهدي)، و(المنتظر). وكنيته هي كنية الرسول ﷺ: (أبو القاسم).

وقد عيّنه الإمام الحسن العسكري عليه السلام خليفة وإماماً من بعده، فتقلّد مسؤولية الإمامة وهو في سن الخامسة، ولا يزال يحمل هذه الرسالة إلى أن يأذن الله له بالظهور، ليتحقق على يديه ما وعد الله به عباده المؤمنين من نصر وتمكين وإقامة دولة الحق في الأرض.

ولم يختلف الإمام المهدي عليه السلام عن أسلافه المعصومين في شدة العبادة والاجتهاد في التقرب إلى الله تعالى. وقد نقلت عنه مجموعة من الأدعية، ومن أشهر ما أثر عنه تسبيح يقول فيه: «سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله زنة عرشه، والحمد لله مثل ذلك»^(٢).

١ - علي بن الحسين ابن طاووس: الطرائف، ص ١٧٧.

٢ - سعيد بن هبة الله الرواundi: الدعوات، ص ٩٤.

المبحث الثاني: الاعتقاد بالمهدي عليه السلام تعبير عن حاجة فطرية

إنَّ شيوخ فكرة الإيمان بحتميَّة ظهور مُخلص عالمي في التراث الفكري للإنسانية عموماً يكشف عن وجود جذور راسخة وقوية لهذا المعتقد تنبع من الفطرة الإنسانية السليمة. فالإمام المهدي عليه السلام ليس مجسداً لعقيدة دينية إسلامية وحسب، بل هو رمز لطموح مشترك اتجهت إليه البشرية باختلاف دياناتها وثقافاتها، وهو أيضاً تجسيد وتعبير عن إلهام فطري عميق أدرك الناس من خلاله -على تعدد معتقداتهم وطرق اتصالهم بالغيب- أنَّ للبشرية يوماً موعوداً على هذه الأرض تتحقق فيه الغاية الكبرى من رسالات السماء، وتببدأ فيه المسيرة المتبعة للإنسان عبر التاريخ مرحلة جديدة من الاستقرار والطمأنينة بعد معاناة طويلة^(١).

المبحث الثالث: الإيمان بحتميَّة المنقذ في الأديان السماوية

يُعدُّ الإيمان بحتميَّة ظهور مصلح ديني عالمي يقيم دولة إلهيَّة عادلة تشمل جميع أرجاء المعمورة، من نقاط الاتفاق الأساس بين مختلف الأديان

١ - محمد باقر الصدر: بحث حول المهدي عليه السلام، ص. ٧-٨.

السماوية. والخلاف بينها إنما في تحديد شخصية هذا المصلح العالمي الذي سيتولى تحقيق الأهداف الكبرى التي جاء من أجلها جميع الأنبياء عليهم السلام^(١).

المبحث الرابع: معتقد الإمامية في الإمام المهدي عليه السلام

تواترت الأحاديث والنصوص المنقولة عن رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأئمَّة أهل البيت عليهم السلام والتي تُبشر بظهور المهدي في آخر الزمان، لينقيم العدالة وينصر المظلومين في أرجاء المعمورة. وما يعزز يقين المسلمين بهذه العقيدة جملة الروايات التي أكدَّت على استمرار وجود حجة إلهية على الأرض لا تخلو منهم. فقد ورد عن النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عَلَيَّ إِمامٌ أَمْتَّيْ مِنْ بَعْدِي، وَمِنْ وُلْدِهِ الْقَائِمُ الْمُنْتَظَرُ إِذَا ظَهَرَ يَمْلأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقَسْطًا»^(٢).

المبحث الخامس: غيبة الإمام المهدي عليه السلام

تؤكّد النصوص الدينية، وكما يشهد الواقع، أنَّ للإمام الحجة عليه السلام غيبتين،

١ - محمد صادق الصدر: تاريخ الغيبة الكبرى، ص ٢٥١ وما بعدها.

٢ - شهاب الدين المرعشي النجفي: شرح إحقاق الحق، ج ٢٩، ص ٢٣٨.

الفصل الرابع عشر - المبحث السابع ٣٢٥

إحداهما تطول عن الأخرى. وسنخصص الحديث في هذا المقام عن الغيبة الصغرى بإذن الله، فقد روي عن (أبي بصير) أَنَّهُ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْجَفَارِ^{عَلَيْهِ السَّلَامُ}: كَانَ أَبُو جَعْفَرَ^{عَلَيْهِ السَّلَامُ} يَقُولُ: "لِقَائِمِ آلِ مُحَمَّدٍ غَيْتَانٌ: وَاحِدَةٌ طَوِيلَةٌ، وَالْأُخْرَى قَصِيرَةٌ، قَالَ لِي: نَعَمْ يَا أَبَا بَصِيرٍ إِحْدَاهُمَا أَطْوَلُ مِنَ الْأُخْرَى"^(١).

المبحث السادس: الإمامة والغيبة الصغرى

ابتدأت مرحلة الغيبة الصغرى بوفاة الإمام الحسن العسكري ^{عَلَيْهِ السَّلَامُ} سنة ٢٦٠ هـ وكان عمر الإمام المهدي ^{عَلَيْهِ السَّلَامُ} آنذاك حوالي خمس سنوات. واستمرّت هذه الفترة ما يقرب من سبعين عاماً، حتى سنة ٣٢٩ هـ، والتي انتهت بوفاة السفير الرابع وبداية مرحلة الغيبة الكبرى. وخلال فترة الغيبة الصغرى، لم يكن يعلم بمكان إقامته ^{عَلَيْهِ السَّلَامُ} إلا خواصّ شيعته والمقربين منه.

المبحث السابع: النّواب الأربع

اتصل أتباع مذهب أهل البيت بالإمام الحجة ^{عَلَيْهِ السَّلَامُ} خلال الغيبة

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٣٦٥.

الصغرى من خلال أشخاص عُرِفُوا بالسفراء أو النواب، وهم بالترتيب:

١. النائب الأول: (عثمان بن سعيد العمري الأسيدي)، المعروف

بـ (أبي عمرو)^(١).

٢. النائب الثاني: (محمد بن عثمان بن سعيد العمري)،

المعروف بـ (أبي جعفر)^(٢).

٣. النائب الثالث: (الحسين بن روح النوبختي)، المعروف بـ

(أبي القاسم)^(٣).

٤. النائب الرابع: (علي بن محمد السمرى)، المعروف بـ (أبي

الحسن)^(٤).

وفي نهاية عهد النيابة، صدر توقيع من الإمام المهدي عَلَيْهِ الْكَلَامُ يُعلن
انتهاء الغيبة الصغرى وبدء الغيبة الكبرى، جاء فيه: بسم الله الرحمن الرحيم:
الرحيم: "يا عليّ بن محمد السمرى أعظم الله أجر إخوانك فيك، فإنك
ميّت ما بينك وبين ستة أيام، فاجمع أمرك ولا توصد إلى أحد فيقوم
مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة التامة، فلا ظهور إلا بإذن الله

١ - والمدة هي في حدود خمس سنوات تقريباً.

٢ - والمدة هي حوالي أربعين سنة.

٣ - والمدة هي حوالي واحد وعشرون سنة تقريباً.

٤ - والمدة هي حوالي ثلاث سنوات تقريباً.

تعالى ذكره، وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلوب وامتلاء الأرض جوراً، وسيأتي لشيعتي من يدعى المشاهدة، ألا فمن ادعى المشاهدة قيل خروج السفياني^١ والصيحة فهو كذاب مفتر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم^(١).

وفي اليوم السادس، توفي^٢ (السمري) (رضوان الله عليه)، وكان آخر ما نطق به حين سُئل عن من يوصي إليه، فقال: "لله أمرٌ هو بالغه"^(٢).

المبحث الثامن: دواعي الغيبة وأسبابها

أولاً: الحفاظ على حياة الإمام عَلِيُّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ:

كانت السلطة العباسية تبحث بجدّ عن المولود الجديد للإمام العسكري^{الليث} بهدف القضاء عليه. لكن التخطيط المحكم للإمام العسكري^{الليث} حال دون اكتشافهم له. في خضم هذه الأجواء المضطربة والملاحقة المستمرة من قبل العباسيين، لم يكن متاحاً للإمام أن يظهر علينا بين الناس، إذ كانت مهمته الأساس هي الحفاظ على ذاته ليكون قادرًا حين

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥، ص ٣٦١.

٢ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، ص ٤٣٣.

يأتي الوقت الموعود على إقامة الدولة الإسلامية العالمية العادلة. وقد أشارت إلى هذا السبب رواية عن رسول الله ﷺ حين سُئل: "لا بد للغلام من غيبة"، فقيل: "ولمَّا يا رسول الله؟" فأجاب: "يخاف القتل"^(١).

ثانيًا: اختبار المؤمنين وتمحیصهم:

مشروع ضخم بمثل حجم مشروع الإمام الحجة ﷺ لا يقوى على حمله وتحقيقه إلا الأتباع المخلصون حقًا الذين صمدوا أمام شتى أنواع المحن والتحديات. ومن جهة أخرى، فإنَّ هذه الغيبة تعمل على كشف المتخاذلين وأصحاب النفوس الضعيفة ليتساقطوا وينسحبوا قبل أن يشكّلوا نقطة ضعف في جيش الإمام المنتظر ﷺ. وقد أشار الإمام الرضا <عليه السلام> إلى هذه الحكمة في غيبة المهدي الطويلة بقوله: "والله لا يكون ما تمدون إليه أعناقكم حتى تميزوا وتمحصوا، فلا يبقى منكم إلا الأندر"، ثمَّ تلا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَادِيْنَ﴾ [العنكبوت: ٣]^(٢).

١ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): علل الشرائع، ج ١، ص ٢٤٣.

٢ - داود بن سليمان بن يوسف الغازى: مسنـد الإمام الرضا <عليـه السلامـ، ج ١، ص ٢٦٤.

المبحث التاسع: شروط انتهاء الغيبة

إنَّ تحقق العلامات المذكورة وحده لا يكفي لتحقّق ظهور الإمام المهدي عليه السلام، بل ثمةَ أسباب وشروط إضافيَّة لا بدَّ من توفرها ليكون الفرج، منها:

أوَّلًا: توفرُ الأنصار:

يجب أن يتوفَّر العدد الكافي من الأنصار الأوَّلية القادرين على دعم مشروع الإمام عليه السلام وتحقيقه، والذين سيلتفون حوله مع بداية حركته المباركة، ليشكِّلوا النواة الصلبة لتحرُّكه. ويشمل ذلك وجود القادة في جيشه، وعددهم ٣١٣ قائدًا بعدد أهل بدر، وهؤلاء هم الذين - كما ورد في رواية عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام - «يحفُّون به يقونه بأنفسهم في الحروب ويكفونه ما يريده»^(١).

ثانيًا: تحذير عدم التوقيت:

هناك جملة من الروايات تؤكِّد على تحريم تحديد وقت محدَّد

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٣٠٨.

لظهور الإمام الحجة عليه السلام، كما في الرواية عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام حيث قال: «لقد حدثني أبي عن أبيه عن آبائه عليهم السلام أنَّ النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قيل له: يا رسول الله متى يخرج القائم من ذرتك؟ فقال عليه السلام: مثله مثل الساعة لا يجيئها لوقتها إلا هو، ثُقلت في السماوات والأرض لا تأتكم إلا بغتة»^(١).

بل إنَّ هناك روايات صريحة تُكذب كلَّ من يحدد وقتاً للظهور، كالرواية عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «كذب الوقاتون، كذب الوقاتون، كذب الوقاتون»^(٢).

المبحث العاشر: حِكْمَةُ إِخْفَاءِ وَقْتِ الظَّهُورِ

ثُمَّةَ حِكْمَمْ عَدَّةٌ وراء إبقاء وقت الظهور غير معلوم، نذكر منها:
 ١. بما أنَّ للظهور شروطاً موضوعية يتحقق كثير منها بجهود المؤمنين وعملهم، فمن المنطقي أن يرتبط موعده بجديّة عمل هؤلاء الناس وهمّتهم واستعدادهم. وهذا بدوره

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥، ص ١٥٤.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٦٨.

يحفّزهم على العمل الجاد وإعداد الأرضية المناسبة للظهور، وبالتالي يعجل في تحقّقه. أمّا ربطه بتاريخ محدّد مجرّد، فهو يفصله عن أسبابه الحقيقة ولا يشكّل حافزاً للناس للسعي نحو تحقيق شروطه.

٢. إبقاء وقت الظهور مجهولاً يحافظ على شعلة الأمل متقدّدة دائماً في قلوب المؤمنين. ففي رواية عن (محمد بن الفضيل) عن الإمام الرضا عليه السلام أنَّه سُئل عن الفرج، فقال: «الليس انتظار الفرج من الفرج؟ إن الله عزَّ وجَّلَ يقول: ﴿فَأَنْتَظِرُوْا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنْتَظِرِيْنَ﴾» [يونس: ١٠٢]^(١). وهذا الأمل الدائم يدفعهم لإصلاح أحوالهم، واجتناب المعااصي، والالتزام بالطاعات، والاستعداد لنصرة الإمام حين يظهر. ولهذا جاء في توقيع الإمام عليه السلام الموجّه للشيخ المفید: «فليعمل كلّ امرئ منكم بما يقربه من محبتنا، ويتجنّب ما يدنيه من كراهيّتنا وسخطنا، فإنَّ أمرنا بعثة فجأة، حين لا تنفعه توبة ولا ينجيه من عقابنا ندم على حسرة»^(٢).

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٢٨.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ١٧٦.

المبحث الحادي عشر: إمكانية طول عمر الإمام

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. فطالما أَنَّ الله - تعالى - قد أراد للإمام الحجَّةَ أن يغيب هذه المدَّة الطويلة، فلا مجال للشك في إمكانية ذلك أو ادعائه استحالته، فالله قادر على كل شيء. وقد قال عليه السلام نفسه عن ظهور الفرج: «وَأَمَّا ظهور الفرج فإنه إلى الله»^(١).

المبحث الثاني عشر: نماذج تاريخية للعمر المديد

إن التشكيك في إمكانية تعمُّر الإنسان لفترات زمنية طويلة، يوحى بأنَّ طول عمر الإمام المهدي عليه السلام حالة فريدة لا سابق لها في التاريخ، لكن هذا التشكيك يثير الاستغراب نظراً لوجود نماذج مُؤكَّدة ومُعترف بها لأشخاص عاشوا أعماراً مديدة جدًّا، وقد ورد ذكرها في نصوص قرآنية أو روايات متواترة مقبولة. وفيما يأتي نستعرض نموذجين بارزين:

١ - محمد بن الحسن الطوسي: الغيبة، ص ٢٩١.

١- النبي نوح عليه السلام:

يقول الله تعالى- في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الظُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]. هذه المدة الطويلة من عمر نبي الله نوح عليه السلام- ألف سنة إلا خمسين عاماً- تمثل فقط الفترة التي قضها في دعوة قومه منذ بعثته حتى حدوث الظوفان، وليس مجمل عمره.

إذا كانت ظروف نبي الله نوح عليه السلام قد اقتضت أن يعيش كل هذه المدة الطويلة، أفلأ تستحق تحقیقات الوعد الإلهي بالنصر النهائي، وإقامة العدالة في الأرض، وانتشار جنود الله، وعلو شأن دينه. فألا تستوجب كل هذه الأهداف العظيمة أن يُمدَّ في عمر صاحب الزمان عليه السلام ليلتولى تحقيق هذا المشروع الجليل بنفسه؟

٢- الخضر عليه السلام:

من الثابت أنَّ الخضر عليه السلام هو من المعمّرين، وقد امتدَّ به العمر لآلاف السنين. ورد في رواية عن الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام قوله: ”إنَّ الخضر عليه السلام شرب من ماء الحياة فهو حيٌ لا يموت حتى ينفح في الصُّور، وإنَّه ليأتينا فليسَّم علينا، فيسمع صوته ولا يُرى شخصه، وإنَّه ليحضر حيث ما ذكر، فمن ذكره منكم فليُسَّلِّمْ عليه، وإنَّه ليحضر

الموسم كلّ سنة، فيقضى جميع المناسك ويقف بعرفة، فيؤمّن على دعاء المؤمنين وسيؤنس الله به وحشة قائمنا في غيته ويصل به وحدته^(١).

وتشير الروايات إلى وجود علاقة وطيدة بين طول عمر الخضر^{عليهم السلام} وطول عمر الإمام المهدي^{عليه السلام}. فقد رُوي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق^{عليه السلام} قوله: وأما العبد الصالح الخضر، فإنَّ الله تبارك وتعالى ما طوَّل عمره لنبوَّةَ قدرها له، ولا لكتاب ينزله عليه، ولا لشريعة ينسخ بها شريعة من كان قبله من الأنبياء، ولا لإمامية يلزم عباده الاقتداء بها، ولا لطاعة يفرضها له، بل، إنَّ الله تبارك وتعالى لماً كان في سابق علمه أن يقدِّر من عمر القائم ما يقدِّر من عمر الخضر وما قدِّر في أيَّام غيته ما قدِّر وعلم ما يكون من إنكار عباده بمقدار ذلك العمر في الطول، طوَّل عمر العبد الصالح من غير سبب يوجب ذلك إلَّا لعلَّة الاستدلال به على عمر القائم^{عليه السلام}، ولقطع بذلك حجَّةَ المعاندين لثلاً يكون للناس على الله حجَّة^(٢).

١ - محمد تقى الأصفهانى: مکیال المکارم، ج ١، ص ١٧١.

٢ - محمد تقى الأصفهانى: مکیال المکارم، ج ١، ص ١٧١.

المبحث الثالث عشر: المحاور والمفاهيم الرئيسية

١. ولد الإمام المهدي عليه السلام في الخامس عشر من شهر شعبان عام ٢٥٥ للهجرة، في مدينة سامراء.

٢. أوصى الإمام الحسن العسكري عليه السلام بالإمامية من بعده لولده المهدي عليه السلام، فصار إماماً للأمة وقائداً لها وهو في سن لم يتجاوز الخامسة. وقد اشتهر الإمام المهدي عليه السلام -كسائر آباء المعصومين- بالعبادة والمواظبة على التقرب إلى الله سبحانه. وقد نقلت عنه العديد من الأدعية، ومن أبرز ما أثر عنه تسبيح يقول فيه: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدُ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ رَضَا نَفْسَهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ مَدَادُ كَلْمَاتِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةُ عَرْشِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِثْلَ ذَلِكَ»^(١).

٣. يُعد الاعتقاد بوجود الإمام المهدي عليه السلام تعبيراً عن حاجة فطرية في الإنسان. فانتشار فكرة المنقذ العالمي الحتمي الظهور في الفكر البشري على نطاقٍ واسع يُظهر مدى رسوخ هذه الفكرة وقوّة أساسها المنشقة من الجبلة الإنسانية.

١ - سعيد بن هبة الله الرواوندي: الدعوات، ص ٩٤

٤. يشكّل الإيمان بحتميّة ظهور مصلح عالميٍّ يُقيم دولةً إلهيّةً عادلةً على الأرض نقطة اتفاقٍ جوهريّة بين جميع الديانات السماويّة.
٥. يعتقد الإمامية الاثنا عشرية بالإمام المهدي عليه السلام استناداً إلى الأخبار المتواترة الصادرة عن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه والأئمة عليهم السلام التي تبشر بظهوره في آخر الزمان، لينشر العدل في العالم وينصر المستضعفين.
٦. مرّت إمامية المهدي عليه السلام بفترة غيبةٍ صغرى كان له خلالها سفراً أربعةً يمثلون حلقة الوصل بينه وبين شيعته، وهم بالترتيب: السفير الأول (عثمان بن سعيد العمري الأسيدي)، ثمَّ ابنه (محمد بن عثمان العمري)، ثُمَّ (الحسين بن روح النوبختي)، وأخيراً (عليٌّ بن محمد السمرى).
٧. من أبرز حِكم غيبة عليه السلام سبيان رئيسان: الأول هو صيانة شخصه من القتل، والثاني هو اختبار المؤمنين وتمييز الصادقين في إيمانهم.
٨. لا يكتمل شرط الظهور بمجرد تحقق مجموعة من العلامات فقط، بل يجب أن تتوفر أيضاً جملةً من الأسباب والشروط الأخرى، مثل وجود مجموعةٍ من الأنصار الأوفياء، مع

التنبيه على تحريم تحديد وقت معين للظهور.

٩. إطالة عمر الإمام المهدي ﷺ أمر ممكناً عقلاً وشرعاً، فقدرة الله -تعالى- مطلقة، كما يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وهناك نماذج معمرة في التاريخ ذكرتها النصوص، مثل النبي نوح عليه السلام والخضر عليه السلام.

المبحث الرابع عشر: علامات الظهور

سبق أن أوضحنا أن ظهور الإمام الحجة عليه السلام لا يرتبط بموعد محدد، ومع ذلك، لم يترك هذا الحدث الجلل دون إشارات تدل على اقترابه، فقد تضمنَت عدد من الروايات ذكر أحداث ووقائع عَدَّة جعلت دليلاً على قرب زمن الظهور، وهو ما اشتهر بتسميته "علامات الظهور". وتنوع هذه العلامات وتختلف في تصنيفاتها.

بعض هذه الإشارات يكون واضحاً ومباسراً في دلالته، بينما يحمل بعض آخر طابعاً رمزيّاً يصعب فهم مراميه بدقة. ويرجع هذا الغموض والانزياح الرمزي إلى فارق الزمان وصعوبة التعبير عن أمور لم تكن معهودة في العصر الذي صدرت فيه تلك الروايات، فاستبدل وصفها بالتشبيهات والإيماءات.

كما أنَّ بعض علامات الظهور ترسم المشهد العام للعصر الذي سيحدث فيه الظهور. ومن البديهي أنَّ هذه الأجراء العاَمة لا تتشكل في لحظة واحدة، بل هي نتاج تراكمات تدريجية على المستوى المجتمعي، وبالتالي فإنَّ هذه العلامات لا تكون بالضرورة ملاصقة تماماً لزمن الظهور، بل قد يفصل بينها وبينه فترة زمنية. في المقابل، توجد علامات أخرى تشبه الأحداث المفصليَّة التي تقع قبل الظهور بفترات وجيزة وتليها مباشرة، ما يجعلها مؤشرات قريبة جداً من لحظة الظهور.

وُقُسمت العلامات أيضاً إلى علامات حتمية الواقع، وأخرى غير حتمية، قد تتحقق أو لا تتحقق، ولا يشترط تحقُّقها لبدء مرحلة الظهور. وقبل الخوض في تفاصيل ذلك، ثمة سؤال جوهري يطرح نفسه: ما الحكمة من الإخبار بعلامات الظهور؟

المبحث الخامس عشر: الحكمة من الإشارات أو العلامات

علامات الظهور فوائد عظيمة ومتعلدة، على صعيد حفظ المؤمنين أثناء فترة الغيبة ومواجهتها تحديات ذلك العصر، وكذلك على مستوى

الفصل الرابع عشر - المبحث الخامس عشر ° ٣٣٩

استعدادهم النفسي والعملي لمرحلة الظهور، ومنعًا لفتور الهمم
وتراحي العزيمة مع طول أمد الانتظار.

أمّا فيما يخصّ حفظ المؤمنين ومواجهة التحدّيات، فتتجلى الفائدة

من وجهين:

الوجه الأول: إشعاع جذوة الأمل وسط تراكم المحن والصعوبات والتعقيدات.. فحين يتشرّف الفساد في المجتمع وتُنتهك الحقوق وتعمّ المظالم، ويبدأ الإنسان بالشعور بالإعياء والإحباط أمام هذه التحدّيات الكبيرة والقاسية، فإنَّ ملاحظة إحدى علامات الظهور أو عدَّ منها تعيد إشعاع نور الأمل في روحه وقلبه، فيتذَكَّر أنَّ للباطل والظلم جولة ستنتهي لا محالة، وأنَّ بشائر اقتراب نهايتها قد بدأت تلوح عبر هذه العلامات.

الوجه الثاني: أنَّ التعرّف على طبيعة علامات الظهور، وكيف أنَّ الظهور سيأتي بعد بلوغ الظلم والفساد ذروته، يجعل المؤمن -مهما شاهد من مظاهر الانحراف- في منأى عن الصدمة واليأس، فهو يتوقّع ذلك استناداً إلى ما ورد في أوصاف عصر الظهور وإشاراته العامة، فيتحول ردّ فعله من الإحباط بسبب وجود الظلم إلى التفاؤل باقتراب النصر.

وأمّا تأثير العلامات على حالة الاستعداد، فيتمثل في أنَّ المؤمن

عندما يرى عالمة توحى باقتراب الظهور، يزداد تفاؤلاً وحماساً، وبالتالي يصبح أكثر حيوية وفاعلية في مواجهة الفساد، سعيًا لاكتساب الأهلية لأنَّ يكون فرداً من أنصار الإمام وجنوده.

المبحث السادس عشر: المشهد العام قبل الظهور

توجد رواية عن الإمام علي عليه السلام تجمل حالة الانحدار التي تصل إليها المجتمعات المنحرفة؛ حيث يقول: «احفظ... فإنَّ علامات ذلك: إذا أمات الناس الصلاة، وأضاعوا الأمانة، واستحلوا الكذب وأكلوا الربا، وأخذدوا الرُّشَا... وباعوا الدين بالدنيا واستعملوا السفهاء، وقطعوا الأرحام، واتبعوا الأهواء واستخفُوا بالدماء، وكان الحلم ضعفاً والظلم فخراً، وكان الأمراء فجرة، والوزراء ظلمة والعرفاء خونة والقراء فسقة، وظهرت شهادات الزور واستعملن الفجور وقول البهتان والإثم والطغيان... وكان زعيم القوم أرذلهم، واتقى الفاجر مخافة شره وصدق الكاذب وأؤمننَّ الخائن واتخذَت القيَّان والمعاذف، ولعن آخر هذه الأُمَّةِ أولها، وركبت ذوات الفروج السروج وتشبه النساء بالرجال والرجال بالنساء...»^(١).

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٩٣.

المبحث السابع عشر: أحداث ما قبل الظهور

تتضمن الروايات ذكرًا لعدد من العلامات والأحداث التي ستسبق الظهور، ونذكر هنا بعضها مصنفًا إلى فئات:

١- التحرّكات العسكرية:

أ. خروج السفياني: وهذا ما جاء في حديث عن النبي الكريم ﷺ، يقول فيه: "فَيَنِمُّا هُمْ كَذَلِكَ، أَيْ أَثْنَاءِ الْفَتْنَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمُ السَّفِيَّانِيُّ" من الوادي اليابس في فور ذلك حتّى ينزل دمشق، فيبعث جيشين: جيشاً إلى المشرق وأخر إلى المدينة حتّى ينزلوا بأرض بابل من المدينة الملعونة "يعني بغداد" فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ويفرضون أكثر من مائة امرأة ويقتلون بها ثلاثة كبس من بنى العباس ثم ينحدرون إلى الكوفة^(١).

ب. خروج اليماني: جاء عن الرسول ﷺ: "خروج الثلاثة: السفياني والخراساني واليماني" في سنة واحدة في شهر

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٨٦.

واحد في يوم واحد وليس فيها من رأية أهدى من رأية اليماني؛ لأنَّه يدعو إلى الحق^(١). وفي حديث عنه: ”خروج السفياني واليماني والخراساني“ في سنة واحدة وفي شهر واحد وفي يوم واحد، ونظام الخرز يتبع بعضه بعضاً، فيكون البأس في كل وجه، ويل لمن ناواهم، ليس في الرایات أهدى من رأية اليماني هي رأية هدى؛ لأنَّه يدعو إلى أصحابكم، فإذا خرج اليماني حرَّم بيع السلاح على كل الناس^(٢).

ج. إقبال الرايات السود من خراسان: قال النبي الكريم ﷺ: ”نزل الرايات السود التي تخرج من خراسان إلى الكوفة، فإذا ظهر المهدى بعثت إليه بالبيعة^(٣). وجاء عن الإمام علي عليه السلام: ”إذا سمعت الرايات السود مقبلة من خراسان فكنت في صندوق مغلٍ عليك، فاكسر ذلك القفل وذلك الصندوق حتى تُقتل تحتها“^(٤).

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢١٠.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢٣٢.

٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢١٧.

٤ - علي بن حسام الدين الهندي: كنز العمال، ج ١١، ص ٢٧٨.

الفصل الرابع عشر - المبحث السابع عشر ٣٤٣

٢- أحداث بارزة محددة:

مقتل النفس الزكية بين الركن والمقام: ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّ الفاصل الزمني بين حادثة مقتل النفس الزكية وقيام قائم آل محمد عليهم السلام هو خمس عشرة ليلة فقط، وفقاً للرواية: ”وليس بين قيام قائم آل محمد وبين قتل النفس الزكية إلَّا خمس عشرة ليلة“^(١).

٣- كوارث وظواهر طبيعية مذهلة:

أ. خسف في البيداء: تذكر الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّ من العلامات الحتمية التي تسبق قيام القائم عليه السلام هي ظهور اليماني والسفرياني، ومنادٍ ينادي من السماء، مضافاً إلى حدوث خسف في أرض البيداء ومقتل النفس الزكية^(٢).

ب. خسوف في المشرق والمغرب: يُستدل بحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أنَّ هذه الفترة ستشهد ثلاثة أخسفة كبيرة: خسوف في المشرق، وأخر في المغرب، وثالث في جزيرة العرب^(٣).

١ - محمد بن الحسن الطوسي: الغيبة، ص ٤٤٥.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢٠٣.

٣ - علي الكوراني العاملي: معجم أحاديث الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ج ١، ص ٣٦١.

ج. طلوع الشمس من المغرب: من الأحداث المحتومة التي ستحصل طلوع الشمس من جهة المغرب^(١)، كما ورد عن الإمام الباقي^(٢).

المبحث الثامن عشر: الإعلان السماوي عن الظهور

الصيحة في السماء: سيكون لظهور الإمام المهدي^(٣) إعلان سماويٌ مهيب، حيث ينادي منادٍ من السماء باسم القائم^(٤). وسيسمع هذا النداء كلّ من في المشرق والمغرب، حتى يوقظ الجميع من نومهم، ويثير الرهبة في كلّ قلب.. فرحم الله من اعتبر بذلك الصوت فأجاب^(٥).

المبحث التاسع عشر: رايات تسبق الظهور

إنَّ النصر الحقيقى والكامل الذى يطال العالم بأسره لن يتحقق إلا

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢٨٩.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢٣٠.

بظهور الإمام المهدي عليه السلام، وهذه حقيقة تؤكّدُها النصوص بوضوح لا مجال للشك فيه. وبما أنّ النصر النهائي محصور بظهوره، فهل يمكن أن توجد رايات ذات شأن قبل ذلك الحدث العالمي؟!

المبحث العشرون: الدلالة الرمزية للرايات

يحمل مفهوم "الراية" في عصرنا الحاضر دلالة رمزية ومعنىَّة قويَّة، فهي تمثل حضور أصحابها وقوَّتهم أينما حلَّت، وسقوطها يعبر عن هزيمتهم وضعفهم.

أما في السياق التاريخي، فإلى جانب قيمتها المعنوية، كانت للراية دور عملي محوري؛ فهي تجمع الشّتات وتوحد الصّفوف تحت قيادة واحدة لمواجهة العدو. وكان سقوطها في المعارك يعني انهيار الجيش وتشتيته وحدوث الهزيمة. لذلك، كان يختار لحمل الراية أشجع الجنود وأقدرهم على الصمود والثبات، والذي يتحلى بإيمان عميق، كما في قول النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة خيبر: "لأُعطيَنَّ الراية غداً رجلاً يحبُ الله ورسوله ويحبُ الله ورسوله، كرّاراً غير فرار".^(١)

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٨، ص ٢٥١

وبالتالي، فإن رفع الراية هو في جوهره دعوة صريحة للتجمّع والالتحاق تحت مظلّتها والاستعداد للتضحية والفتداء في سبيل الهدف الذي ترمز إليه.

المبحث الواحد والعشرون: حُكْمُ رفع الراياتِ قبل ظهور الإمام عليه السلام فتح العين

يشير هذا السؤال نفسه نتيجةً للرابط بين مفهوم النصر النهائي المرتبط بظهور الإمام المهدي عليه السلام ومسألة العمل الجماعي المنظم قبل ذلك الظهور. فهل يجب تأجيل رفع الرايات حتى زمن الظهور، أم أن ذلك ممكن ومطلوب في عصر الغيبة؟

والجواب: إن رفع الراية يمثل عملاً جماعياً منظماً، قد يصل إلى حدّ بذل التضحيات، وهو وسيلة لتحقيق أهداف كبرى. وفي زمن الغيبة، ثمة واجبات عدّة ومصالح مهمّة تتطلّب بالضرورة عملاً جماعياً منظماً، وتضحية بالغالي والنفيسي. ومن هذه الواجبات:

١. الدفاع عن حوزة المسلمين: يُجمع الفقهاء على وجوب الجهاد والدفاع عن بلاد المسلمين ومقدراتهم وأعراضهم. ولا يتحقق هذا الدفاع بالتفرق والسلبية، بل يتطلّب مواجهة

منظمةً وجمعًا للطاقات والقدرات على كل المستويات، استجابةً لأمر الله تعالى: ﴿أَذْنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٢٩].

٢. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهي فريضة عظيمة لا يجوز التخلّي عنها، كما في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجْتُ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ولا تكفي في مواجهة منكرات هذا الزمن الجهود الفردية بل لا بدّ من عمل جماعي منظم يواجه التحدّيات على جميع الأصعدة: الثقافية، والإعلامية، والاجتماعية، وغيرها، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

٣. إقامة الأحكام الإلهية: يشمل الإسلام تشريعات تفصيلية في كل المجالات، حتى في القضاء والحدود والاقتصاد والمعاملات. ولا يجوز لأحد ادعاء سقوط هذه الأحكام في زمن العيّنة بل نحن مكلّفون بالعمل بها والالتزام بها، كما أمر الله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

المبحث الثاني والعشرون: التحذير من الالتحاق بالرأيات المشبوهة

وردت نصوص عن أئمَّةَ أهل البيت عليهم السلام تحذِّر المؤمنين من الانضمام إلى كل راية تُرفع، حتى لو اتَّسحت بشعارات برَّاقة. ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام يحذِّر قائلاً: «فالخارج منا اليوم إلى أي شيء يدعوكم؟ إلى الرضا من آل محمد عليهم السلام؟ فنحن نشهدكم أننا لسنا نرضى به وهو يعصينا اليوم..»^(١).

وكان سبب هذه التحذيرات هو حركة العَبَّاسين الذين استغلُّوا شعار «الرضا من آل محمد» للثأر من الأمويين، وهذا ما خدعا بعض المؤمنين. فأراد الإمام عليه السلام كشف حقيقتهم وأنْ مقصدهم الملك والسلطة، وليس إقامة حقّ أهل البيت عليهم السلام، مؤكداً أنَّهم لو حكموا لما كانوا خيراً من سابقيهم.

أمّا إذا كانت الرأبة صادقة وتمثُّل قيادةً يرضى عنها الإمام المعصوم، فإنَّ الحكم يختلف. ومثال ذلك «ولي الفقيه» الذي أعلن الإمام المهدى عليه السلام الرضا عن عمله، وألزمَ الناسَ بطاعته في عصر الغَيبة في

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٨، ص ٢٦٤.

الحوادث الواقعة، كما في التوقيع الشريفي: ”وَأَمَّا الْحَوَادِثُ الْوَاقِعَةُ فَارجعوا إِلَيْها إِلَى رواةِ حَدِيثِنَا“^(١). فولي الفقيه لا يدع لنفسه، بل هو ممهّد لظهور الإمام عليه السلام وداعٍ إليه، ورأيته هي في الحقيقة رأية الإمام نفسه.

المبحث الثالث والعشرون: رأيات الحق الممهّدة للظهور

تواتر الروايات عن أهل البيت عليهم السلام التي تبشر برأيات حقٍّ وهدى سترفع قبل ظهور الإمام المهدي عليه السلام، تكون بمثابة تمهيد لقيادته العالمية. ومن هذه النصوص:

رواية عن الإمام الباقر عليه السلام جاء فيها: ”كأنّي بقوم قد خرجوا بالشرق يطلبون الحقَّ فلا يعطونه، ثمَّ يطلبونه فلا يعطونه. فإذا رأوا ذلك وضعوا سيفهم على عواتقهم فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يقوموا ولا يدفعونها إلا إلى صاحبكم، قتلهم شهداء“^(٢).

١ - الفضل بن الحسن الطبرسي: الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٨٣.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢٤٣.

الحديث عن رسول الله ﷺ: "يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي" ^(١)، أي يمهدون الطريق ويعدّون الأرضية لظهوره.

رواية عن الإمام الكاظم ع يقول فيها: "رجل من أهل قم يدعو الناس إلى الحق، يجتمع معه قوم قلوبهم كزبر الحديد، لا تزأهم الرّياح العواصف، ولا يملؤن من الحرب، ولا يجنون، وعلى الله يتوكلون، والعاقبة للمتقين" ^(٢).

المبحث الرابع والعشرون: معنى الانتظار وروحانيته

الانتظار في معناه اللغوي هو الترقب ^(٣) والتربيص ^(٤)، وهو حالة نفسية إيجابية تبعث على الاستعداد النفسي والعملي لما يتظره المرء، ويكون ضدّ اليأس والقنوط. فكلّما اشتدتّ حالة الانتظار، ازداد استعداد الإنسان وتجهزه ^(٥).

-
- ١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٨٧.
 - ٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٧، ص ٢١٦.
 - ٣ - محمد بن مكرم (ابن منظور): لسان العرب، ج ١، ص ٤٢٤.
 - ٤ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧، ص ٣٩.
 - ٥ - محمد تقى الأصفهانى: مکیال المکارم، ج ٢، ص ١٣٦.

المبحث الخامس والعشرون: سؤال التكليف في عصر الغيبة

طرح مسألة ”كيفية الانتظار“ نفسها بإلحاح، نظرًا لطول فترة الغيبة التي امتدت لقرون، ومرور أجيال متعاقبة في ظروف متباعدة. وهذا يستدعي تحديد تكليف شرعي واضح لهذه الأجيال: ما هو واجبهم؟ وكيف يجب أن يتذبذبوا ظهور الإمام المهدي عليه السلام وتحقق الفرج على يديه؟

المبحث السادس والعشرون: نمطان متبابنان للانتظار

ثمة تصوّران متعارضان لواجب المؤمن ودوره خلال غيبة الإمام عليه السلام:

- الانتظار السلبي: وهو أن يبقى الفرد سلبياً، متوقّفاً عن أي حراك أو فعل، مكتفيًا بمراقبة علامات الظهور وترقبها، دون أي محاولة للتغيير الواقع الاجتماعي أو السياسي المنحرف. وجوهر هذا النهج هو العزلة وترك الساحة خالية لأهل الباطل.

٢. الانتظار الإيجابي: وهو النهج الفعال الذي لا يعني جمود الإنسان حتى يحل الفرج، بل يلزمـه أن ينهض بأعباء التكاليف الشرعية كافةً، سواءً أكانت فرديةً أم اجتماعيةً، بما في ذلك العمل على إصلاح النظام المـجتمعي والسياسي وإقامة الحق قدر المستطاع. والسؤال الجوهرـي هو: أي النهجـين هو الانتظارـ الحـقيقي الذي يـريـده الشرـع؟!

المبحث السابع والعشرون: كيف نعيش زمن الانتظار بشكل صحيح؟

عندما نتعمق في دراسة النصوص والروايات الدينية، نصل إلى قناعة راسخـة بأنـ دور المؤمنـين في عـصر الغـيبة الكـبرـى لا يقتـصر على السـلبـية والانـكـفاء على الذـات، بل يـتـعدـاه إلى العمل الإيجـابـي والـقيـام بـجـمـيع الـواجـبات الشرـعـية التي تـحـقـق مـصلـحة الـأـمـة وـتـخـدـم قـضـيـتها. ويـمـكـن تـلـخـيـص أـهـم هـذـه الأـدـوار في النـقـاط الآتـية:

أولاًً: الالتزام العملي بالشرع وطاعة الولي الفقيـه: يؤكـد الإمام المـهـدي عـلـيـهـ الـسـلامـ في أحد أـحـادـيـثـهـ أـنـ اـتـحـادـ المؤـمـنـينـ قـلـيـاً

والتزامهم بعهدهم هو السبيل الأسرع لتحقيق اللقاء به ونيل شرف الانتظار الحقيقي. وهذا الاتحاد لا يقتصر على الجانب العقدي فحسب، بل هو اتحاد عملي على الساحة، يجسد معنى “الجسد الواحد” الذي يقوده “الرأس” الذي أوكلت إليه قيادة الأمة في زمن الغيبة، وهو الفقيه العادل الجامع للشراطط، الذي يكون مرجعاً في الحوادث المستجدة وفقاً للتوكيل الصادر من الإمام عليه السلام.

جاء عن المهدى عليه السلام: ”لو أنَّ أشياعنا وفَقِيمَةَ الله لطاعته على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد لما تأخرَ عنهم اليمين بلقائنا، ولتعجلَت لهم السعادة بمشاهدتنا على حقِّ المعرفة وصدقها منهم بنا“^(١).

ولذلك، فإنَّ الهمَّ الأكبر للمنتظرين يجب أن يكون هو العمل بتقوى الله، والتمسُّك بأحكامه، ونصرة قضيَّته، كما جاء في توجيه الإمام المهدى عليه السلام: ﴿يُرِيدُونَ لِيُظْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

ثانيًا: بناء القوة الداخلية والوحدة التنظيمية:

تشير الروايات إلى أنَّ ظهور الإمام المهدى عليه السلام سيكون حينما يجد

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ١٧٧.

”أولي قوّة“ . وهذه القوّة ذات شقين:

- قوّة ماديّة: وتحقّق عبر الاستعداد والتجهيز والتدريب المستمر، ما يفترض حركة دؤوبة وجادة في هذا المسار.
- قوّة معنويّة: وهي قوّة الإرادة والثبات العقدي التي تجعل قلب المؤمن ”أشدّ من زبر الحديد“، لا تزعزعه المحن، ولا تثنّيه التحدّيات.

وجاء في الرواية التي تصفهم: ”إنَّ قلب رجل منهم أشدّ من زبر الحديد لو مرُوا بالجبال الحديد لتدكّكت، لا يكفُون سيفهم حتّى يرضي الله عزَّ وجلَّ“^(١).

ثالثًا: التمهيد الفعلي للظهور:

هناك عدد من البشارات التي تتحدّث عن حركات وأشخاص سيكونون طلائع تمهد لظهور الإمام عَلَيْهِ الْكَلَامُ وتهيئ الظروف المناسبة له، كما في الحديث النبوي الشريف: ”يخرج ناس من المشرق فيوطّئون للمهدي“^(٢).

١ - سليمان بن خوجة القندوزي البلخي: ينابيع المودة، ج ٣، ص ١٧٧.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٢٤١.

إن أمنية كلّ مؤمن حقيقي أن يكون جزءاً من جيش الإمام عند ظهوره، وقد بشرَ الإمام الباقي عليهما بأنّ "طوبى لمن أدركه وكان من أنصاره"^(١). لذا، يعمل المخلصون على تهيئة الأرضية المناسبة وتحقيق الشروط الالزمة لظهوره، صامدين في انتظاره دون يأس أو استعجال، مصداقاً للرواية التي تفسّر سبب تسميته بـ "المتضرّ"، لأنّه يتضرّ خروجه المخلصون وينجو فيه المسلمين^(٢).

المبحث الثامن والعشرون: آداب التواصل مع الإمام المهدى عليهما السلام

أولاً: معرفة الإمام المهدى عليهما السلام:
١- ضرورة التعريف بالإمام المهدى عليهما السلام:
يؤكّد رسول الله عليهما السلام على أهميّة معرفة الإمام فيقول: "مَنْ ماتَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً"^(٣).

-
- ١ - محمد بن ابراهيم النعماني: الغيبة، ص ٢٤٠.
 - ٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٣٠.
 - ٣ - راجع: محمد بن ابراهيم النعماني: الغيبة، ص ١٣٠؛ محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٢١.

٢- التمسّك بالدين وولاية أهل البيت عَلَيْهِمُ الْكَلَامُ:

يعد الثبات على مبادئ الدين والولاء لأهل البيت عَلَيْهِمُ الْكَلَامُ من أهم الواجبات في عصر الغيبة، والثقة بإماممة الأئمة الاثني عشر. وقد حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشك في هذه الفترة قائلاً: "...فَمَنْ أَدْرَكَ زَمَانَهُ فَلَيَتَمَسَّكْ بِدِينِهِ وَلَا يَجْعَلْ لِلشَّيْطَانِ إِلَيْهِ سَبِيلًا فَيُشْكِكُهُ فَيُرِيهُ عَنِ الْمُلْتَقَى وَيُخْرِجُهُ مِنِ دِينِي" ^(١).

٣- التذكير بمناقب الإمام المهدى عَلَيْهِمُ الْكَلَامُ:

من مظاهر الثبات على الولاية ذكر فضائل الإمام المهدى عَلَيْهِمُ الْكَلَامُ، ونشرها بين الناس، والبراءة من أعدائه. وقد بشرَ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: "طُوبى لِمَنْ أَدْرَكَ قَائِمَ أَهْلَ بَيْتِي وَهُوَ يَأْتِيُ بِهِ فِي غَيْبَيْهِ قَبْلَ قِيَامِهِ... ذَلِكَ مِنْ رُفَقَائِي وَدَوِيَ مَوَدَّتِي وَأَكْرَمَ أُمَّتِي عَلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" ^(٢).

٤- التحلّي بالأدب عند ذكره عَلَيْهِمُ الْكَلَامُ:

يُستحبُّ عند ذكر الإمام أن يُنادى بألقابه المحترمة، مثل:

١ - محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين، ج ١، ص ٥١.

٢ - راجع: محمد بن الحسن الطوسي: الغيبة، ص ٢٧٥؛ الصدوق: كمال الدين، ج ١، ص ٢٨٦.

الحجّة، والقائم، والمهدي، وصاحب الزمان، وصاحب الأمر، مع إضافة عبارات التكريم مثل عليه السلام أو عليه السلام، والقيام عند سماع لقب "القائم".

٥- الدعاء للإمام المهدي عليه السلام بتعجيل فرجه:

ورد في إحدى التوقعات المقدسة: "وَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ بِتَعْجِيلِ الْفَرَجِ، فَإِنَّ ذَلِكَ فَرَجُوكُمْ" ^(١).

٦- إظهار المحبة والسوق إلى عليه السلام:

من الآداب نشر محبّته بين الناس، وإظهار الشوق للقائه، والتباكي والحزن على فراقه، والصدق نية عنه دعاء لسلامته.

٧- إحياء مجالس فضائله عليه السلام:

يشمل ذلك إنشاء المجالس التي تُذكر فيها مناقبه وفضائله، أو دعمها ماليًا، أو حضورها، والسعى إلى نشر فضائله.

١ - راجع: محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين، ص ٤٨٥؛ الفضل بن الحسن الطبرسي: الغيبة، ص ٢٩٣؛ أحمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٨٤.

٨- إهداء ثواب الأعمال الصالحة إلى النبي ﷺ:

كإهداء ثواب الحجّ، والطواف، والصوم، والصلوة، وزيارة المعصومين للنبي له، أو دفع المال لنائب يقوم بهذه الأعمال نيابة عنه.

٩- تجديد البيعة للإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ:

كما ورد في دعاء العهد: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَجَدِّدُ لَهُ فِي صَبِيحةِ يَوْمِي هذَا... عَهْدًا وَعَقْدًا وَبَيْعَةً لَهُ فِي عُنْقِي، لَا أُحَوِّلُ عَنْهَا وَلَا أَزُولُ أَبْدًا...».

١٠- الصلاة والسلام عليه ﷺ:

ورد في دعاء العهد: «اللَّهُمَّ بَلَّغْ مَوْلَانَا الْإِمَامَ الْهَادِيَ الْمَهْدِيَّ الْقَائِمَ بِأَمْرِكِ... صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آبَائِهِ الطَّاهِرِينَ...»^(١) ..

١١- الصلاة على الإمام زين العابدين وعليه السلام:

جاء في دعاء العهد: «اللَّهُمَّ بَلَّغْ مَوْلَانَا الْإِمَامَ الْهَادِيَ الْمَهْدِيَّ الْقَائِمَ بِأَمْرِكِ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آبَائِهِ الطَّاهِرِينَ عَنْ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ

١ - راجع: ابن طاووس: مصباح الزائر، ص ١٦٩؛ ابراهيم بن علي الكفعumi العاملي: البلد الأمين والدرع الحصين، ص ٨٢؛ الكفعumi: المصباح، ص ٥٥٠.

الفصل الرابع عشر - المبحث الثامن والعشرون ٣٥٩

وَالْمُؤْمِنَاتِ فِي مَسَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا سَهْلَهَا وَجَبَلَهَا وَبَرَّهَا وَبَحْرَهَا،
وَعَنِي وَعَنْ وَالَّذِي مِنَ الصَّلَواتِ زِنَةُ عَرْشِ اللَّهِ وَمِدَادُ كَلْمَاتِهِ، وَمَا
أَحْصَاهُ عِلْمُهُ وَأَحاطَ بِهِ كِتَابُهُ...»^(١).

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ٩٦.

المصادر والمراجع

- ابن أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد بن هبة الله: شرح نهج البلاغة، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠٠٩ م.
- ابن الأثير، علي بن محمد: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٤ م.
- ابن الأثير، عز الدين: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.
- ابن بابويه، محمد بن علي (الشيخ الصدوق): الأimalي، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠٠٩ م.
- ابن بابويه، محمد بن علي (الشيخ الصدوق): الخصال، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠١٢ م.
- ابن بابويه، محمد بن علي (الشيخ الصدوق): عيون أخبار الرضا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٤٠٤ هـ.
- ابن بابويه، محمد بن علي (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠١٦ م.
- ابن بابويه، محمد بن علي (الشيخ الصدوق): من لا يحضره الفقيه، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠١٢ م.

- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي: الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ.
- ابن حنبل، أحمد: مسنن أحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، م٢٠٠٥.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي شأن الأكبر، دار الفكر، لبنان/بيروت، ط١، ١٩٨١ م.
- ابن شهر آشوب، محمد بن علي: مناقب آل أبي طالب، شركة الأعلمي للمطبوعات، لبنان/بيروت، لا ط، م٢٠٠٩.
- ابن طاووس، علي بن موسى: الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لا ط، ١٩٩٩ م.
- ابن طاووس، علي بن موسى: المجتنى من دعاء المجتبى، دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لا ط، م٢٠١٢.
- ابن طاووس، علي بن موسى: مصباح الزائر، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ١٩٩٦ م.
- ابن عتبة، جمال الحسيني: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، م٢٠١٥.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي: البداية والنهاية، مطبعة

- كردستان، مصر/القاهرة، ط١، ١٣٥٨ هـ.
- ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ.
- أبو زهرة، محمد: الإمام الصادق (حياته وعصره، آراءه وفقهه)، دار الفكر العربي، القاهرة، لا ط، ٢٠٠٥ م.
- الأربلي، علي بن عيسى: كشف الغمة في معرفة الأئمة، دار التعارف، بيروت، ط١، ٢٠١٢ م.
- الأردبيلي، محمد بن علي: جامع الرواية، الناشر: مكتبة المرعشبي النجفي، إيران/قم، لا ط، ١٤٠٣ هـ.
- الأسفرايني، أحمد بن عبد الوهاب النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، مصر/القاهرة، ط١، ١٤٢٣ هـ.
- الأصفهاني، علي بن الحسين: الأغاني، دار صادر، لبنان/بيروت، لا ط، ٢٠١٩ م.
- الأصفهاني، علي بن الحسين: مقاتل الطالبيين، شركة الأعلامي للمطبوعات، لا ط، ٢٠١٧ م.
- الأصفهاني، محمد تقى: مكيال المكارم، منشورات الفجر، دمشق، لا ط، ٢٠١٢ م.

- الأمين العاملي، محسن: *أعيان الشيعة، تحقيق وتحقيق: حسن الأمين*، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط١، عام ١٩٨٣ م.
- الأنصاري، محمد علي: *الموسوعة الفقهية الميسرة*، مجمع الفكر الإسلامي، إيران/قم، لا ط، ١٤٢٢ هـ.
- البحرياني، هاشم: *حلية الأبرار*، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ١٩٩٢ م.
- البحرياني، عبد الله: *العوالم (الإمام الحسين)*، مصادر الحديث الشيعية، قم، لا ط، ١٤٠٧ هـ.
- البخاري، محمد بن إسماعيل: *صحيح البخاري*، دار طوق النجاة، مصر/القاهرة، لا ط، ١٤٢٢ هـ.
- البلاذري، أحمد بن يحيى: *أنساب الأشراف*، تحقيق وتقديم: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٦ م.
- البيهقي، أحمد بن الحسين: *دلائل النبوة*، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥ م.
- الترمذى، محمد بن عيسى: *صحيح الترمذى*، كتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر/القاهرة، ط٢، ١٩٧٥ م.
- الثقفي الكوفي، إبراهيم بن محمد: *الغارات*، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لا ط، ١٩٨٧ م.

- الجلاي، محمد رضا: جهاد الإمام السجاد، مؤسسة دار الحديث الثقافية، قم، لا ط، ١٤١٨ هـ.
- الجلاي، محمد رضا: حياة الإمام السجاد، دار الحديث للطباعة والنشر، بيروت، لا ط، ١٩٩٩ م.
- الحر العاملی، محمد بن الحسن: وسائل الشيعة، شركة الأعلمی للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠٠٧ م.
- الحراني، الحسن بن علي بن شعبة: تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق: حسين الأعلمی، مؤسسة الأعلمی للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.
- الحلبي، محمد بن إدريس: السرائر، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط ٢، ١٤١٠ هـ.
- الحلبي، علي بن ابراهيم: السيرة الحلبيّة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢٧، ١٤٢٧ هـ.
- الحكم النيسابوري، محمد بن عبد الله: المستدرك على الصحيحين، دار الكتب العلمية، بيروت، لا ط، ١٩٩٠ م.
- الخامنئي، علي: الدروس العظيمة من سيرة أهل البيت عليهم السلام، مركز بقية الله، بيروت، ط ١، عام ١٥٢٠ م.
- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي: تاريخ بغداد، دار النوادر

- للنشر والتوزيع، سوريا/دمشق، لا ط، ٢٠١٦ م.
- الخوارزمي، الموفق بن أحمد: مناقب علي بن أبي طالب، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران/قم، لا ط، ١٤٢١ هـ.
- الديار بكري، حسين بن محمد: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، دار صادر، بيروت، لا ط، ١٩٧٣ م.
- الدينوري، أحمد بن داود: الأخبار الطوال، الناشر: وزارة الثقافة، مصر/القاهرة، ط١، ١٩٦٠ م.
- دحلان، أحمد بن زيني: السيرة النبوية، دار القلم العربي للنشر، بيروت، لا ط، ٢٠٠١ م.
- الرواندي، سعيد بن هبة الله: قصص الأنبياء، تحقيق: عبد الحليم عوض الحلبي، مكتبة العلامة المجلسي، إيران/قم، ط١، ١٤٣٠ هـ.
- الرواندي، سعيد بن هبة الله: قصص الأنبياء، مجمع البحوث العلمية، إيران/مشهد، لا ط، ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م.
- الرواندي، قطب الدين: الخرائج والجرائح، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان/بيروت، لا ط، ١٩٩١ م.
- السجستاني، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، المكتبة العصرية، لبنان/صيدا، لا ط، ١٣٩٢ هـ.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين): *الخصائص الكبرى*، دار الكتب العلمية، بيروت، لا ط، ٢٠٠٨ م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين): *الدر المنشور*، دار الكتب العلمية، بيروت، لا ط، ٢٠١٠ م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين): *تاريخ الخلفاء*، الناشر: وزارة الأوقاف، قطر/ الدوحة، ط ٢، عام ٢٠١٣ م.
- شرف الدين، عبد الحسين: *صلح الحسن*، الناشر: *تحقیقات ونشر معارف أهل البيت(ع)*، إیران/اصفهان، لا ط، ١٩٥٨ م.
- شمس الدين، محمد مهدي: *ثورة الحسين في الوجдан الشعبي*، الدار الإسلامية للطباعة والنشر، لبنان/بيروت، ط ١، ١٩٨٠ م.
- الصدوق، محمد بن علي بن بابويه: *علل الشرائع*، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر، لبنان/بيروت، لا ط، ٢٠١١ م.
- الصفار، محمد بن الحسن: *بصائر الدرجات*، شركة الأعلماني للمطبوعات، لبنان/بيروت، لا ط، ٢٠٢٥ م.
- الصدر، محمد باقر: *بحث حول المهدي(عج)*، دار التعارف للمطبوعات، لبنان/بيروت، ط ١، عام ١٩٧٧ م.
- الصدر، محمد صادق: *تاريخ الغيبة الكبرى*، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٢ م.

- الطبرى، محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، مصر/القاهرة، ط٢، ١٩٦٧ م.
- الطبرى، محمد بن جرير: دلائل الإمامة، تحقيق ونشر: قسم الدراسات الإسلامية-مؤسسة البعثة، إيران/قم، ط١، ١٤١٣ هـ.
- الطبرسي، أحمد بن علي: الاحتجاج، شركة الأعلمى للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠٠٩ م.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن: تاج المواليد، الناشر: مكتب المرجع المرعushi النجفي، قم، ١٤٠٦ هـ—.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، لبنان/بيروت، ط١، ١٩٩٥ م.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن: إعلام التورى بعلام الهدى، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، العراق/النجف، ط١، ١٤١٧ هـ—.
- الطبرسي، علي بن رضي الدين: مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، شركة الأعلمى للمطبوعات، بيروت، لا ط، ١٩٩١ م.
- الطبراني، سليمان بن أحمد: المعجم الأوسط، دار الحرمين، الرياض، لا ط، ١٩٩٥ م.
- الطبراني، سليمان بن أحمد: المعجم الكبير، دار الصميدي، السعودية/الرياض، ط١، ١٩٩٤ م.

- الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، دار الأميرة للطباعة والنشر، بيروت، طبعة عام ٢٠١٠ م.
- الطوسي، محمد بن الحسن: اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران/قم، ١٤٢٧ هـ.
- الطوسي، محمد بن الحسن: رجال الطوسي، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠١٥ م.
- الطهراني، آغا بزرگ (محسن بن علي): الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، لا ت.
- العاملي، جعفر متضي: الصحيح من سيرة النبي الأعظم(ص)، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت، ط٥، ٢٠٠٥ م.
- العاملي، علي الكوراني: معجم أحاديث الإمام المهدى(عج)، مؤسسة المعارف الإسلامية (مطبعة بهمن)، إيران/قم، ط١، ١٤١١ هـ.
- العاملي النباطي البياضي، علي بن يونس: الصراط المستقيم إلى مستحقى التقديم، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠٢٤ م.
- العياشي، محمد بن مسعود: تفسير العياشي، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠١٠ م.

- الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، ط، ٨، م ٢٠٠٥.
- القاضي النعمان المغربي: دعائم الإسلام، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لا ط، م ١٩٩٥.
- القاضي النعمان المغربي، النعمان بن محمد التميمي: شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، م ٢٠١٨.
- القمي، الشيخ عباس: متهى الآمال في تواریخ النبي والآل، دار مداد للثقافة والإعلام، المنامة، لا ط، م ٢٠٢٤.
- القمي، علي بن إبراهيم: تفسير القمي، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، م ٢٠١٤.
- القندوزي البلخي، سليمان بن خوجة: ينابيع المودة، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، م ٢٠٠٩.
- الكفعمي، ابراهيم بن علي: البلد الأمين والدرع الحصين، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، م ٢٠١٩.
- الكفعمي، ابراهيم بن علي: المصباح، دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان/بيروت، لا ط، م ٢٠٠٧.
- الكوفي، محمد بن سليمان: مناقب الإمام أمير المؤمنين(ع)،

- تحقيق: محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، لبنان/بيروت، ط١، ١٩٧٦ م.
- المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار الجامعية لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط١، ١٩٨٣ م.
- المرعشي النجفي، شهاب الدين: شرح إحقاق الحق، نشر: مكتبة المرعشي النجفي، إيران/قم، لا ط، لا ت.
- المسعودي، علي بن الحسين: التنبيه والإشراف، مكتبة المثنى، بغداد، ط١، ١٩٣٨ م.
- المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الهجرة، إيران/قم، لا ط، ١٤٠٩ هـ

الفهرس

٥ المقدمة
٧ الفَصْلُ الْأَوَّلُ: الرَّسُولُ الْأَكْرَمُ ﷺ خاتمُ النَّبِيِّنَ وسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ
١٢	المَبْحُثُ الْأُولُ: الولادةُ الطَّاهِرَةُ وَالنِّشَاءُ الْمَبَارَكَةُ
٢٥	المَبْحُثُ الثَّانِي: الْبَعْثَةُ وَالْهِجْرَةُ
٦١	المَبْحُثُ الثَّالِثُ: تَأْسِيسُ الْكَيَانِ الْإِسْلَامِيِّ وَبَدْءُ مُوَاجَهَةِ الصُّعَابِ
٩١	الفَصْلُ الثَّانِي: الْإِمَامُ عَلَيٰ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ
٩٣	المَبْحُثُ الْأُولُ: السِّيرَةُ الْمَشْرِقِيَّةُ
٩٧	المَبْحُثُ الثَّانِي: مَحَطَّاتُ رِئِيسَةِ حَيَاةِ الْإِمَامِ عَلَيٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْإِسْلَامِ
١٠٥	المَبْحُثُ الثَّالِثُ: وفَادُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَسَأَةُ الْخَلَافَةِ
١٠٧	المَبْحُثُ الرَّابِعُ: دُورُ الْإِمَامِ عَلَيٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي عَهْدِ الْخَلْفَاءِ
١١٠	المَبْحُثُ الْخَامِسُ: مِنْ الْخَلَافَةِ إِلَى الْاسْتِشَهَادِ
١١٢	المَبْحُثُ السَّادِسُ: مِبَادِئُ حُكْمِ الْإِمَامِ عَلَيٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الفهرس

١١٤ المبحث السابع: الصراعاتُ في عهد الإمام <small>عليه السلام</small> (حروب على ثلاث جبهات)	الفصل الثالث: السيدة فاطمة بنت محمد <small>عليه السلام</small>
١١٩ المبحث الأول: سيرة السيدة الزهراء.. نورٌ يقتدى به	المبحث الثاني: دورها العظيم في ظلّ الإسلام
١٢٤ المبحث الثالث: مكانتها في حديث المباهلة	المبحث الرابع: السيدة فاطمة الزهراء <small>عليها السلام</small> بعد الرسول <small>صلوات الله عليه وآله وسلامه</small>
١٣١ المبحث الأول: محطّاتٌ من سيرته العطرة	الفصل الرابع: الإمام الحسنُ بن عليٍّ <small>عليه السلام</small>
١٣٦ المبحث الثاني: سيرة الإمام الحسن <small>عليه السلام</small> الجهادية	المبحث الأول: محطّاتٌ من سيرته العطرة
١٣٨ المبحث الثالث: الإمام الحسن <small>عليه السلام</small> واستلام دفَّة الحكم	المبحث الثاني: سيرة الإمام الحسن <small>عليه السلام</small> الجهادية
١٤٠ المبحث الرابع: صلحُ الإمام الحسن <small>عليه السلام</small>	المبحث الرابع: الإمام الحسن <small>عليه السلام</small> واستلام دفَّة الحكم

الفصل الخامس: الإمام الحسين بن علي

١٤٩

عليه السلام

| المبحث الأول: سيرة مشرقة

١٥٥ | المبحث الثاني: ملامح عصر الإمام الحسين عليه السلام

١٥٧ | المبحث الثالث: خطوات الإمام الحسين عليه السلام في مواجهة سياسة (معاوية)

١٥٩ | المبحث الرابع: الخيارات الاستراتيجية للإمام الحسين عليه السلام

١٦٠ | المبحث الخامس: دوافع الرحيل عن المدينة المنورة

١٦١ | المبحث السادس: إقامة الإمام الحسين عليه السلام في مكة المكرمة

١٦٢ | المبحث السابع: العزم على مغادرة مكة إلى العراق

الفصل السادس: الإمام علي بن الحسين عليه السلام

١٦٥

| المبحث الأول: سيرة مضيئة

١٧٣ | المبحث الثاني: المحطات الرئيسية في حياة الإمام السجاد عليه السلام

١٧٩ | المبحث الثالث: مرحلة التحول الاستراتيجي

الفهرس

الفصل السابع: الإمام محمد بن عليّ الباصر (عليه السلام) ١٨٣

| ١٨٦ | المبحث الأول: سيرة عطراة

| ١٨٨ | المبحث الثاني: عبادته ودعاؤه وتقواه (عليه السلام)

| ١٩٠ | المبحث الثالث: مكارم أخلاقه وسجاياه

| ١٩١ | المبحث الرابع: العوامل المؤثرة في عصر الإمام الباصر (عليه السلام)

| ١٩٤ | المبحث الخامس: إسهام الإمام الباصر (عليه السلام) في تأسيس المدرسة
العلمية لأهل البيت (عليهم السلام)

الفصل الثامن: الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) ٢٠٧

| ٢١٠ | المبحث الأول: سيرة ذاتية مضيئة

| ٢١٥ | المبحث الثاني: السياق التاريخي لعصر الإمام الصادق (عليه السلام)

| ٢١٧ | المبحث الثالث: منهجهية الإمام الصادق (عليه السلام) في الإصلاح العلمي

| ٢٢١ | المبحث الرابع: العناية بالتدوين

| ٢٢٤ | المبحث الخامس: موقف الإمام الصادق (عليه السلام) من حكم (المَنْصُور)

الفصل التاسع: الإمام موسى بن جعفر الكاظم (عليه السلام) ٢٦٧

- | ٢٦٩ | المبحث الأول: سيرة الإمام موسى الكاظم (عليه السلام)
- | ٢٣٤ | المبحث الثاني: الإطار التاريخي والسياق العام
- | ٢٣٥ | المبحث الثالث: الحفاظ على الاستمرارية الفكرية والعلمية
- | ٢٣٦ | المبحث الرابع: النشاط السياسي
- | ٢٤١ | المبحث الخامس: الدوافع وراء سجن الإمام (عليه السلام)

الفصل العاشر: الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) ٢٤٥

- | ٢٤٩ | المبحث الأول: سيرة مضيئه
- | ٢٥٤ | المبحث الثاني: الحياة السياسية للإمام الرضا (عليه السلام)
- | ٢٥٧ | المبحث الثالث: الإمام الرضا (عليه السلام) وولاية العهد

الفصل الحادي عشر: الإمام محمد بن علي الجواد (عليه السلام) ٢٦٧

الفهرس

٢٦٩	المبحث الأول: سيرة حياة مضيئة
٢٧٣	المبحث الثاني: السياق السياسي السائد
٢٧٥	المبحث الثالث: استراتيجية المأمون
٢٧٧	المبحث الرابع: رد الإمام الجواد <small>(عليه السلام)</small>
٢٨١	الفصل الثاني عشر: الإمام علي بن محمد الهادي <small>(عليه السلام)</small>
٢٨٣	المبحث الأول: حياة مضيئة
٢٨٨	المبحث الثاني: استلام الإمام الهادي <small>(عليه السلام)</small> لمنصب الإمامة
٢٨٩	المبحث الثالث: السياق التاريخي لعصر الإمام الهادي <small>(عليه السلام)</small>
٢٩٧	المبحث الرابع: الجانب التنظيمي (نظام الوكالة)
٢٩٩	الفصل الثالث عشر: الإمام الحسن بن علي العسكري <small>(عليه السلام)</small>
٣٠١	المبحث الأول: حياة مضيئة وشرقية

- ٣٠٦ | المبحث الثاني: الأوضاع والتحولات السياسية
في زمن الإمام العسكري عليه السلام
- ٣٠٩ | المبحث الثالث: الإمام العسكري عليه السلام والإعداد لظهور
الإمام المهدى عليه السلام
- ٣١٣ | المبحث الرابع: النشاط والحضور العلمي
والثقافي للإمام العسكري عليه السلام
- ٣١٥ | المبحث الخامس: استشهاد الإمام العسكري عليه السلام
- ٣١٩ الفصل الرابع عشر: الإمام المهدى عليه السلام
(العقيدة المهدوية: المعتقد والغيبة)
- ٣٢١ | المبحث الأول: محطات من سيرته العطرة
- ٣٢٣ | المبحث الثاني: الاعتقاد بالمهدي عليه السلام تعبير عن حاجة فطرية
- ٣٢٣ | المبحث الثالث: الإيمان بحتمية المنقذ في الأديان السماوية
- ٣٢٤ | المبحث الرابع: معتقد الإمامية في الإمام المهدي عليه السلام
- ٣٢٤ | المبحث الخامس: غيبة الإمام المهدي عليه السلام

الفهرس

- | ٣٥٥ | المبحث السادس: الإمامُ والغيبة الصغرى
- | ٣٥٦ | المبحث السابع: التُّوَابُ الأربع
- | ٣٥٧ | المبحث الثامن: دواعي الغيبة وأسبابها
- | ٣٥٩ | المبحث التاسع: شروطُ انتهاء الغيبة
- | ٣٦٠ . | المبحث العاشر: حكمة إخفاء وقت الظهور
- | ٣٦٢ | المبحث الحادي عشر: إمكانية طول عمر الإمام (عمل الله)
- | ٣٦٤ | المبحث الثاني عشر: نماذج تاريخية للعمر المديد
- | ٣٦٥ | المبحث الثالث عشر: المحاور والمفاهيم الرئيسة
- | ٣٦٧ | المبحث الرابع عشر: علامات الظهور
- | ٣٦٨ | المبحث الخامس عشر: الحكمة من الإشارات أو العلامات
- | ٣٦٩ . | المبحث السادس عشر: المشهد العام قبل الظهور
- | ٣٧١ | المبحث السابع عشر: أحداث ما قبل الظهور
- | ٣٧٤ | المبحث الثامن عشر: الإعلان السماوي عن الظهور

- ٣٤٤ | المبحث التاسع عشر: رايات تسبق الظهور
- ٣٤٥ | المبحث العشرون: الدلالة الرمزية للرايات
- ٣٤٦ | المبحث الواحد والعشرون: حُكْمُ رفع الرايات
قبل ظهور الإمام عليه السلام
- ٣٤٨ | المبحث الثاني والعشرون: التحذيرُ
من الالتحاق بالرايات المشبوهة
- ٣٤٩ | المبحث الثالث والعشرون: رايات الحق الممهدة للظهور
- ٣٥٠ | المبحث الرابع والعشرون: معنى الانتظار وروحانيته
- ٣٥١ | المبحث الخامس والعشرون: سؤال التكليف في عصر الغيبة
- ٣٥١ | المبحث السادس والعشرون: نمطان متباینان للانتظار
- ٣٥٢ | المبحث السابع والعشرون: كيف نعيش
زمن الانتظار بشكل صحيح؟
- ٣٥٥ | المبحث الثامن والعشرون: آداب التواصل مع الإمام المهدى عليه السلام
- ٣٦٠ | المصادر والمراجع



مَرْكُزُ بَرَاثَةِ الْدِرَاسَاتِ وَالْبُحُوثِ

مركز بحثي مستقل غير ربحي، مقره في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والأكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكل في مجموعها الحراك الاجتماعي والأنساني الكبير الحاصل في العالم، وخصوصاً في بلادنا العربية والإسلامية، ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولته فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والاجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجدة؛ سعياً للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقديمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

مُلْكُوكْسِ الْكِتَاب

يرتبط الحُضور الثقافيُّ الغربيُّ بالتفوق والتَّمَذْجَة الكونيَّة، التي تُصْنَفُه كعَبْتَةٍ تاريخيَّةٍ تتجاوز جُلَّ الحضارات السَّابقة، غطَّى هذا الحضور على إِمْكَانِيَّة تحقيق تلاقي بين ثقافات مُخْتَلِفة، قد تحوز على نفس المرتبة التَّصنيفيَّة في المسار التَّارِيخي التي يتم تأطير النَّمُوذج الغربيُّ وفقها، مما أَكَسَّ المركزيَّة الغربيَّة رداء العُنصريَّة الثقافية، التي تستمدُّ جذورها من الاعتقاد بالتفوق النَّاتِج عن: الطَّابع الأوروبيِّ والعقيدة المسيحيَّة والسلف الإغريقيِّ.

يُؤسّس هذا التَّصوّر العُنْصريُّ في بنية الثَّقافة الغربيَّة والأيديولوجيَّة الأوروبيَّة -الَّتي انكشافت خلال النَّهضة ولا زالت ممتدةً إلى يومنا هذا- لإِبداع سرديةٍ غربيةٍ، تنتعش على الاستمراريةِ والامتداد التاريخيِّ من اليونان القديمة، مرورًا بروما إلى القُرون الوُسطى، وصولًا إلى النيوكلونيالية المعاصرة (الاستعمار الجديد - Neocolonialism)، الأمرُ الذِّي يقطع الصَّلة بالتأثيرات الثقافية الأخرى. وبالتالي، نُصبح أمام طرف مُعاكس لهذا الغرب وهو الشَّرق، ونتيجةً هذا التَّقابل يحوز الشَّرق على الصفات الدينيَّة واللا عقلانيَّة المُعاكسة للغرب، مما يمنع أحقيَّة التَّفوق الثقافيَّ للغرب، كُلُّ هذا أوجد أحاديدًا ثقافيةً، تتغذَّى على العنصريَّة وإقصاء المُختلف بدعوى التَّحالف.

